اللَّيلُ المُظلِم

الليل المظلم

تمَّ طبع هذا الكتاب بمساعدة من
المديريَّة العامة للكتاب والمكتبات
في وزارة الثقافة الاسبانية

لا مانع من طبعه
بولس باسيم
النائب الرسولي للآتين في لبنان
جعيتا في ٣ نيسان ١٩٩٥

جميع الحقوق محفوظة
توزيع الرهبانية الكرملية في لبنان
دير سيّدة الكرمل
الحازمية ص.ب. ٢٨٥
ت: ٤٥٣٠٩٣ (٠٥)

صورة الغلاف:
منمنمة في إيقونة يوحنّا الصّليب
رسمت في كرمل حريصا سنة ١٩٩١

يُوحَنّا الصَّليبُ

المؤلّفاتُ الكامِلة ③

اللَّيلُ المُظلِم

نقله عن الاسبانية

الأب اسطفان طعمه الكرملي

وقدّم له

انطون سعيد خاطر

بيروت ٢٠٠٣

تُراث الكرمل ١٣

في الأصل الاسباني

San Juan de la Cruz-*Noche Oscura*

in *Obras Completas*, 3 Ed.

Edit.de Espiritualidad, Madrid, 1988, pp. 419-545

الليل المظلم

نقله عن الاسبانية **الأب اسطفان طعمه الكرملي**

راجعه ودقّق فيه مع المترجم **الأب شاهين ريشا الكرملي**

نقّحه وقدّم له **أنطوان سعيد خاطر.**

الفهرس

صفحة

توطئة ١١
مقدِّمة ١٣
١ - **الليل المظلم** ١٤
٢ - **بين الليل والصعود** ١٤
٣ - **تسمية الليل المظلم** ١٧
٤ - **القصيدة والشرح** ١٩
أ - القصيدة ١٩
ب - بنية القصيدة ١٩
ج - بين القصيدة والشرح ٢٠
٥ - **بنية الكتاب** ٢٣
أ - البنية الشكلية ٢٣
ب - البنية الداخلية أو موضوعات الكتاب ٢٤
٦ - **تصميم الكتاب** ٢٥
أ - الكتاب الأول ٢٥
ب - الكتاب الثاني ٢٦
لمحات ختامية ٢٨

الليل المظلم

الليل المظلم ٣٥
تمهيد الى القارئ ٣٦
قصيدة الليل المظلم بالعربية والاسبانية ٣٨
يبدأ شرح الاناشيد ٤٤

الكتاب الاول : ليل الحواس

الانشودة الاولى ٤٧
الفصل الاول : يبدأ البحث في نقائص المبتدئين .. ٤٩
الفصل الثاني : الكبرياء الروحية ٥٣
الفصل الثالث : البخل الروحي ٥٩
الفصل الرابع : رذيلة الدعارة ٦٣
الفصل الخامس : رذيلة الغضب ٦٩
الفصل السادس : الشراهة الروحية ٧١
الفصل السابع : الحسد والكآبة ٧٧
الفصل الثامن : يشرح البيت الاول ٨١
الفصل التاسع : في العلامات ٨٥

الفصل العاشر : كيفية التصرف ٩٣
الفصل الحادي عشر : شرح الابيات الثلاثة ٩٧
الفصل الثاني عشر : في الفوائد ١٠٣
الفصل الثالث عشر : في الفوائد الأخرى ١١١
الفصل الرابع عشر : يشرح البيت الاخير ١٢١

الكتاب الثاني : ليل الروح

الفصل الأول : يبدأ البحث في ليل الروح ١٢٧
الفصل الثاني : يتبع البحث في نقائص أخرى ... ١٣١
الفصل الثالث : تعليق على ما يلي ١٣٥
الفصل الرابع : الانشودة الأولى وشرحها ١٣٩
الفصل الخامس : يُذكر البيت الأول ١٤١
الفصل السادس : في أنواع أخرى من العذاب ١٤٧
الفصل السابع : أحزان الارادة وانقباضاتها ١٥٣
الفصل الثامن : في عذابات أخرى تحزن النفس ... ١٦١
الفصل التاسع : الليل يُظلم الروح ١٦٧
الفصل العاشر : يُشرح أصل هذا التطهير ١٧٧
الفصل الحادي عشر : ولعٌ شديد بحبِّ الله ١٨٣
الفصل الثاني عشر : هذا الليل الرهيب مَطهر ١٨٩
الفصل الثالث عشر : في مفاعيل أخرى عذبة ١٩٥
الفصل الرابع عشر : شرح الأبيات الثلاثة الأخيرة ٢٠٥

الفصل الخامس عشر : شرح الأنشودة الثانية ٢٠٩
الفصل السادس عشر : النفس تسير آمنة ٢١١
الفصل السابع عشر : التطلّع المظلم هو سرّي ٢٢٣
الفصل الثامن عشر : الحكمة السرّية هي سلّم ٢٣١
الفصل التاسع عشر : ذكر الدرجات الخمس الأولى ٢٣٧
الفصل العشرون : تُعرض الدرجات الخمس الأخرى . ٢٤٥
الفصل الحادي والعشرون : تشرح كلمة متنكّرة ٢٥١
الفصل الثاني والعشرون : يُشرح البيت الثالث ٢٥٩
الفصل الثالث والعشرون : يخبر عن المخبأ العجيب ٢٦١
الفصل الرابع والعشرون : في هدوء النفس ٢٧١
الفصل الخامس والعشرون : تُشرح باقتضاب الأنشودة الثالثة ... ٢٧٥

توطئة

كتاب **الليل المظلم** يحمل الرقم الثالث في مجموعة **المؤلفات الكاملة** للقديس يوحنا الصليب، والرقم الثالث عشر في سلسلة **تراث الكرمل** التي نتابع فيها نشر آثار معلمي الكرمل الكبار وتعليمهم الروحي.

إنه كتابٌ جديدٌ على القارئ العربي، جديدٌ في تعاليمه، جديدٌ في واقعيته، لأنه يكشف بواطن الأمور وسرَّ عمل الله في حياة الانسان. **فالليل المظلم** يشكّل حلقةً محوريَّة في الحياة الروحية، يتوقّف عليها التحوّل المتلاحق وبلوغ منتهى سعادة الانسان.

وقد جرى المترجمون مجرى الترجمات السابقة في هذه السلسلة، متوخّين الأمانة والدّقة مع السلاسة في الأسلوب، مبتكرين تعابير جديدة بعض الأحيان، استزادةً في الوضوح.

فنشكر الاب اسطفان طعمه الكرملي، الذي بذل جهوداً مضينة لنقل هذا الأثر الروحي، والأستاذ أنطوان خاطر الذي تفضّل بالمراجعة ووضع المقدمة المناسبة؛ ونأمل بأن تتيح هذه الطبعة

لمؤلف الكتاب بلوغَ مرامه فيسكب بلسمَ عزائه على سالكي هذا السبيل الوعر، فيُسدِّد خطاهم ويُقيلُ عِثارَهم، وينيرهم بحكمته حتى غاية رجائهم.

الحازمية في ١ / ٨ / ٩٥

الاب شاهين ريشا
الرئيس الاقليمي للآباء الكرمليين
في لبنان

مقدّمة

لقد كان همُّ يوحنا الصليب وشغلهُ الشاغلُ رسمَ الطريق الذي سلكه، هو، وتسلكه، برأيه، النفسُ، وتعيينَ المراحل التي تقطعها حتى تبلغَ الغايةَ القصوى في الحياة الروحية، أي الاتحاد بالحب على قدر ما يتاح لها ذلك في هذه الحياة.

هذه المسيرة عبَّر عنها برموز شعريّة من وحي انتمائه إلى الرهبانية الكرملية، ومن معايشته أجواءَ الكتاب المقدس، ومن معاناته كشاعر فنّان يوفّق بين خيال مبدع وعقل يستغلّ الرمزَ في عملية شرح ملائمة.

لقد رسم الطريقَ، ووصف المراحلَ والحالات ونهايةَ المطاف في أربعة أعمال تُعتَبَر متكاملة ولو انها لم تكن كذلك في تصميم رسمي في الأصل. انها: **النشيد الروحي**، **وصعود جبل الكرمل** و **الليل المظلم وشعلة الحب الحيّة**. واللافت في هذه الأعمال أمران:

- انها قامت على ركنين: أولهما شعر يتراوح بين ٤ مقطوعات في **الشعلة**، وأربعين في **النشيد الروحي**؛ وثانيهما نثرٌ هو شرح هذه المقطوعات أو الأناشيد (جميع أنشودة) كما يسميها المؤلف.

- وان هذه الأعمال الكبرى الأربعة جاءَت نتاجاً غنيّاً في موسم خصب لم يتجاوز السنوات الثلاث (١٥٨٤ - ١٥٨٦).

١ - الليل المظلم

الليل المظلم في الأَصل قصيدة غنائية تتألف من ثماني مقطوعات أو أناشيد خماسية الأبيات، وهو البناء الشكلي الذي اعتمده شاعرنا أيضاً في **النشيد الروحي**، بخلاف **شعلة الحب** السّداسية الأبيات، «تعرض حال النفس في مسيرتها الروحية لتبلغ كمال الاتحاد بالحبّ، بقدر ما يستطاع في هذه الحياة».

والواقع أن **الليل المظلم** كان موضوع شرحين مختلفين في مرحلتين. ففي مرحلة أولى وضع يوحنا الصليب شرحاً جزئياً للأنشودتين الأولى والثانية من القصيدة، موزّعاً على ثلاثة كتب تتألّف، بالترتيب، من ١٥ فصلاً و٣٢ فصلاً و٤٥ فصلاً، جمعها تحت عنوان من وضعه، كما تدل على ذلك جميع المخطوطات، هو **صعود جبل الكرمل**. ثم وضع شرحاً آخر للأناشيد الثلاث الأولى في كتابين يضم الأول منهما ١٤ فصلاً وينطوي الثاني على ٢٥ فصلاً، وتتفق المخطوطات في اعتماد عنوان له: **الليل المظلم**.

٢ - بين الليل والصعود

مُرتَكَز **صعود جبل الكرمل** و**الليل المظلم** ومنطلقهما هو القصيدة

نفسها ذات المقاطع الثمانية الخماسية الأبيات ومطلعها « في ليلة ظلماء » . وهذا بذاته يوحي بوحدة الموضوع الأساسي الذي يعالجه المؤلف فيهما . ولكن ، هل يكرّر يوحنا الصليب في الواحد ما كان عرضه في الأخر ؟

يُفصح الكاتب عن غايته ويُثبت في مطلع كل منهما قولاً يلقي ضوءًا على مقصده . **فالصعود** « يعالج كيف تستطيع النفس أن تستعدّ للوصول بوقت قصير إلى الاتحاد بالله » ويقدّم « تعليماً مفيداً للمبتدئين والمتقدّمين ليحسنوا الانعتاق من كلّ ما هو زمني وكي لا يثقل عليهم ما هو روحي ، فيبلغوا ذروة التجرّد وحرّية الروح كما يفرض الاتحاد الإلهي .» ويكتب في مدخل الليل : « شرح الاناشيد التي تعرض حال النفس في مسيرتها الروحية لتبلغ كمال الاتحاد بالله بالحبّ بقدر ما يستطاع في هذه الحياة .» .

فمن هذا الكلام يبدو كأن **الليل** مُبَرمَجُ كمؤلّف واحد مع **صعود جبل الكرمل** ، باعتبار ان التصميم الفكري واحد بوحدة الغاية أو الهدف ، وهو اتحاد النفس بالله بالحبّ ، لكنه في المخطوطات يظهر كأثر مستقلّ مميّز . والملاحظ ان ايّاً من الكتابين **الليل والصعود** لم يكتمل شرحاً للقصيدة بل ظهرا كلاهما مبتورَيْن . فالليل انتهى مع شرح مقطعين و أنشودتين من مقاطع القصيدة الثمانية. ورغم استرسال المؤلف في العرض والشرح والتحليل في **الصعود** ، فانه توقّف عند القسم الثالث وترك معلّقاً القسم الرابع أي ما كان سيكون الكتاب الرابع . وقد وعد

(في الفصل الأول من الكتاب الأول من **الصعود**، عدد ٢) ان يخصّصه للتطهّر الروحي الانفعالي.

وعليه يمكن القول ان النظرة الى الهدف الواحد ثنائية تتناوله من زاويتين مختلفتين:

أ - من ناحية الانسان وسعيه، ومبادرته **الفاعلة** بما يُفترَض ان يبذله من معاناة ومجاهدة في ارتقائه جبل الكرمل، أو جبل الكمال، للبلوغ الى المشاهدة (الاتحاد بالله) وهو **الليل الفاعل**.

ب - ومن ناحية الله بتأثيره **الفعّال** في نفس الإنسان، وبالتالي بانسياق الانسان انفعالياً، أي باستسلامه لعمل الله في نفسه، في سعيه نحو الذروة.

فالوجه الأول يعرضه في **صعود جبل الكرمل**، وحتى في القسم الأول من **الليل المظلم**، بينما يتناول الناحية الثانية، وهو تطهير النفس أو التطهير الروحي، في الكتاب الثاني، الذي ينقطع في الفصل ٢٥ مع مطلع شرح الأنشودة الثالثة.

فيمكن القول، والحالة هذه، ان المؤلف «يغنّي الأنشودة نفسها على طبقتين مختلفتين من المقامات الغنائية».

ورغم ان شرح **الليل المظلم** يمثّل جزءاً أساسيّاً في تصميم **الصعود**، كما يكرّر ذلك المؤلف، ويفرضه شرح أصيل للقصيدة التي يقوم عليها

تعليمه ، فان **پاتشو**[1] يرى ان **الليل** ، رغم اعتباره تكملةً للتعليم المثبت في **الصعود** ، ليس تكملة صوريّة له ، بل ينعم بشيء من الاستقلالية . وما يؤيد هذه الاستقلالية برأيه ، ان المؤلف يكاد لا يشير في **الليل** الى **الصعود** ؛ خصوصاً انه في الصعود ، يَعِدُ مراراً ، وبشكل واضح ، بأنه سيعالج لاحقاً الموضوعَ المتعلّقَ بالتطهّر الانفعالي . ولهذا الواقع دلالة كبرى متى عرفنا ان من عادة القديس الإكثار من الاشارات إلى آراء وأفكار ومواقف كان قد عرضها من قبل بمثل قوله : « كما قلنا سابقاً » أو « كما أسلفنا القول » . .. وهو في جميع مؤلفاته يشير الى كتابات أخرى بما لا يبقي مجالاً للشك في العمل أو المولّف الذي يحيل اليه . أما في **الليل المظلم** ، فنراه يُقلِعُ عن هذه القاعدة . ثم ان أسلوب التمهيد الموجز الذي وجّهه المؤلِّف الى القارئ وأثبته قبل القصيدة يبيّن ان **الليل** وُضِع كمؤلّف مستقلّ .

وطبيعي أن يكون الأمر كذلك ، كما يصحّ الكلام على ثنائية **الصعود - الليل** ما دام ان الموضوع الأساسي الذي عالجه في الكتاب الثاني مكمّل لذلك التعليم الذي عرضه في الأول ، لكنه لم يتوسّع فيه . وهكذا يمكن القول باستقلالية الكتابين وبتكاملهما الحتمي من حيث انهما يؤلفان ، مُجتَمِعَيْن ، العمودَ الفقري لمذهب القديس الصوفي .

٣ - تسمية الليل المظلم

إذا كان **صعود جبل الكرمل** يتناول « استعداد النفس للوصول بوقت

---

(١) Eulogio PACHO، وهو من اشهر المختصّين بدراسة مؤلفات يوحنا الصليب .

قصير إلى الاتحاد بالله » **والليل المظلم** « يعرض حال النفس في مسيرتها الروحية لتبلغ كمال الاتحاد بالله بالحب » فالغاية واضحة والهدف محدَّد بَيِّنٌ . فلماذا التسمية **الليل المظلم** ؟

بقول المؤلف مجيباً على هذا السؤال : « يمكننا ان نسمّي ليلاً مسيرة النفس إلى الاتحاد بالله لأسباب ثلاثة :

– « الأول هو النقطة التي تنطلق منها النفس ؛ فالنفس يفوتها اشتهاؤها السابقُ جميعَ أشياء العالم بل تروح ترفضها ؛ وهذان الفوات والرفض هما مثل ليلٍ لحواس الإنسان جميعها » .

– « الثاني هو الواسطة أو الطريق الذي يجب أن تسلكه النفس نحو هذا الاتحاد ، وهو طريق الإيمان ؛ والإيمان غامض بالنسبة إلى العقل ، فكأنه ليل » .

– « الثالث هو نقطة الوصول ، أي الله ؛ والله بالنسبة للنفس، في هذه الحياة ، ليس سوى ليل مظلم » (١ **صعود** ، ٢،١ . راجع كذلك ١ **صعود** ، ٢، ١،٤) .

ولعلّ العنوان الحقيقي الأصيل لهذا المؤلَّف غير المكتمل هو ذلك الذي أعلنه الكاتب نفسه في **شعلة الحب** (الأنشودة الأولى ، عدد ٢٥) وهو « الليل المظلم في صعود جبل الكرمل » حيثُ يتناول تطهير العقل ، والإرادة والذاكرة ، وجوهر النفس . . .

٤ – القصيدة والشرح

أ – القصيدة

لا معطيات تاريخية ولا شواهد أكيدة على مكان نظم القصيدة وزمانه. غير ان الشائع والأرجح ان القديس نظم هذه المقطوعات الثماني بعد زمن قصير من خروجه من سجن طليطلة (آب / أغسطس ١٥٧٨)، هذا إذا لم يكن قد نظمها في السجن نفسه أو في الأيام التي تَلَتْ مباشرة هربه من ذلك السجن الرهباني حيث كان قد قضى تسعة أشهر « كانون الأول / ديسمبر ١٥٧٧ – آب /أغسطس ١٥٧٨).

ب – بنية القصيدة

« ما أكثر من ينطوي عليه بيت من الشعر ! » . ففي البيت الأول من القصيدة « في ليلة ظلماء »، يحمل الليل – الرمز ثقل معاني القصيدة، ويَسِمُ بطابعه القصيدةَ كلَّها، ويلخّص جوهرَ تعليم يوحنا الصليب. وهو في بنية القصيدة الأساسُ الذي تقوم عليه مباشرة ويعطيه وحدتها: فهو مرتكز المقاطع الخمسة الأولى وصلة الوصل بينها وبين الثلاثة الأخيرة.

والمفارقة اللافتة ان البيت الأول **في ليلة ظلماء** بقدر ما يوحي ظاهراً بالتشويش والغموض، بقدر ذلك أيضاً يمثّل الضوء الذي ينعكس ليوضح، الى حدّ كبير، المقاطع الأخرى في حركة متنامية متكاملة. دون أن يعني ذلك ان القارئ، مهما بلغ من قوة حدس للبعد الرمزي في الأبيات،

يستطيع أن يَفْقَهَ كل جوهر الليل المظلم عند يوحنا الصليب، وبُعْدَ معانيه الروحية السامية دون الاستعانة بشرح المؤلف ولو انه فضفاض.

والقصيدة تنطوي على ثلاث شرائح:

١ - المقاطع ١، ٢، ٣، ٥: يظهر فيها واضحاً الدور الحاسم الذي يلعبه الليل الموصوف بالمظلم، بما ينطوي عليه من حركة أساسية ترسم الانطلاق نحو الهدف، وهذه الحركة هي الخروج - الهرب.

٢ - الشريحة الثانية تصوّر المغامرة السعيدة في الخروج والانطلاق في المسيرة الروحية من ذلك الليل الحالك (المقاطع ١ - ٤).

٣ - وتأتي أخيراً المحطة النهائية أو نقطة الوصول في ليل السعادة الذي جمع الحبيبة والحبيب في متعة اللقاء (المقاطع ٥ - ٨).

ج - بين القصيدة والشرح

إذا كان الشعر، فنّياً، ثمرةَ معاناةٍ وجدانية والشرحُ والتفسيرُ منهجاً عقلياً تحليلياً واستدلالياً، فيمكن التأكيد ان قصيدة «الليل المظلم» تنضح بمعاناة يوحنا الصليب فتكوّن قطعة من ذاته كشاعر، وتكون كما يقول پاتشو: «مؤشّراً ودليلاً حياتيًّا على مؤلِّفها لا يستطاع مسُّهُ أو تزويرُه، مهما عُزِلَت عن الشرح الذي وُضع لاحقاً». فالقصيدة ليست بالتالي إبداعاً مصطنعاً لوصف برنامج للمسيرة الروحية. لقد نظمها يوحنا بعد أن عانى مشقّات وضيقات استذكرها لاحقاً وهو ينعم بالسعادة ويتغنّى بها على مسافة زمنية وروحية قطعتها نفسه بين الحالتين.

وإذا كانت معاناته الشخصية وحدها مصدر الهام للقصيدة، فهل كانت كذلك منطَلَقاً مفرداً للشرح المطوَّل المفصَّل ولو لم يكتمل بناؤه؟

من المحتمل جدًّا أن يكون القديس وصل إلى بسط ليلٍ جوهري ووصفه وصفاً تفصيلياً من خلال «ليالٍ» متواترة خاصة به تكاملت بمعلومات عن اختبارات آخرين، ولو قلّة، انطبعت في ذهنه وعلقت في مخيلته أو وعيه الباطني عن أشخاص مُعيَّنين، ولو ان علاقاته لم تكن متشعّبة، من رهبان أو راهبات أو علمانيين. «فمهما تكن قدرته نافذة على سبر أغوار النفس وأحوالها، لا يُتصوَّر انها تسدّ الحالات المنوّعة التي تفرض ذاتها. وهذا ما يكسب احكامه قيمة موضوعية. فأوصافه تعطي انطباعاً انه عمل أيضاً على «نماذج» حيَّة.» وقد نجد دليلاً على ذلك من خلال مواضع في الشرح (مثلاً: ١ **ليل**، ١٣، ٣؛ ١٤، ٢.....)

ومهما يكن من أمر، فلا يغيب عن البال الفاصلُ الزمني بين إبداع القصيدة وكتابة الشرح، ما يستوجب تسجيل هذه الملاحظات:

١ - ان القصيدة جاءَت، كعمل فنّي شعوري، تعبيراً عفوياً عن معاناة ذاتية في ظرف قد يكون امتدّ شهوراً (فترة السجن).

٢ - ان الطابع الشخصي وسِمَةَ السّيرةِ الذاتية لا يمكن نكرانهما في أي حال.

٣ - ان المؤلِّف، وان استغلَّ اختبارات آخرين واستذكرها، يبقى، هو، المثال الأول؛ وينقل اختباره الى حقل التعميم جاعلاً منه نموذجاً؛

ويوجّه حديثه إلى أي نفس عليها ان تجوب الطريق الذي سلكه ، وتمضي في المسيرة التي رسم معالمها ، مع ان القديس يؤكّد ان الليل واحد لدى الجميع ، بل ان لكلٍّ ليلَةُ بحسب النقص الذي يعاني منه ، وبحسب درجة الحبِّ في الاتحادَ التي يريد الله أن يرفعه اليها (١ **ليل**، ١٤،٥) . فالاختلاف في العدد والدرجة وليس في الجوهر .

٤ - وما يضفي على هذا الشرح قيمته انه :

أ - يتّسم بطابع تعليمي روحي يتّفق ومضمونَ القصيدة الجوهري وبُعْدَها الرمزي ، أي انه يضعها في اطار الاختبار الذي عاشَتْه نفوس ؛ فهو نمط اختبار ممكن .

ب - والتفصيل القائم على تحليل دقيق لنزوات النفس وانتقالاتها وتصرّفاتها يهدف إلى إنارة المسترشدين بكلام صادر عن معرفة يقينية وعن رغبة في الإفادة ، لأن « الخير يميل من طبعه إلى تعميم ذاته »[٢] .

ج - والنفس التي تتغنّى بهذه الأناشيد وتبسط أفكارها وآراءَها في هذا الشرح انما هي نفس بلغت حال الكمال بعد معاناتها ، وهي الحال التي تدعو النفوس إليها ، ما يَس؛بغ على هذا التعليم طابع مشروعٍ لنهج يُتَّبَع ، واقتراحٍ لالتزامه من أجل بلوغ الهدف . ولهذا ، ربما ، توقَّف عند شرح المقطوعات الأولى من القصيدة التي تمثّل العمل والسعي ، بالهروب ،

---

(٢) Bonum est diffusivum sui وهو مبدأ فلسفي ولاهوتي معروف .

والخروج، ولم يتجاوز الى المقطوعات الأخيرة التي يصف فيها محطة الوصول، أي حالة الاتحاد التي تحوّل النفس إلى الله تحويلاً، باعتبار انه عُني بالحديث «عمّا خو أكثر أهميّة، وما كرّس له نفسه بنوع خاص، وهو شرح هذا الليل لنفوس كثيرة تجتازه وهي على جهل من أمره . . .» (٢ **ليل**، ٢،٢٢).

٥ – بنية الكتاب

أ – البنية الشكلية

ليس من مخطوط محفوظ عن الكتاب بيد المؤلف، بل هناك عدد كبير من النسخ لا تَفاوُتَ خطيراً في ما بينها؛ وقد أحصى الأب لوثينيو روانو[٣] ٢٤ مخطوطاً تسعة منها محفوظة في المكتبة الوطنية في مدريد.

ويبدو ان تقسيم المؤلّف كما نَعْهَدُه في طبعات اليوم موزَّعاً في كتابين، وكذلك توزيع الفصول، وعناوينها وترقيم المقاطع ليست من صنع الكاتب، بل تعود إلى الطبعة الأولى لأعماله التي ظهرت في **ألكالا** (القلعة) سنة ١٦١٨. بل يبدو ان التوزيع الوحيد الذي اتبعه القديس هو ذاك الذي اعتمده في الشروح الأخرى (**الصعود**، **النشيد** . . .) وذلك باثباته الأنشودة أولاً فالأبيات تالياً كتقسيم مادي وحيد للنص لينطلق من ثَمَّ في الشرح.

---

(٣) Lucinio RUANO

على ان التقسيم التقليدي الشائع في كلّ الطبعات ذو فائدة منهجية لا شك فيها . فتقسيم هذا الأثر إلى كتابين يتّسم بالمنطق لأن أولهما يتناول **ليل الحسّ الانفعالي** بينما يتناول الثاني **ليل الروح الانفعالي** . ثم ان ختام الفصل ١٤ من الكتاب الأول يعتبر حقًّا حدًّا فاصلاً بين الكتابين ، فهو يختم بحثاً ويمهّد لبحث جديد بقوله : « فقد حان وقت الكلام على الليل الثاني » .

ولئن كانت بدعة ناشر الطبعة الأولى موضوع انتقادات اذ يحوّل الكتاب إلى مقالة وبحث لم يتصوّرهما ذهن المؤلف ، ولأن التقسيم يقطع الشرح أحياناً ، الا ان جميع الناشرين اليوم ارتضوا هذا التوزيع لأنه يساعد القارئ للدخول مع المؤلف في هذا **الليل** ولا يسبب خللاً في مقوّمات هذا العمل .

ب ـ البنية الداخلية أو موضوعات الكتاب

موضوعان رئيسان يتوزّعان الكتاب : ليل الحس وليل الروح . والقديس يكرّر القول انه سيقصر بحثه على وصف مفاعيل الليل وعلاماته المميّزة بما يساعد من دعاهم الله إليه ويساعد مرشديهم الروحيين .

أما ليل الحسّ فيقرّر ان يكون حديثه عنه موجزاً لأنهُ موضوع عام معروف وقد كُتِبَ حوله الكثير (١ **ليل** ، ٢،٨) .

وما يسترعي الانتباه ان الشرح ينقطع عند مطلع الأنشودة الثالثة ، فيُخال ان العمل جاء مبتوراً ناقصاً . غير اننا نعود إلى **التمهيد إلى القارئ** فنجد المؤلف يقول إن الحديث في هذه الأنشودة الثالثة وحتى الثامنة يتناول

شرح « مفاعيل رائعة مختلفة عن التنوير الروحي وعن الاتحاد بالله بالحب » ، وكأن هذا نتيجة وخلاصة لحال الوصول إلى الاتحاد بالله ولم تبقَ أمور أساسية متعلقة « بمفاعيل التطهيرَيْن الروحيين اللذين يطالان القسم الحسّي والقسم الروحي من الإنسان » واللذين يمثّلان جوهر الموضوع الذي خصّص له الأنشودتين الأولى والثانية . فكأني بالقديس وفّى بهذا موضوعه وأدّى قسطه المطلوب فوضع قلمه وارتاح ، وكن قد فكّر بترك الكتابة والانسحاب حين اعتبر انه « شرح شرحاً وافياً الأمر الأهمّ الذي » وضعه نصب عينيه « وهو شرح الليل للعديد من النفوس التي تجتازه على جهلها إيّاه » (٢ **ليل** ، ٢،٢٢) .

٦ – تصميم الكتاب

مقدّمة عامة : تعريف بالقصد من شرح الأناشيد . **تمهيد** يحدّد الموضوع (شرح مفاعيل التطهيرين) – **اثبات** القصيدة فتنبه الى ان النفس تطلق هذه الأناشيد وهي في حالة الكمال .

أ – الكتاب الأول :

– وصف موجز لليل المظلم وضرورته للمبتدئين كي يصلوا إلى حال الكاملين . إيضاح ضرورته بمثل الطفل المحتاج إلى رعاية أمه لكي يكتفي بذاته لاحقاً (ف ١) .

– الرذائل والنقائص التي تصيب المبتدئين وارتباطها بالرذائل الرئيسية السبع (ف ٢ – ٧) .

- تقسيم الليل المظلم إلى حسّي وروحي وعمله التطهيري. تطهير الحسّ ليتوافق مع الروح، وتطهير الروح لتكون أهلاً للتوافق مع الاتحاد بالله بالحب، كالولد الذي بدأ يسير وحده(ف ٨).

- العلامات لتمييز الليل التطهيري كعمل الله في النفس منطَلَقاً لحياة التطلّع، ومعرفة طبيعة اليبوسات: هل هي عند المبتدئين لدوافع بشرية أم ان الله بدأ يختبرهم (ف ٩).

- الأحوال المتقلّبة التي يتعرّض لها المبتدئون (ف١٠)

- ملامح خاصة ومفاعيل الانتقال من ليل الحسّ إلى ليل الروح، كالانتقال من التفكّر أو التأمل الى التطلّع - ثمار ليل التطلّع التطهيري وفوائده: معرفة الله، معرفة الذات، الفضائل (ف ١١ - ١٣).

- تحقّق ليل الحسّ هذا بعذابات ومحن مختلفة اذا تجاوزها المبتدئون انتقلوا إلى الحالة الأخرى (ف ١٤).

ب - **الكتاب الثاني:**

- تمهيد لليل الروحي: وضع النفس الخاص لدى تجاوزها حال المبتدئين وليل الحسّ: تعتريها أحياناً محن ويبوسات وانقباضات وكأنها بشير بالليل الروحي الآتي؛ وتعاني ظواهر عجيبة ترافقها انعكاسات على الجسد: انخطاف روحي، اضطرابات جسميّة (ف ١).

- ضرورة الليل الروحي للمتقدمين بسبب النقائص التي ما زالت عالقة فيهم، ومقارنة بين الليلَيْن الانفعاليين، وتأكيد ان الليل الروحي هو الأساس (ف ٢. - ٤).

- وصف مباشر لليل المظلم: «تأثير الله في النفس يطهّرها من جهالاتها ونقائصها العادية، الطبيعية والروحية . . . يتطابق مع التطلّع المفاض أو اللاهوت الصوفي . . . يطهّر النفس وينيرها للاتحاد بالله». لكن النفس لا تكون فيه خِلْواً تماماً من البلوى والاضطراب (ف ٥ - ٨).

- بلايا هذا الليل التطهيري تهدف الى تأهيل النفس للاتحاد بالله - الأسباب التي تجعل هذا الليل مرعباً - النور الإلهي يعمل في النفس عمل النار في الخشب (ف ٩ - ١٠).

- ثمار هذا التطلّع المفاض: تطهير، واضرام، ونقاوة واستنارة بالحب. تطهّر الإرادة والعقل. عطش الى الحب (ف ١١ - ١٢).

- وصف جديد لليل باعتباره خروجاً أو عبوراً من حالة إلى أخرى يعتمد البيت - السجن رمزاً (ف ١٤).

- عرض الأنشودة الثانية - تمهيد لوصف جديد لليل التطلّع وتعيين صفاته (ف ١٥).

- صفات ليل التطلّع: آمِن (١٦)؛ سرّي (١٧)؛ سلَّمُ تطلّع، درجاته ودرجات الحب (١٨ - ٢٠)؛ مقنَّع (٢١)؛ مغامرة سعيدة (٢٢)؛ وهو خفاء للنفس يجعلها في حرز من الشيطان (٢٣)؛ توفير السكينة للنفس حسًّا وروحاً وتأثير حاسم كإعداد مباشر للاتحاد بالله (٢٤-٢٥).

لمحات ختاميَّة

ونرى من المناسب والمفيد معاً ان نشير إلى بعض معطياتٍ وظروفٍ خاصّة **بالليل المظلم** تأليفاً وترتيباً وأسلوباً .

ان المخطوطات المعروفة عن **الليل** ٢٤ حتى الآن ولا واحدَ منها بخط المؤلف نفسه . لكن الاجماع في توافقها وفي تأكيد الباحثين الاختصاصيين ضمانةٌ لأصالتها . وبين هذه المخطوطات اثنان أساسيان : أولهما يحمل الرقم ٣٤٤٦ في المكتبة الوطنية في مدريد ، ومصدره الأصلي دير سيدة « الشفاء » (Remedios) في اشبيلية ؛ يُعتبر خيرَها وأكمَلها بالنسبة إلى **الليل المظلم** ، ويُعرَف عادة بالاشبيلي فيُرمَز إليه بالحرفH أي (Hispalense)؛ والآخر محفوظ في خزائن مركز الرئاسة العامة للكرمليين الحفاة في روما ويحمل الرقم 328 a، ويضمّ الكتابين الأوَّلَيْن من **صعود جبل الكرمل** ، **والليل المظلم** ، **وشعلة الحب** في صياغتها الأولى التي يُرمَز اليها بـ **شعلة** أ أي (L1A). وأهمية هذا المخطوط تعود بنوع خاص إلى الملاحظات والتعليقات التي وضعها عليه الأب توما يسوع (١٥٦٤ - ١٦٢٧) القريب العهد جداً من القديس وكان قد كُلِّفَ باعداد مؤلَّفاته .

ليس من إشارة أكيدة تلقي الضوء على الدافع ، الخارجي أقلّه ، لوضع الكتاب أو الظرف الخاصّ الذي تمّ فيه ، كطلبٍ من أحد مسترشدي

المؤلّف أو المعجبين بتعليمه، وذلك بخلاف **النشيد الروحي وشعلة الحب** اللذين شرح فيهما القصيدتين العائدتين اليهما استجابةً لطلب الأم حنّة يسوع (**النشيد**) ولطلب السيدة حنّة دي بينيالوسا (**الشعلة**). على ان بالامكان أن نلمح بوضوح نزعةً راعوية لدى المؤلف وراء شرح **الليل** من خلال قوله في مقدّمة **الصعود** (عدد ٣): إن ما دفعه إلى قول شيء عن هذا **الليل المظلم**، «ليس قدرتي على أمر كهذا عسير، بل ثقتي بأن الرب سيساعدني على قول شيء نظراً إلى الحاجة الكبرى التي تعانيها نفوس كثيرة؛ ذلك انها اذ تبدأ السير في طريق الفضيلة، واذ يريد ربنا أن يدخلها في هذا الليل المظلم لتعبر منه إلى الاتحاد بالله، تتقاعس عن التقدّم . . .» واذا كان هذا شأن **الصعود** فيمكن أن نلمح الدافع إيّاه في **الليل المظلم** لما بينهما من ترابط موضوعي وتكامل، على استقلاليتهما، كما أشرنا سابقاً.

بخلاف أسلوب يوحنا الصليب في أعمال أخرى له، نرى عباراته في **الليل المظلم** تتداخل أحياناً، وتطول، وتتشابك الأفكار فيها، وتبتعد عناصر الجملة الرئيسية بعضها عن الآخر، ما يحمل على الاعتقاد انه كان يملي إملاء وليس أمامه نصّ مكتوب متكامل.

ويلاحظ أيضاً تكراره العبارة «كما سنقول» أو «كما سبق فقلنا» وما يُشعِر بمعناها، ما يَشِفُّ عن رغبة قصوى في الايضاح، أو عن ثقة بالأمر وتأكيد له من حيث انسجام أفكاره وتوافقها التام فيما بينها، أو لعلّ هذه الصيغ عكاكيز في اطار الشرح والتفصيل.

وغالباً ما يتداخل في الكتاب خطّان واتجاهان : الاختبار الشخصي والتفكير العقيدي . فالاختبار المرتبط بالحدث التاريخي يوفر عنصر توحيد **لليل المظلم** والعبور من الحسّ إلى الروح ، من العالم إلى الله ، من ليل السجن الذي عاناه يوحنا إلى أجواء الحرية ، من ليل العالم المظلم إلى صبح الله المملوء ضياء .

وبهذا يوفّق يوحنا الصليب في الجمع بين نظرة استذكارية لاختبار ماضٍ عاش بطلُ القصيدة ، (أي هو نفسُه) احداثه ، وبين وضعه نهجاً عملياً حياتياً برسم النفوس الأخرى . وبهذا يتجاوز الذاتية الواضحة على شيء من الخفر ليجعل همّه الغيريَّة في نزعة راعوية لا تصطبغ بأسلوب العظة المباشرة أو التحريض ، بل بالتركيز على وضع الحقائق الواقعية (نتيجة الملاحظة والاختبار والتحليل) ، أمام النفوس ، مدعومةً بايضاح عقيدي لاهوتي .

وهو ان بدا أحياناً يرسم لوحة داكنة الألوان قد تثبّط عزيمة الروحانيين بسبب العقبات ، والمشاقّ ، والضيقات . . . التي قد تجابههم حتى في ما يُظنُّ انه أحسن أحوالهم ، فاننا نراه لا ينفكّ يكرّر ان الروحانيين عليهم أن يدعوا الله يقودهم ليكمّل فيهم عمله التطهيري .

ومهما يكن من أمر ، يبقى **الليل المظلم** احدى الأمثولات الكبرى في الروحانيات ، واحدى الركائز الأساسية في مذهب يوحنا الصليب الروحي ، ويبقى « ليل الروح الانفعالي ، كما يقول غارّيغو-لاغراج[٤]، أحد كبار

(٤) GARRIGOU-LAGRANGE

لاهوتيّي عصرنا ، أكثر تعاليمه أصالة ، وقد دفع به اللاهوت الصوفي أكثر ما دفع في طريق التقدّم واستحقّ بفضله لقب المعلم .»

أنطوان سعيد خاطر

بعض المراجع بالعربية

في سلسلة تراث الكرمل :

مع يوحنا الصليب بيروت ١٩٩١

الاعمال الصغرى بيروت ١٩٩٢

النشيد الروحي بيروت ١٩٩٤

الليل المظلم

الليل المظلم

شرح الأناشيد[1] التي تعرض حالَ النفس في مسيرتها الروحية لتبلغَ كمال الاتحاد بالله بالحبّ، بقدر ما يُستطاع في هذه الحياة؛ وفيه حديثٌ أيضًا عن الخصائص التي يتّصف بها مَن بلغ الكمال المذكور، وفق ما تتضمّنه المقاطع؛ بقلم الأب الأخ يوحنا الصليب، الكرملي الحافي، ناظم تلك الأناشيد.

(١) الأناشيد: هنا جمع انشودة وهو المقطع او الخماسية من قصيدة **الليل المظلم**. وقد استعملنا العبارة انسجامًا مع الترجمة التي اعتمدناها في **النشيد الروحي** للقديس يوحنا الصليب المنشور في سلسلة «تراث الكرمل» هذه، عدد ١٢.

تمهيد إلى القارئ

تُثبَتُ في هذا الكتاب، أوَّلًا، جميعُ الأناشيد المنوي شرحُها. ثم تُشرَح كلُّ أنشودة على حدة، بعد أن يُعرَض نصُّها قبل شرحه، ثم تُشرَحُ بيتاً بيتاً، ويُثبت كلُّ بيتٍ قبل شرحُه.

في الأنشودتين الأوّليين، تُشرَحُ مفاعيلُ التطهيرَيْن الروحيَّين لقِسمي الانسان الحسّي والروحي. أمّا الأناشيد الستّ الباقية فتُشرَح فيها مختلفُ المفاعيل الرائعة الناتجة عن التنوير الروحي وعن الإتحاد بالله بالحبّ.

قصيدة الليل المظلم

١ - في ليلةٍ مُظلِمَة،
مَشُوقَةً، بالحبِّ مُضطَرِمة،
يا له حظًّا سعيدًا!
خرجتُ لم يَدْرِ بي أحَد،
وقد صارَ بيتي هادِئًا.

٢ - [خرجتُ] تحتَ جنحِ الظلامِ، آمِنَة،
في السُلَّمِ السِرّي، مُتَنَكِّرة،
يا له حظًّا سعيدًا!
تحت جنح الظلام وفي حَذَر،
وقد صار بيتي هادِئًا.

٣ - في الليلةِ السعيدة
في الخَفاءِ، ولا أَحدَ يراني،
ولا أَرى أنا شيئًا،
دون نورٍ ولا دليل
سوى الذي في قلبي يَستعر.

NOCHE OSCURA

1. En una noche oscura
con ansias en amores inflamada
¡oh dichosa ventura!
salí sin ser notada
estando ya mi casa sosegada

2. A escuras, y segura
por la secreta escala disfrazada
¡oh dichosa ventura!
a escuras y en celada
estando ya mi casa sosegada.

3. En la noche dichosa
en secreto que nadie ne veía
ni yo miraba cosa,
sin otra luz y guía
sino la que en el corazón ardía.

٤ ـ كان ذاك دليلي،
آمَنَ من نور الظهيرة،
إلى حيث كان بانتظاري
مَنْ كنتُ أَعرِفُهُ حقًّا،
في موضعٍ خَلْوٍ من الناس.

٥ ـ يا لكِ ليلةً كنتِ دليلاً!
يا لكِ ليلةً أَحبَّ من الأَسحار!
يا لكِ ليلةً جَمَعْتِ
حبيباً وحبيبةً،
حبيبةً تحوَّلَت إلى الحبيب!

٦ ـ على صدري المُزهِرِ،
محفوظًا له وحدَه، كلُّه،
هناك عَراه الكرى[1]،
وكنتُ أنا، أُمتِّعُه،
ومِرْوَحَةُ الأرزِ تَهديه نسيما.

---

(١) الكرى: النعاس.

4. Aquésta me guiaba
más cierto que la luz del mediodía
adonde me esperaba
quien yo bien me sabía
en parte donde nadie parecía.

5. ¡Oh noche que guiaste!
¡Oh noche amable más que la alborada!
¡Oh noche que juntaste
Amado con amadc,
amada en el Amado transformada!

6. en mi pecho florido,
que entero para él solo se guardaba,
allí quedó dormido
y yo le regalaba
y el ventalle de cedros aire daba.

٧ ـ كان الهواءُ من الشَرَفَة[١]
إذ كنتُ أَنثُرُ شعرَه،
بيدِه الهادئة،
يَجرَحُ عُنُقي،
ويَتركُ حواسّي كلَّها مُعلَّقة.

٨ ـ لبثتُ هناك وذاتي نسيتُ،
ووجهي حَنَوْتُه فوقَ الحبيب،
توقَّفَ كلُّ شيءٍ واستَرْخَيْتُ،
مخلِّفَةً هَمّي
بين السَواسِنِ[٢] مَنسيًا.

انتهت

(١) الشَرَفَة واحدة شَرَفَات وهي مثلَّثات أو مربَّعات تُبنى في أعلى سورٍ أو قصر.
(٢) السَواسِن جمع سوسن.

7. El aire de la almena
cuando yo sus cabellos esparcía
con su mano serena
en mi cuello hería
y todos mis sentidos suspendía.

8. Quedéme y olvidéme,
el rostro recliné sobre el Amado,
cesó todo y dejéme,
dejando mi cuidado
entre las azucenas olvidado.

FIN

يبدأ شرحُ الأناشيد التي تعالج حالَ النفس وطريقتَها في مسيرتها نحو الإتحاد بالله بالحبّ، بقلم الأب الأخ يوحنا الصليب الكرملي الحافي.

وقبل ان نبدأ شرحَ هذه الأناشيد يجدر بنا أن نعرفَ هنا أنّ النفسَ تُنشِدُها وهي تعيش في حالة الكمال، أي في الاتحاد بالله بالحبّ، بعد ان اجتازت ضغط المشقات والضيقات، بواسطة التمرّس الروحي في **طريق الحياة الأَبدية الضيّق**، الذي ذكره مخلّصُنا في الإنجيل (**متى** ٧/ ١٤)، وهو الطريق الذي تجتازه النفسُ، عادةً، لكي تبلغَ إلى سموّ هذا الإتحاد السعيد بالله. ولمّا كان هذا الطريق ضيّقًا جدًّا، **والداخلون فيه قلّة**، كما يقول الربُّ نفسه أيضاً (**متى** ٧/ ١٤)، فإنَّ النفسَ تعتبر حظًّا عظيماً وسعادةً كبرى كونَها عبرت هذا الطريق إلى كمال الحبِّ المشار إليه، على ما تتغنّى به في هذه الأنشودة الأولى. وتدعو، بحقٍّ، هذا الطريقَ الضيّقَ ليلًا مظلمًا، كما سيُشرَحُ لاحقًا في أبياتِ الأنشودة المذكورة.

فالنفس، إذاً، وقد أنعِمَت سروراً لأنّها اجتازت هذا الطريق الضيّق، وقد جنت منه خيراً وافراً، تقول:

الكتاب الأول

ليل الحواس

الأنشودة الأولى

في ليلةٍ مظلمة،
مَشوقَةً، بالحبِّ مضطرمة،
يا له حظًّا سعيدًا!
خرجتُ لم يدرِ بي أحد،
وقد صار بيتي هادئًا.

الشرح

خروج النفس

١ - تروي النفس في هذه الأنشودة الأولى، الحالَ والطريقةَ اللتين تجرّدت بهما عاطفيّاً من ذاتها ومن جميع الأشياء، فماتت بإماتةٍ حقيقيّة عنها كلّها وعن ذاتها، لتعيشَ مع الله حياةَ حبٍّ حلوةً ولذيذة. وتصرّح النفسُ بأن هذا الخروج من ذاتها ومن جميع الأشياء كان ليلًا مظلماً؛ وتعني بذلك، كما سنرى، التطلّعَ[1] المطهِّرَ الذي يُحدِثُ في النفس، بنوعٍ انفعالي، ما ذُكِرَ من نكرانِها ذاتَها وجميعَ الأشياء.

(١) التطلّع: نستعملُ هذه الكلمة لترجمة كلمة Comtemplación . راجع كتاب **مع يوحنّا الصّليب**، بيروت ١٩٩١، ص ٦٢.

دوافع الخروج

٢ - وتضيفُ [النفس] هنا أنَّها استطاعت تحقيقَ هذا الخروج بفضل القوّة والحرارة اللتين منحهما إياها، لتلك الغاية، حبُّ عريسِها في أثناءِ التطلّع المظلم المذكور. فتُشيدُ في هذه الأنشودة بعظيم اغتباطها لنجاحها الوافر في السير نحو الله عبر هذا الليل، دون أن يتمكّن أيٌّ من أعدائها الثلاثة، أي العالم والشيطان والجسد، من عرقلتها، رغم أنّهم لا ينفكّون يعترضون سبيلها؛ وذلك لأن ليل التطلّع المطهِّر المذكور قد أَدخل في سباتٍ كلَّ أهواءِ النفس وشهواتها، وأَماتَها في مَقَرِّ حسيَّتها[1]، وفقاً لشهواتها وحركاتِها المعاكسة. فتقول في البيت:

في ليلةٍ مظلمة .

---

(١) الحِسّيّة: Sensualidad : رغم أنَّ الكلمة الاسبانية تتضمَّن معنىً سلبيًّا في مفهوم اللاهوت الأدبي، إلَّا أنَّ المؤلّف يعني بها فقط أساس الحواس (راجع **معجم اللاهوت الكاثوليكي** في كلمة **الإحساس** Sensibilidad ص٦ (ش.ر.).

الفصل الأول

يبدأ البحث في نقائص المبتدئين

عمل الله في النفس

١ - تبدأ النفوس في ولوج الليل المظلم عندما يبدأ الله يخرجها من حالة المبتدئين، أي الذين يمارسون التفكّر[١] في الطريق الروحي، فيضعها في حالة المتقدّمين، أي التطلّعيين، لتبلغَ، بعد أن تجتاز هذه الدرجة، حالةَ الكاملين، أي حالة اتّحاد النفس بالله اتحادًا إلهيًّا.

فلكي يتيسَّرَ لنا إذًا، أن نفهمَ ونشرحَ شرحاً أفضل أيَّ ليل هو هذا الليلُ الذي تجتازه النفس، ولأيِّ سببٍ يزجُّها اللهُ فيه، ينبغي أن نتكلَّمَ أوّلًا على بعض خصائص المبتدئين. ولئن أوجزنا القولَ ما استطعنا، فلن يقصُرَ عن إفادةِ المبتدئين أنفسهم؛ حتى إذا ما أدركوا هزالَ حالتهم، نَشَطوا ورغبوا في أن يُدخلَهم الله في هذا الليل، حيث تتشدَّد النفس وتترسَّخ في الفضائل، وتتأهَّل لأفراح الحبِّ الإلهي التي لا تُثَمَّن. وإن اسهبنا [في

(١) التفكّر Meditación أو القسم التفكيري في ممارسة التأمّل تمييزًا له عن التطلّع Contemplación (راجع كتاب **يوحنّا الصّليب**، بيروت ١٩٩٢، ص ٦٥- ٨١).

الشرح] بعضَ الشيء، فلن يكون إلّا بالقدر الذي يتيحُ لنا الانتقالَ حالًا إلى البحث في هذا الليل المظلم.

عمل الأم مع طفلها

٢- ينبغي، إذًا، أن نعرفَ أنَّ النفس، بعد أن تتحوّل بعزمٍ إلى خدمة الله، يأخذ الله عادةً يغذّيها بحنانٍ، ويلاطفها كما تلاطف الأمُّ الحنونُ طفلَها الصغير، فتُدفئه بحرارةِ صدرها، وتغذّيه بلبن لذيذ وطعامٍ طيّبٍ طريّ، وتحمله بين ذراعيها وتداعبه. ولكن كلّما أخذ الطفل ينمو تخفّف أمُّه المداعبة، وتحجب عنه حبَّها الرقيق، فتدهن بالصَّبِر(٢) المرّ ثديَها العذب، وتُنزلُ الطفلَ عن ذراعيها وتُطلقه ليمشي على رجليه، حتى إذا ما فقد صفات الطفولة تفرَّغَ إلى أمورٍ عظمى وجوهرية(٣). وهذا عينه ما تصنعه مع النفس نعمةُ الله، تلك الأمُّ الحنون، إذ تجدّدها ثانيةً مُذكِيَةً فيها حرارةً وحماسةً لخدمة الله، فتجعلها تجد اللبنَ الروحيَّ حلوًا وعذبًا في أمور الله كافةً، وبدون أيّ جهدٍ منها، وتصادفُ لذةً كبرى في الرياضات(٤) الروحية؛ لأن الله

---

(٢) عصارة مرّة تُستخرج من نباتٍ يحمل الإسم نفسَه تُستعمل في الطبّ للاسهال (الخَرْوَع). واستعملنا اللفظة التي وردت لدى القديس وهي عربيّةُ الأصل : acíbar : الصَّبِر (أ. خ.).

(٣) هذه الصورة الجميلة يتابعها في فصول لاحقة، (**ليل** ١: ٨، ٣ و١٢، ١).

(٤) ترجمة كلمة Ejercicios يُقصد بها أيّة ممارسة روحيّة ولا تعني بالمعنى الحصري أوقاتًا تُقضى في الصلاة والعزلة (ش.ر.).

يقدّم لها، في هذه الحال، صدرَه المفعم حبًّا ورقّةً، كأنها طفلٌ طريّ العود (١ **بطرس** ٢/٢-٣).

تسرّع المبتدئين

٣ - لذلك تجد النفس متعتَها بانصرافها إلى التأمل أوقاتًا طويلةً، بل الليالي الكاملة أحيانًا، وتجد في أعمال التقشّفِ لذّاتها، وفي الأصوام مسرّاتها، وفي ممارسة الأسرار والمشاركة في الأمور الإلهية تعزياتها. ورغم أنَّ الروحيّين يثابرون على هذه العبادات بحميّة، ويشتركون فيها اشتراكًا فعّالًا، ويُولونَها عظيمَ عنايتهم، يبقى سلوكُهم فيها عمومًا، من الوُجهة الروحيّة، مشوبًا بكثيرٍ من الضعف والنقصان. فلأنّ ما يدفعهم إلى هذه الأمور والرياضات الروحيّة هو ما يجدون فيها من تعزيةٍ ومسرّةٍ، ولأنهم أيضًا لم يتأهّلوا للفضائل برياضاتٍ قاسية، يتعرّضون في أعمالهم الروحيّة هذه إلى هفواتٍ ونقائصَ عديدة؛ لأن كلًّا منهم يعمل، في الواقع، وفقًا لـمَلَكَةِ[٥] الكمال التي بلغَها؛ وبما أنَّ هؤلاء المبتدئين لم يتسنَّ لهم اكتسابُ المَلَكاتِ الراسخة، فلا بدّ من أن يعملوا بضعفٍ كأطفالٍ ضعفاء.

ولكي نتبيَّنَ بجلاءٍ أكبرَ هذا الأمرَ، وبأيِّ نقصٍ يمارس هؤلاء

---

(٥) المَلَكَة habitus ، عند العلماء هي صفةٌ راسخة في النفس اذا ارتبطت بفعلٍ ما تسمّى **عادةً** habitude. عن **محيط المحيط** ص٨٦٣. (ش.ر.).

المبتدئون الفضائلَ في أمورٍ تُيسِّر لهم اللذةُ المذكورةُ القيامَ بها، فسنعرض ذلك على ضوء الرذائل الرئيسيّة السبع، ذاكرين بعضًا من النقائص العديدة التي تشوبهم في كلٍّ منها، فيُرى، من ثمَّ، بوضوحٍ، كم يُشبهُ تصرُّفُهم تصرّفَ الأطفال؛ ويُرى كذلك كم من الخيرات يحمل معه الليلُ المظلمُ إذ يُنقِّي النفسَ ويُطهِّرها من هذه النقائص كافةً؛ وهذا ما سوف نبحث فيه لاحقًا.

الفصل الثاني

في بعض مقائص روحية تنتاب المبتدئين، مرتبطةٍ بمَلَكَةِ الكبرياء.

كبرياء المبتدئين

١ - عندما يشعر هؤلاء المبتدئون بحرارةٍ ونشاطٍ عظيمين في الأمور الروحيّة والممارسات التقويّة، ورغم أنَّ الأمور المقدّسة تحملُ بحدِّ ذاتِها على التواضع، فإن هذا النجاحَ يولِّد فيهم، أحيانًا كثيرة، بسبب نقصهم، طَرَفًا من كبرياء خفيَّةٍ تبعث فيهم بعضَ الرضى عن أنفسهم وأعمالهم. ويتولَّدُ فيهم من ذلك أيضًا، ميلٌ باطلٌ، وباطلٌ جدًّا أحيانًا، إلى اطلاق احاديثَ روحيّةٍ أمام آخرين، بل، إلى تلقينها، أحيانًا، أكثرَ من تعلُّمها. وَيشجبون الآخرين في باطنهم عندما لا يجدونهم يسيرون في طريقةِ العبادة التي يتمنَّونها هم؛ بل إنّهم يُفصحون عن شجبهم جهراً، فيُشبهون، بتصرّفهم هذا، الفرّيسيَّ الذي حينما كان يمجِّد الله كان يفتخر بأعماله ويحتقر العشّار (**لوقا** ١٨/١١-١٢).

الغرور ودينونة الآخرين

٢ - وغالباً ما يُذكي الشيطانُ في هؤلاء الحرارةَ والرغبة في الإكثار من هذه الأعمال وغيرِها لينموَ فيهم الكبرياءُ والغرور. فالشيطانُ يعرف جيِّدًا أن جميع الأعمال والفضائل التي يمارسونها لا تُجديهم نفعاً، بل على العكس، تنقلبُ فيهم إلى رذيلة. ويبلغُ الشرُّ ببعضهم، عادةً، مبلغًا يتمنّون معه ألا يبدو صالحاً أحدٌ سواهم؛ لذلك يحكمون على الآخرين، ويثلبونهم[1] بالفعل والقول، متى سنحت الفرصة، فيرون **القذى في عين أخيهم ولا يفطنون للخشبة التي في عينهم (متى ٣/٧)**؛ **إنهم يصفّون بعوضةَ** الآخرين **ويبتلعون جَمَلَهم (متى ٢٤/٢٣)**.

الاستخفاف بمرشديهم

٣ - ويحدث أحيانًا، أيضًا، أنْ لا يوافقَ معلّموهم الروحيون أو معرّفوهم ورؤساؤُهم على طريقتهم في التفكير أو التصرّف - لأنهم يبغون الثناءَ على أمورهم ومديحَها -، فيحسبون أن أولئك الرؤساء لا يفهمون روحانيَّتَهم أو أنهم ليسوا بروحانيين، لكونهم لا يُقرّون تصرُّفاتهم ولا يطاوعونهم فيها. لذلك سرعانَ ما يرغبون عنهم ويسعون إلى التعاطي مع آخر يأتلف مع ذوقهم؛ لأنهم يودُّون، عادةً، التداولَ في أمور روحهم مع من يعلمون أنَّهم سوف يُثنون على أمورهم ويقدِّرونها، ويهربون، هربَهم

---

(١) . يثلبونهم يعيبونهم ويلومونهم (ش.ر.).

من الموت، مِمَّن يشجبونها ليوجّهوهم في طريقٍ آمِنٍ، بل يُضمرون لهم حقدًا أحيانًا. ولاعتدادهم بأنفسهم، يُكثرون المقاصد عادةً ويفعلون القليل القليل. يودّون أحيانًا أن يطّلع الآخرون على أمور روحهم وعلى تقواهم، فتراهم يتصنّعون حركاتٍ ظاهرةً وتنهُّداتٍ ومظاهرَ أخرى؛ ويتكلّفون، أحيانًا، انخطافاتٍ، علانيةً أكثر ممّا في الخفاء، يساعدهم فيها الشيطانُ فيستطيبون شيوعَ خَبَرِها، بل غالبًا ما يتهالكون[٢] عليها.

خداع المعرّف

٤ - كثيرون يحاولون استباقَ المعرّفين وخَطْبَ وُدِّهم، فتتولّد فيهم من جرّاء ذلك ألوفٌ من مشاعر الحسد والاضطراب. إنهم يخجلون من الإقرار بخطاياهم عاريةً لئلا يسقطوا في أعين معرّفيهم، ويتمادون في تلوينها لئلا تظهرَ خِسَّتُهم؛ وهذا أقرب إلى الإعذار منه إلى الإقرار بالأخطاء. ويبحثون أحيانًا عن معرّفٍ آخر يُقِرُّون له بشرِّهم لئلّا يحسبَ الأولُ أنهم يأتون شرًّا ما، لكن خيراً. أما معرِّفهم، فيسرُّهم دائمًا أن يصارحوه بصلاحِهم، معتمدين أحيانًا تعابيرَ تضخِّم [هذا الصلاح] بدلاً من بدلَ أن تُقلِّله، وذلك كي يكسبوا تقديرَ المعرِّف لهم؛ مع أن التواضع، كما سنبيِّن ذلك، يفرض عليهم أن يُحَقِّروا صلاحَهم ويرغبوا في ألّا ينالوا اعتبارَ المعرّف أو أيِّ كان.

---

(٢) تهالك على الشيء سعى إليه بحِرص (ش.ر.).

فقدان الصبر

٥ - ويقلّل فريقٌ من هؤلاء من شأن هفواتهم تارةً، وطوراً يغتّمون جدًّا لسقوطهم فيها لاعتقادهم أنهم قد أصبحوا قدّيسين، فيفقدون صبرَهم ويحْنَقون على ذواتهم، ما يشكّل نقيصَةً جديدةً. وكثيراً ما يلتمسون من الله، بلهفةٍ مُلحَّة، أن يمحو نقائصَهم وهفواتِهم، لا حبًّا بالله، بل ليستريحوا بسلامٍ من مُضايقتها؛ ولا يفطِنون إلى أنه لو أزالها فلعلَّهم يزدادون كبرياءً وغروراً. ويكرهون أن يَمدَحوا سواهم، ويسرُّهم أن يُمدَحوا، لا بل يلتمسون هذا المديح أحيانًا؛ شأنهم في ذلك شأن العذارى الجاهلات اللواتي كنَّ يحملنَ مصابيحهنَّ منطفئةً بينما يطلبن زيتًا من الخارج (متى ٨/٢٥).

احتقار الذات

٦ - ويبلغ الأمر ببعضهم أن ينغمسوا بشدَّةٍ في كثيرٍ من هذه النقائص وينزلقوا بها إلى شرٍّ كبير. إلّا أنَّ بعضَهم ينغمس في أقل، وبعضَهم في أكثر، وبعضَهم فقط في الحركاتِ الأولى أو ما بعدها بقليل. وقلَّما نجد بين هؤلاء المبتدئين مَن لا يسقطون في شيءٍ من هذا، حتى عندما يعيشون في حرارة الورع.

غير أنَّ الذين يسلكون، في هذه المرحلة، طريقَ الكمال فإنهم يسلكون اتجاهاً مغايراً جدّاً وبمزاجٍ مختلفٍ تماماً؛ فهم يتقدَّمون في التواضع ويكونون قدوةً صالحةً، فلا يحتقرون أمورَهم الخاصة فقط، بل قلّما يَرضَون عن

ذواتهم؛ ويعتبرون الآخرين جميعاً أفضل منهم بكثير، ويشعرون نحوهم عادةً بحسدٍ مقدَّسٍ يرافقه توقٌ إلى أن يخدموا الله مثلهم؛ ولأنهم يعيشون حياة التواضع، فكلَّما اشتدَّ ورعُهم، وتضاعفت أعمالُهم وازداد سرورُهم بها، ازدادوا عِلماً بِعِظَمِ ما يستحقُّ الله وبقلَّةِ كلِّ ما يفعلون لأجله. وهكذا كلّما كَثُرَت أعمالُهم قلَّ رضاهم. ويبلغ بهم الشوقُ إلى العمل بالحبِّ وبالمحبّة لأجل الله درجةً يحسبون معها كلَّ ما يفعلونه لا شيء. ويستحثّهم همُّ الحبِّ هذا، ويُشغلهم ويَشغَفُهم فلا يلتفتون أبدًا إلى ما فَعَلَ الآخرون أو لم يفعلوا؛ وإذا التفتوا فيعتقدون بكلِّ يقين، كما أقول، أنّ الآخرين جميعَهم أفضلُ منهم بكثير. ومن ثَمَّ، فبما أنهم يَستقلُّون[٣] ذواتِهم، يودُّون لو يستقلُّهم الآخرون ويسفِّهونهم ويحقِّرون أمورَهم. بل اكثر من ذلك: فحتى لو أراد [الآخرون] مدحَهم والثناءَ عليهم، لا يستطيعون تصديقَهم بأيِّ حال، ويستغربون ان يُنسَبَ إليهم ذاك الصلاح.

خصائص المتواضعين

٧ – ان هؤلاء يرغبون، بكلّ تواضعٍ واطمئنان، في أن يُعَلِّمهم كلُّ مَن بوسعه أن يُفيدَهم؛ فأمرهم يختلف اختلافًا كبيراً عمَّن قلنا أعلاه إنَّهم يودّون تعليمَ كلِّ شيء، وعندما يبدو أن أحدًا يعلِّمهم شيئًا، يتلقَّفون كلامه من فيه وكأنهم يعرفون مسبقًا فحواه. أما اولئك [المتواضعون]، لكونهم بعيدين كلَّ البعد عن الرغبة في ان يكونوا معلّمين لأحد، فنجدهم مستعدِّين للسير ولتبديل طريقهم، إن أُمروا بذلك، لأنهم لا يعتبرون أنَّهم يُصيبون في

(٣) استقلّه عدَّهُ قليلاً.

شيء. يُسَرّون بأن يُمدَحَ سواهم، ويَحزنون، فقط، لعجزهم عن خدمة الله مثلهم.

يتحاشَون التحدُّثَ بأمورهم الخاصة لأنهم يحتقرونها، فيَخجلون حتى من إطلاع معلّميهم الروحيّين عليها، مُعتبرينها أموراً لا تستحقُّ الذكر. ويفضّلون أن تُكشَفَ نقائصُهم وخطاياهم وأن يتفهَّمها الآخرون، لا أن تُعرفَ فضائلُهم؛ وعليه، فهم يميلون إلى التداول في أمور نفسهم مع من لا يقدِّر أمورَهم ولا روحَهم. تلك هي خصائصُ الروح البسيط، الطاهر الصادق، والمرضيِّ لدى الله كلّ الرضى. فحيث إنَّ روحَ حكمةِ الربِّ يسكن في هذه النفوس المتواضعة، فهو يدفعها حالًا ويُميلها إلى إخفاءِ كنوزها سرًّا في الداخل، وإلى إخراج مساوئها؛ لأن الله يمنح المتواضعين هذه النعمةَ وسائر الفضائل، ويحجُبها عن المستكبرين (**حكمة** ٦/٤).

قلّة المتواضعين

٨ - هؤلاء يبذلون دمَ القلب لمن يخدم الله، ويساعدونه بقدر استطاعتهم لكي يخدمَه. ولدى سقوطهم في بعض الهفوات، يتألّمون بتواضع، وبروح وديعة، وبمخافة الله مخافةَ محبَّة، وبالرجاء فيه.

غير أنَّ الأنفس التي تسلك منذ البدءِ نهجَ الكمال هذا، أظنّها، كما قلنا، قليلةً جدًّا؛ وإنّنا لنقنع إذا لم تسقط في النقائص المضادة. ولذلك يضع الله في الليل المظلم، كما سنقول لاحقًا، اولئك الذين يريد تطهيرَهم من جميع هذه النقائص ليدفعهم إلى الأمام.

الفصل الثالث

في بعض النقائص التي تعتري عادةً بعض المبتدئين وتتّصل بالرذيلة الرئيسية الثانية أي البخل الروحي.

غرابة وعدم استقرار

١ - يعتري، أيضًا، كثيرين من هؤلاء المبتدئين، أحيانًا، بخلٌ روحيٌّ شديدٌ، فتكاد لا تراهم مسرورين بالروح الذي يُعطيهم إياه الله. يعيشون مكتئبين جدًّا ويتذمَّرون لأنهم لا يجدون التعزيةَ التي يتمنَّونها في الأمور الروحية. كثيرون منهم لا يملّون سماعَ المشورات ولا تعلّمَ الوصايا الروحية ولا اقتناءَ كتبٍ عديدة في هذا الموضوع ومطالعتَها؛ ويقضون في ذلك وقتًا أطول مما يقضونه في ممارسة الإماتة وكمال الفقر الروحي الداخلي الذي عليهم أن يمارسوه. وتجدُهم، إضافةً إلى ذلك، يحملون صُوَراً وسُبُحاتٍ عجيبةً غريبةً؛ يطرحون هذه تارةً، ويحملون أخرى؛ يُبدِّلونها حينًا ويستبدلونها حينًا آخر؛ يشتهونها بهذا الشكل مرَّةً، وأخرى بذاك؛ يتعلَّقون بهذا الصليبِ أكثر من تعلّقهم بذاك، لطرافة صُنعه. وترى

آخرين مُرَصَّعةً صدورُهم بصُوَرِ الحَمَل[1] وبالذخائر والأَحراز[2] كصدور الأطفال مرصّعةً بالحلى.

أني أشجُبُ في هؤلاء تعلّقَ القلب، وتمسُّكَهم بشكلِ هذه الأشياء وكثرتِها وغرابتِها، لأن هذين التعلّق والتمسّك يتنافيان مع فقر الروح الذي يهدف إلى جوهر العبادة دون غيره، مستفيدًا فقط ممّا يكفي لبلوغ هذه الغاية، ومُستَثْقِلًا كثرةَ الأشياء الأخرى وغرابتَها. فالعبادة الحقّة يجب أن تنبعَ من القلب في إطار الحقيقةِ فقط وفي جوهرِ ما تمثّله الأشياء الروحية؛ وما خلا ذلك فتعلُّقٌ بالتوافه ومؤشِّرُ نقصٍ، وهي شهوةٌ يجب القضاءُ عليها إن أردنا الوصولَ إلى أيّ درجةٍ من الكمال.

خبرة شخصية

٢ - عرفتُ شخصًا حمل ما يزيد على عشر سنوات صليباً خَشِنًا مصنوعًا من عودٍ مبارك، مسمَّراً بدبُّوس مفتولٍ حوله، ما نزعه عنه قطّ، بل كان يحمله دائماً إلى أن أخذتُه، أنا، منه. وما كان ذلك الشخصُ بضعيف العقل والفهم.

---

(١) صورُ الحَمَل أو حَمَلُ الله أيقونة أو ذخيرة من شمع عليها صورةُ المسيح - الحمل، أو أيٍّ قدّيس، وقد باركها البابا (أ. خ.).

(٢) الأحراز: ذخائر منقوشٌ عليها أسماءُ القديسين لتعصمَ من الأذى (أ. خ.).

ورأيت شخصًا آخر يصلّي بسُبحةٍ مصنوعة من عظَيْمَاتِ حَسَكات السمك؛ ومن المؤكد أنَّ عبادته لم تكن، لهذا السبب، دنيّةَ القيمة في عيني الله؛ فواضحٌ أنَّ هذين الشخصين لم يضعا عبادتَهما في طريقةِ صنع الأشياء ولا في قيمتها.

أما الذين يُحسنون السلوكَ منذ هذه البدايات، لا يتعلَّقون بالأدوات المنظورة ولا يحملونها، ولا يهمُّهم إطلاقًا أن يَعرِفوا أكثر مما يجب أن يَعرفوا لكي يعملوا، لأنهم يضعون فقط نصبَ أعينهم مصالحتَهم مع الله وإرضاءَه، ويجعلون من ذلك مطمَعهم. وعليه، فإنّهم يبذلون بسخاءٍ وافر كلَّ ما يملكون، وهم سعداء في التخلّي عنه لأجل الله ومحبّةً بالقريب، لا فرق عندهم أكان ما يملكون خيراتٍ روحيةً أو زمنيةً، لأنهم، كما قلتُ، ينظرون فقط حقيقة الكمال الداخلي ، وهو إرضاءُ الله وعدمُ إرضاءِ الذات في أيِّ شيء.

العلاج الإلهي

٣ - غير أن النفسَ لا يمكنها أن تَتنقّى تمامًا من هذه النقائص، ولا من سواها، إلى أن يضعها الله في التطهير المنفعل في ذلك الليل المظلم الذي سنتكلّم عليه لاحقًا. غير أنه ينبغي للنفس أن تبذلَ من جهتها قصارى جهدها للتقدّم في الكمال كي تستحقَّ أن يُخضِعَها الله لهذا العلاج الإلهي، حيث يشفي النفسَ من كلِّ ما عجزت هي عن الشفاءِ منه. لأنه مهما بذلت النفسُ من جهدٍ، فلن تقوى على تطهير ذاتِها

فاعليًا بقدرٍ يخوّلها أن تتهيَّأَ، ولو بأدنى قسطٍ، للاتّحاد بالله بحبٍّ كاملٍ، إن لم يبادرْ إليها ويُطهِّرْها في تلك النار المُظلمة بالنسبة إليها، بالنوع والطريقة اللذين سنتحدث عنهما.

الفصل الرابع

في نقائص أخرى تعتري عادةً هؤلاء المبتدئين وتتّصل بالرذيلة الثالثة أي الدعارة.

حركات مفاجئة

١ - يعتري الكثيرين من هؤلاء المبتدئين نقائصُ أخرى وافرةٌ إضافةً إلى تلك التي أُشيرُ إليها بخصوصِ كلِّ رذيلة؛ لكنني أُعرِضُ عنها تجنّباً للإطالة، فأُلمح إلى بعض النقائص الرئيسية التي تُعتَبر أصلَ سائر النقائص وسببَها. وعليه، فبما يختصّ برذيلة الدعارة هذه - وأترك جانباً خطورةَ سقوط الروحانيين في هذه الخطيئة، لأن هدفي معالجةُ النقائص التي يجب تطهيرُها بواسطة الليل المظلم - أقول إنَّ كثيرين منهم تعتريهم نقائصُ عديدةٌ يمكن تسميتُها دعارةً روحيةً، لا لأنها حقًّا كذلك، بل لأنها تنتج عن أمور روحيّة. فكثيراً ما يحدث، في أثناء القيام بالرياضات الروحية عينها، أن تستيقظَ في القسم الحسّي وتحصُلَ حركاتٌ وأفعالٌ قبيحةٌ ليس لهم فيها حيلةٌ؛ بل يحدث ذلك أحيانًا عندما يكون الروحُ مستغرقًا في التأمل، أو لدى التقرّب من سرّي التوبة والافخارستيا.

تمازج الحس والروح

٢ - وهذه [الحركات]، التي ليس لهم فيها حيلةٌ، كما قلت، تصدرُ عن واحدٍ من ثلاثة أسباب. السبب الأول هو أنَّها تنشأ أحيانًا كثيرةً عن تذوّقِ الطبع الأمورَ الروحيّة؛ فلمّا كان الروح والحسّ يتذوّقان هذه الأمور، يتحرّك كلُّ قسم من الإنسان ليتلذَّذَ بما يناسبه وفقًا لخصائصه؛ فالروح، وهو القسم الأعلى، يتحرّك حينئذٍ ليُسَرَّ ويبتهجَ بالله؛ وتتحرّك الحسّيّة [١]، وهي القسم السفلي، لِتُسَرَّ وتتلذَّذَ حِسّيًّا، لأنها لا تعرف تذوُّقًا أو لذّةً أخرى، فتأخذ عندئذٍ الأقربَ إليها، أي اللذّة الحِسّيةَ المخزية. وعليه، يحدث أن تكون النفس غارقةً في الصلاة مع الله بحسب الروح، فإذا بها تشعر، من جهةٍ أخرى، وبتأثير الحسّ، بثوراتٍ وحركاتٍ وافعالٍ حسيّة انفعاليةٍ، تتقزَّزُ منها كثيراً. ويحدث ذلك مراراً كثيرةً في أثناء المناولة؛ فلأن النفسَ تنالُ في عمل الحبِّ هذا فرحاً ومسرَّةً يمنحها إيّاهما هذا الربّ، (ولذلك يهب ذاته)، تأخذ الحسّيَّةُ قسطَها، كما قلنا، على طريقتها. وأخيراً، لمَّا كان هذان القسمان كائنًا واحدًا، فكلاهما يشتركان عادةً في ما يحصل عليه أحدُهما، كلٌّ على طريقته. لأنه كما يقول الفيلسوف «كلُّ ما يُحتَوى يُحتَوى على حسب حال الحاوي» [٢]. وعليه،

---

(١) الحِسّيّة: Sensualidad راجع **الأنشودة الأولى** ملاحظة ١.

(٢) Quidquid recipitur ad modum recipientis recipitur. هذا المبدأ الذي يعتبر من المسلَّمات والمنسوب إلى ارسطو الفيلسوف، أكثرَ المدرسيّون من استعماله لاسيّما القديس توما الذي أورده بصيغٍ متقاربةٍ في مؤلفات عدّة، أشهرها:

ورغم أنَّ النفس قد أصبحت متقدِّمةً في هذه البدايات، فبما أنَّ الحسِّيَّة ما زالت ناقصةً، فإنها تتلقَّى روحَ الله بالنقص عينه أحيانًا كثيرة. ولكن حين يتمُّ إصلاحُ هذا القسم الحِسِّي بواسطة تطهير الليل المظلم الذي سنتكلّم عليه، فلن تعتريَ تلك الأوهان، لأنه يَبطل أن يكون حاوياً، بل يكون محتوىً في الروح؛ ولهذا يمتلك كلَّ شيء عندئذٍ على حسب حال الروح.

الشيطان

٣ - السبب الثاني الذي تصدر عنه أحيانًا هذه الثورات هو الشيطان: فلكي يُقلقَ النفسَ ويكدِّرَها حين تقوم بالتأمل أو تهمّ بممارسته، يحاول أن يثير في الطبيعة هذه الحركاتِ المخزية التي تُلحِقُ بالنفس أشدَّ الأذى إن اكترثت لها. [والمبتدئون] يتراخون في التأمل، وهذا ما يبتغيه الشيطان، ليس خوفًا من هذه الحركات فقط، بل لأنهم ينهضون لمحاربتها، متصوّرين أن هذه الأمور تحدث لهم في أثناء هذه الممارسة أكثر ممّا تحدث لهم في خارجها. وهذه هي الحقيقة؛ لأن الشيطان يثيرها فيهم في أثناء هذه

أشهرها: **الخلاصة اللاهوتية**، القسم الأول، المسألة ٧٩، بند ٦؛ **والردود على الخوارج** أو **الخلاصة في الردّ على الأمم**، الكتاب الأول، الفصل ٤٣. والمبدأ ذو أهمية كبرى في تعليم مؤلفنا، لأنه يرى ان عمل الله في النفس يتحقّق بحسب طاقة النفس الروحية. ونراه يكرّر هذا المبدأ في ٢ **الليل المظلم**، ١٦، ٤ (أ. خ.).

الممارسة الروحيّة أكثر من سواها لكي يتركوها. ولا يكتفي بذلك، بل يبلغ به الأمر أن يصوِّرَ لهم تصويراً حيًّا ظاهراً أموراً بشعةً ومخزيةً جدًّا، ومجتمعةً بعضها مع بعضٍ أحيانًا، تتّصل بأيِّ أمرٍ من الأمور الروحيّة وبأشخاصٍ يُفيدون نفوسَهم، لكي يُرعِبَهم ويروِّعَهم فلا يَجرُؤَ الذين يكترثون له حتى على النظر في شيء أو التفكير فيه لأنهم حالًا سيعثرون به بتلك الصور. وتحصل هذه الأمور لذوي الطبع السوداوي بفعاليةٍ شديدةٍ وتواترٍ يُثيران عليهم عميقَ الشفقة لأنهم يُعانون حياةً تعيسةً؛ فالضيقُ يبلغ ببعض الأشخاص، حين يُصيبهم هذا الداءُ، مبلغًا يخالون معه، بوضوح، أنهم يُحسُّون الشيطان وصل إليهم، وليسوا أحراراً ليستطيعوا تجنُّبَه؛ رغم ان بعضاً من هؤلاء يستطيعون تجنّب هذا الوصول بكثيرٍ من الجهد والعناء. وعندما تحدث هذه الأشياء المخزية لمثل هؤلاء الأشخاص، بفعل السويداء، فلا يتخلَّصون منها عادةً قبل أن يتعافوا من حالة ذاك المزاج؛ إلَّا إذا دخلت النفسُ في الليل المظلم الذي يحرمها، على التوالي، من كلِّ شيء.

الخوفِ

٤ – اما الأصل الثالث الذي تصدر عنه، عادةً، هذه الحركات المخزية وتشنُّ حربَها، فيكون، عادةً، الخوفَ الذي استشعره هؤلاء من هذه الحركات والتصوُّرات المخزية؛ لأن الخوفَ الذي يُثيره فيهم تذكُّرُهم المفاجئ ما يشاهدونه أو يعالجونه أو يفكّرون فيه، يجعلهم يكابدون تلك الأعمال بدون ذنبٍ منهم.

طبعٌ خفيف رقيق

٥ - وهناك أيضًا بعضُ النفوس ذواتِ طبعٍ رقيقٍ وضعيفٍ ما إن تشعر بأيِّ متعة روحيّة أو تأمّلية حتى تحسّ معها بروح الدعارة يُسكِرُها ويدغدغُ حسّيَّتَها بحيث يجد أصحابُها ذواتَهم منغمسين[٣] في عصير هذه الرذيلة ومتعتها؛ ويلازمهم كلا الأمرين انفعاليًا. ويلاحظون بعض الأحيان أن قد حدثت بعضُ الأعمال المخزية والعاصية. والسبب أنَّ طبعَ هؤلاء، كما قلت، هو من الضعف والرّقة بحيث يعكّر فيهم أيُّ انفعالٍ الاخلاطَ والدم، فتنتج عنه هذه الحركات. ويحدث لهؤلاء الأمرُ نفسُه عندما يتّقد غضبُهم أو يُصيبهم أيُّ اضطراب أو عذاب.

حماسة وجسارة

٦ - عندما يتناول هؤلاء الروحانيّون أموراً روحيَّةً بالقول أو بالعمل، يستفيقُ فيهم أحيانًا طَرَفٌ من الحماسة والجسارة أمام الأشخاص الحاضرين، فيتحدَّثون إليهم بشيءٍ من العُجب الباطل؛ وهذا يتولّد أيضًا من الدعارة الروحيّة كما نفهمها هنا، الأمر الذي يَصحَبُه، عادةً، رضى الإرادة.

الحبّ البشري

٧ - وتَكِنُّ فئةٌ منهم إلى بعض الأشخاص، عن طريقِ العلاقة الروحيّة،

---

(٣) انتقلنا من الحديث عن «بعض النفوس» إلى «اصحابها» مطابَقَةً لكلام القديس في ذكره «النفوس» أولًا بصيغة المؤنث، وانتقاله بعدئذٍ إلى اعتماد صيغة المذكّر في الكلام على «انغماسهم» وليس انغماسهنّ (أ.خ.).

عواطفَ تُولَدُ غالباً من الدعارة وليس من الروح؛ ويُعرَفُ ذلك عندما لا يزداد نموًّا، مع تذكُّر تلك العاطفة، ذكرُ الله وحبُّه بل وخزُ الضمير. فعندما تكون العاطفةُ روحيّةً صرفًا، تنمو بنموِّها العاطفةُ نحو الله؛ وبمقدار ما تُذكَرُ تلك العاطفةُ يزدادُ بالأحرى ذكرُ الله والشوقُ إليه؛ والنموُّ في الأولى يقابله النموُّ في الأخرى؛ لأن ما يميّز روحَ الله هو أن ينموَ الصالحُ مع الصالح، لما فيهما من تشابهٍ وتطابق. لكن عندما ينشأُ ذاك الحبُّ عن الرذيلة الحسّية المذكورة، تكون النتائج معاكسةً؛ لأنه كلما نما الواحدُ ضَعُفَ الآخر، وضَعُفَ ذكرهُ. فإذا نما ذلك الحبّ، يُرى حالًا الفتورُ في حبِّ الله ونسيانهُ بسبب تلك الذكرى، مصحوبين بشيءٍ من توبيخ الضمير؛ وعلى العكس، إذا نما حبُّ الله في النفس يَتَرُد فيها الحبُّ الآخر ويُنْسَى. فبما أنهما حبّان نقيضان، فالواحد لا يساعد الآخر فحسب، بل بالأحرى يُخمِدُ الغالبُ الآخرَ ويُخزيه ويتقوّى في ذاته، كما يقول الفلاسفة. وفي ذلك يقول مخلِّصُنا في الانجيل: **مولود الجسد يكون جسدًا، ومولود الروح يكون روحًا** (**يوحنا** ٦/٣). أي إنَّ الحبَّ المولود من الحسّيَّة يُفضي إلى الحسّيَّة، والمولود من الروح يُفضي إلى روح الله وينمّيه. هذا هو الفرق بين هذين الحبّين لكي نعرفهما.

٨ - عندما تدخل النفس في الليل المظلم، ترتِّب جميعَ هذه الأنواع من الحبّ، لأنها تقوّي الواحدَ وتطهِّره، أي الحبَّ الذي يناسب الله، وتطرد الآخرَ وتقضي عليه؛ ومنذ البدء تعمل على إشاحة النظر عنهما معاً، كما سنشرح ذلك فيما بعد.

الفصل الخامس

في النقائص التي يقع فيها المبتدئون وتتّصل برذيلة الغضب.

سرعة الغضب

١ - يتملّكُ غالباً العديدَ من المبتدئين، بسبب ميلهم المنحرف [١] إلى المذاقات الروحيّة، كثيرٌ من النقائص التي تتّصل برذيلة الغضب، لأنهم عندما يفقدون طعم الأمور الروحيّة ولذّتَها يُمسون ذوي طبع عبوس، ويعتريهم الإشمئزاز فيتداولون أمورَهم بفظاظة ويغضبون بسهولة كبيرة ولأتفه الأسباب، فلا يطيق أحد احتمالَهم أحيانًا. وغالباً ما يحدث ذلك بعد أن يكونوا قد تذوّقوا اختلاءً حسيًّا مُمتعاً جدًّا في التأمل. وما إن يزول هذان الطعم واللذة حتى يعودَ الطبعُ بَرِماً سَئِماً - تماماً كالرضيع حين يُبعَدُ عن الثدي الذي كان يتذوّق طعمه -. واذا لم يجرِ الطبع في هذا التبرّم، فلا ذنبَ عليه؛ إنْ هو إلّا نقيصة يجب تطهيرها بيبوسة الليل المظلم وضيقه.

---

(١) الميل المنحرف: ترجمنا بهذه العبارة كلمة Concupiscencia الاسبانية اقتباساً عن **معجم اللاهوت الكاثوليكي** (ش .ر .).

غيرة قَلِقَة

٢ - وثمة آخرون من هؤلاء الروحانيين يقعون في نوعٍ آخر من الغضب الروحي، وذلك حين يثورُ فيهم على رذائل سواهم غضبٌ يرافقه شيءٌ من الغيرة القلقة، فيكشفونها [الرذائل] للآخرين؛ وتثير هذه فيهم أحيانًا اندفاعًا ليوبِّخوهم بجفاء. وقد يقومون بذلك في بعض الأحيان وكأنهم أصحاب فضيلة. وهذا كلّه ينافي الوداعة الروحيّة.

سخط على الذات

٣ - وهناك آخرون، إذ يرون انفسهم غير كاملين، يحنقون على ذواتهم بنَفَاد صبرٍ لا تواضعَ فيه، يبلغ مبلغًا يودّون معه ان يصيروا قدّيسين في يومٍ واحد. فالعديد من هؤلاء يُكثرون المقاصد ويعقدون عزائم عظيمة؛ وبما أنهم ليسوا متواضعين ويعتدُّون بأنفسهم؛ فبقدر ما يعقدون العزائم بقدر ذلك يسقطون، وبالقدر نفسه يغتاظون، إذ لا يصطبرون أن يمنحَهم الله طلبَهم عندما يشاء. وهذا أيضًا يناقض الوداعة الروحيّة المذكورة، ولا يمكن شفاؤه على الاطلاق إلّا بتطهير الليل المظلم. غير أنَّ لدى بعضهم من الصبر في طلب التقدّم قدراً لا يودّ الله ان يراه فيهم.

الفصل السادس

في النقائص المتّصلة بالشراهة الروحية.

تجاوز الحدود

١ - لا بدّ من الاستفاضة في الكلام على الرذيلة الرابعة اي الشراهة الروحيّة، إذ لا نكاد نجد واحدًا من هؤلاء المبتدئين، مهما حَسُنَ نَهجُه، لا يسقط في شيءٍ من النقائص الكثيرة المتّصلة بهذه الرذيلة، والتي تتولّد في هؤلاء المبتدئين بواسطة العذوبة التي يجدونها عندما يبدأون الرياضيات الروحيّة. لأن العديد منهم، وقد استطابوا ما يجدون في مثل هذه الرياضات من عذوبة ومتعة، يفتّشون عن عذوبة الروح أكثر مما يفتّشون عن نقاوته ورصانته، وهو ما يلتفت الله إليه ويرضاه في المسيرة الروحيّة كلّها؛ فلذلك، وإضافةً إلى النقائص العالقة بهم من جرّاء تشهّي العذوبات، فشراهتهم الحاليّة تجعلهم يعبرون من طَرَفٍ إلى آخر، متجاوزين حدودَ الأوسط الذي عليه تقوم الفضائل وبه تنمو؛ لأن بعضَهم يُنهكون أنفسَهم بالتقشّفات، وقد فُتنوا بمتعتها، وآخرين يُرهقون أنفسهم بالأصوام أكثر مما يُطيقه ضعفُهم، ودون أن يأمرهم أو يشير

عليهم سواهم بذلك؛ بل إنهم يتهرّبون ممَّن يجب عليهم إطاعته في هذا المجال، حتى إن بعضهم لا يتورّع عن القيام بهذه الرياضات ولو أُمِرَ بخلاف ذلك.

مخالفة الطاعة

٢ - إن هؤلاء لبعيدون جدًّا عن الكمال، وهم أناسٌ اغبياء لأنهم يفضِّلون على الخضوع والطاعة - وهما إماتةٌ للعقل وفطنة، وينالان من الله رضىً أوفر، وهما ذبيحةٌ طيِّبةٌ أكثر من ايِّ شيءٍ آخر (١ **ملوك** ١٥/ ٢٢) - إماتةَ الجسد التي إن فُصِلت عن الأخرى [أي إماتة الروح] فلن تكون سوى إماتةٍ حيوانيّةٍ يَدفعهم إليها ما يجدون فيها من شهوةٍ ومتعة، شأنهم في ذلك شأن البهائم. وبما أن كلَّ تطرُّفٍ رذيلةٌ، وبما أنهم يتصرّفون بهذه الطريقة وفق إرادتهم، فَهُم، على العكس، ينمون في الرذائل عوضاً عن الفضائل، لأنهم، يكسبون بهذه الطريقة، على الأقل، شراهةً روحيّةً وكبرياء؛ فما يفعلونه لا يوافق الطاعة.

ويحثُّ الشيطانُ العديدَ من هؤلاء مؤجِّجًا فيهم الشراهةَ بِمُتَعٍ وشهواتٍ يثيرها فيهم - وهو لا يستطيع اكثر من ذلك -، فيبدِّلون ما يُؤمَرون به أو يضيفون إليه أو يغيِّرون فيه، لأنهم يمتعضون لأيِّ طاعةٍ في هذا المجال. وإذا ما أَجبرت الطاعةُ بعضَهم على القيام بتلك الرياضات، فإن الشرّ يبلغ بهم عندئذ مبلغًا يفقدون معه التقوى والرغبة في مزاولتها،

إذ لا رغبة ولا لذّة لهم إلّا في صُنع ما يندفعون إليه (وليس لأنهم يُؤمَرون به)؛ وقد يكون من الأفضل لهم ألّا يفعلوا شيئًا البتّة من هذا القبيل.

اللجاجة على المعرّف

٣ - وسترون العديدَ من هؤلاء شديدي اللجاجة على معلّميهم الروحيّين كي يسمحوا لهم بما يبغون، فيحصلوا عليه كما لو كان عنوةً، وإلّا حَزِنوا كالأطفال واغتّموا، وبدا لهم أنهم لا يخدمون الله عندما لا يَدَعونهم يفعلون ما يروقُهم؛ وإذ يسيرون متشبّثين بالمتعة والإرادة الذاتية يتخذونهما لهم إلهاً، فعندما تُنزعان منهم ويُطلب إليهم إخضاعُ كلِّ شيء لإرادة الله، يحزنون وتخور قواهم وينهارون. فهؤلاء يعتقدون ان تذوّقهم [هذه الرياضات]، وتحقيق رغبتهم يخدمان الله ويحقّقان رغبتَه.

التناول المتواتر

٤ - وهناك فريق آخر، وبسبب هذه الشراهة، يبلغ جهلُهم خِسَّتَهم وبؤسَهم، وطرحُهم جانباً الخشيةَ الودّيةَ والإحترامَ الواجبَين لعظمة الله، مبلغًا لا يشكّون معه في أنهم يلجّون بإفراط على معرّفيهم ليسمحوا لهم بالتناول المتواتر. والأدهى من ذلك هو أنهم يجرؤون على التناول من دون إذنٍ أو رأيٍ من خادم الله وموزِّع أسراره؛ فهم لا يتبعون إلّا رأيهم الخاص ويحاولون إخفاء الحقيقة عنه. ولهذا السبب، ورغبةً منهم في التقرّب من

المناولة، يقومون بالإعترافات كيفما حصلت، واضِعين جُلَّ اهتمامهم في أن يتناولوا أكثر منهم في ان يتناولوا بنقاوةٍ وكمال؛ بينما يكون أسْلَمَ لهم وأكثرَ قداسةً ميلُهم إلى خلاف ذلك، طالبين من معرّفيهم ألّا يأمروهم بهذا التواتر[1]؛ ورغم ذلك، فالأفضل بين هذا الموقف وذاك هو التسليم المتواضع؛ أمّا سائر الجسارات فهي مصدرُ شرٍّ جسيم وعقابٍ لهم على تلك الوقاحة.

نعمة السرّ المقدس

٥ - إن كلّ ما يَنشُد هؤلاء بتناولهم هو أَن يحصلوا على شيءٍ من الشعور واللذّة، أكثر من أن يسجدوا لله في ذواتهم ويُسبّحوه بتواضع؛ ويتملّكهم هذا السعيُ تملّكًا يحسبون معه أنهم لم يفعلوا شيئًا إذا لم ينالوا أيَّ متعةٍ أو شعورٍ حسّي؛ وهذا احتقارٌ شديد لله، لعدم إدراكهم أن اقلَّ فائدةٍ يقدّمها هذا السرّ المقدّس هو ما يتّصل منها بالحّس، أمّا الفائدة العظمى التي يمنحها فهي النعمة الخفيّة؛ فلكي يُثبّتوا في السرّ عيونَ الإيمان ينزع الله عنهم غالباً المُتَعَ والعذوبات الحسّية الأخرى؛ إنهم بذلك يطلبون الإحساسَ بالله والتلذّذَ به كأنه سهلُ الإدراك قريبُ المنال، وذلك ليس فقط في التناول، بل في سائر الرياضات الروحيّة. كلُّ ذلك نقصٌ كبير ويناقض بشدّة طبيعةَ الله، لأنّه يُظهِرُ عدمَ نقاوة في الإيمان.

---

(١) يُظهِر هذا المقطع أنَّ عادةَ التناول المتواتر لم تكن مألوفةً في أيّام الكاتب (ش.ر.).

ارهاق القوى في التأمُّل

٦ - ويتصرّف هؤلاء التصرّفَ نفسه في التأمل فيعتقدون أنَّ لبَّ التأمل كلّه يكمن في نوال مُتعةٍ وتقوى حسّيةٍ، فيبذلون قصارى جهدهم في انتزاعها بقوّة الساعدين (كما يقال)، فيُرهقون قواهم ويكدّون ذهنَهم؛ وعندما لا يجدون تلك المتعة يغتّمون غمًّا شديدًا لأعتقادهم أنَّهم لم يفعلوا شيئًا؛ ويخسرون بسبب هذا الادِّعاء روحَ التقوى الحقّة التي تقوم على الاستمرار [في التأمل] بصبرٍ وتواضع، وعلى الحذر من أنفسهم إرضاءً لله فقط. ولهذا السبب، فإن افتقدوا مرّةً مذاقاً في هذه الرياضة، أو تلك[٢]، يسودهم النفور والاشمئزاز من العودة إليها، وقد يتخلّون عنها أحيانًا.

تصرفات صبيانية

فهم، في النهاية، يشبهون الأطفال، كما قلنا سابقًا، لا يتحرّكون ولا يعملون بدافع العقل، بل بدافع المتعة. ويبذلون كلَّ جهدهم في طلب لذَّة الروح وتعزيته، فلا يشبعون، في سبيل ذلك، من قراءة الكتب؛ فيتأملون تارةً في موضوعٍ وطورًا في آخر، ساعين إلى اقتناص هذه المتعة في أمور الله. أما هو فيمنعها عليهم بكلِّ حقٍّ وحكمةٍ وحبٍّ؛ لأنه إن لم يسِر بهم على هذا المنوال تَتضاعف فيهم، بواسطة النهم والشراهة الروحيين، شرورٌ لا تُحصى. لهذا يناسب هؤلاء أن يدخلوا في الليل المظلم الذي سنتطرّق إليه فيما بعد، ليتطهَّروا من هذه التصرّفات الصبيانية كافةً.

---

(٢) الممارسة الأولى كانت المناولة أمّا الأخرى فهي التأمُّل (أ.ط).

تراخٍ في طريق الصليب

٧ - ثم تعتري أيضاً الذين يميلون إلى هذه اللذائذ نقيصةٌ أخرى جسيمةٌ وهي أنَّهم يتراخون كثيراً ويتخاذلون في سلوك طريق الصليب الشاقّة؛ لأنَّ النفس التي تستسلم إلى العذوبة تنفر بطبيعتها من كلِّ مرارة تنتج عن نكران الذات.

المعالجة بالليل

٨ - وهذا ما يولِّد فيهم نقائصَ أخرى عديدةً يعالجها الربُّ شيئًا فشيئًا بالتجارب واليبوسات والمشقَّات الأخرى؛ وكلُّ ذلك جزءٌ من الليل المظلم. ولن أُطيلَ البحث في ذلك هنا خوفًا من الإسهاب، بل اكتفي بالقول إن الإعتدالَ والقناعةَ الروحيَّين يتطلَّبان طينةً مختلفةً تماماً تقوم على الإماتة والمخافة والخضوع في كلِّ أمورها؛ مع العلم بأن كمالَ الأشياء وقيمتَها لا يقومان على كثرة الأعمال ولذّتها، بل على أن نعرفَ كيف نُنكر ذواتنا في أَثنائها. وهذا ما يتوجّب على أولئك أن يفعلوه قدر المستطاع، من جهتهم، إلى أن يشاءَ اللهُ فيطهِّرهم تمامًا بإدخالهم الليلَ المظلم. ولكي نصلَ إلى البحث في ذلك، أُسرِعُ في عرض النقائص التالية.

الفصل السابع

في النقائص المتّصلة بالحسد والكآبة الروحيَّين

غمٌّ لتقدّم الآخرين

١ - لا يفوت هؤلاء المبتدئين أن يسقطوا في نقائص عديدة تتَّصل أيضًا بالرذيلتين الأخريين وهما الحسد والكآبة الروحيَين.

أما في ما يختص برذيلة الحسد، فكثيرٌ منهم يستثقلون عادةً خيرَ الآخرين الروحيّ ويشعرون بغمٍّ حسّي لتقدّمِ الآخرين عليهم في هذا الطريق، ولرؤيةِ الناس يمدحونهم. وتُحزنهم فضائلُ الآخرين فلا يُطيقون ذاك المديح فيَنقُضُونه ويسفِّهونه قدرَ طاقتهم. وتجحظُ عيونُهم، كما يقال، لأنهم لا يلقَون المعاملةَ نفسَها، ولأنهم يودّون أن يكونوا المفَضَّلين في كلِّ شيء. كلّ ذلك يناقض بشدَّة المحبّةَ التي **تفرح بالحق** كما يقول القديس بولس (١ **قور** ١٣ / ٦)؛ وإذا لَحِقَها طَرَفٌ من الحسد، فهو حسدٌ مقدّس لأنه يَثقلُ عليها أن تفتقرَ إلى فضائل الآخر بينما تفرحُ بأن يمتاز هو بها، وتتهلَّل بأن يسبقَها الجميعُ في خدمة الله بينما تقصِّر هي كثيراً في هذا المجال.

ملل في الامور الروحية

٢ - أما في ما يختص بالكآبة الروحيّة، فإن [المبتدئين] يشعرون عادة بملل في أكثر الأمور روحانيَّةً ويهربون منها، كتلك التي تخالف الذوقَ الحسّي، لأنهم، بعد أن استعذبوا الأمورَ الروحيّة، ينفرون منها إن لم يجدوا فيها عذوبة؛ ولأنهم، إذا لم يحصلوا مرّةً في التأمل على الإرتياح الذي كان يطلبه ذوقُهم - ومن المناسب، في النهاية، ان ينزعه الله منهم ليمتحِنَهم - يودّون ألّا يرجعوا إلى التأمّل، ويتخلّون عنه مرارًا، أو يزاولونه على مضض. لذلك نجدهم، من جرّاء تلك الكآبة، يفضّلون على طريقِ الكمال، أي نكرانِ إرادتهم ومتعتهم من أجل الله، ما تبغيه ارادتُهم من متعةٍ وعذوبة، وهما ما يسعون بهذه الطريقة إلى إرضائه بدل تتميم إرادة الله.

نفور من ارادة الله

٣ - ويودّ كثيرٌ من هؤلاء ان يريدَ الله ما يريدونه، ويكتئبون حين يريدون ما يريد الله، فينفرون من مطابقة إرادتِهم على إرادته؛ وهذا ما يجعلهم غالباً يظنّون أن ما لا يجدون فيه إرادتَهم ولذَّتَهم ليس إرادةَ الله؛ والعكس بالعكس، فحينما يتمِّمون إرادتَهم يعتقدون أنَّ الله راضٍ عنهم فيقيسون الله بأنفسِهم، لا أنفسَهم بالله؛ وهذا ما ينافي صراحةً ما علّمه هو نفسه في الإنجيل قائلًا: **«من خسر إرادته لأجلي رَبحها، ومن أراد أن يربحها خسرَها»** (متى ١٦ / ٢٥).

حزنٌ واشمئزاز

٤ - ويصيب المللُ هؤلاء ايضًا عندما يُؤمَرون بما لا يَلذُّ لهم. إذ ينقادون إلى المباهج والعذوبات الروحيّة يكونون عاجزين عن الشجاعة وعن مشقّة الكمال؛ شأنهم في ذلك شأن الذين يغتذون بالمسرّات، ويهربون بأسىً من كل أمرٍ شاقٍ، ويستاؤون من الصليب الذي تكمن فيه لذائذُ الروح. وبمقدار ما تكون الممارسات روحيّةً يتضاعف فيهم المللُ، لأنهم يبغون السيرَ في الأمور الروحيّة وفقَ راحتهم وحسب لذّة إرادتهم، فيعتريهم حزنٌ عميقٌ واشمئزازٌ شديدٌ من دخول **طريق الحياة الضيّق** كما يقول المسيح (**متى** ٧ / ٤).

الفطام بالليل

٥ - يكفي هنا ما سردتُ من النقائص العديدة التي يعيش فيها المبتدئون في هذه الحالة الأولى، لنرى ما أمسَّ ضرورةَ أن يضعَهم الله في حالة المتقدّمين؛ ويتمُّ ذلك عندما يُدخلهم الله الليلَ المظلمَ الذي نتكلّم عليه الآن، وفيه يفطمهم عن هذه المذاقات والعذوبات بيبوساتٍ خالصةٍ وظلماتٍ باطنية، فينزع منهم هذه الوقاحات والتصرّفات الصبيانيّة، ويُكسبهم الفضائلَ بوسائل مختلفة تماماً. ذلك أن المبتدئَ، مهما تدرّبَ على إماتة كلِّ هذه الأعمال والأهواء فيه، فلن ينجحَ كلّيّاً، مهما حاول، إلى أن يحقّقَه الله فيه إنفعاليًّا، بواسطة تطهير الليل الآنف الذكر. ولكي

أقولَ فيه شيئًا نافعاً، أسأل الله ان يهبني نورَه الإلٰهي الذي لا بدّ منه للتكلّم على ليلٍ في مثل هذه الظلمة، وللكتابة في موضوعٍ في مثل هذه الصعوبة.

ثم يلي البيت:

في لَيلةٍ مُظلمة.

الفصل الثامن

يُشرَح البيت الأول من الانشودة الأولى ويبدأ إيضاحُ هذا الليل المظلم.

الليل نوعان

١ – هذا الليل، وندعوه التطلّع، يسبّب في الروحانيين نوعين من الظلمات أو التطهيرات وفقًا لقسمَي الإنسان الحسّي والروحيّ: فيكون أحدُهما ليلًا أو تطهيراً حسّيًّا تُطَهَّر فيه النفسُ بحسب الحسّ فيصبحُ الحسّ موافقًا للروح، بينما يكون الآخر ليلًا أو تطهيراً روحيًّا تُطَهَّرُ فيه النفسُ وتتعرّى بحسب الروح فيصبح الروحُ موافقًا ومستعدًّا للاتحاد والحبّ بالله. فالحسّي شائعٌ ويحدث لكثيرين وهؤلاء هم المبتدئون، فنبدأ به حديثنا. أما الروحيّ فيقتصر على نَفَرٍ قليلٍ جدًّا؛ وهؤلاء هم المتمرّسون والمتقدّمون، وسنبحث فيه لاحقًا.

ميزات الليل الأوّل

٢ – سنعرض حالًا كيف أنَّ التطهيرَ الأول أو الليلَّ الأول مرٌّ ومخيفٌ بالنسبة إلى الحسّ؛ أما الثاني فلا مثيل له لأنه رهيبٌ ومُرعبٌ جدًّا

بالنسبة إلى الروح، كما سنقول لاحقًا. وبما أن الحسّيَّ هو الأول ويحدث أولًا، فسنوجز الكلام عليه أوَّلًا لكونه أكثرَ شيوعًا، ولكثرة ما كُتِبَ فيه؛ ومن ثمَّ نبحث بإسهابٍ في الليل الروحيّ، فهو نادراً ما يُذكَر في حديثٍ أو كتابٍ، وخاصةً ما يستند منه إلى خبرة.

انقلاب احوال المبتدئين

٣ – فبما ان الاسلوب الذي يتّبعه هؤلاء المبتدئون في طريق الله دنيءٌ ويجاري كثيراً أنانيَّتَهم وذوقَهم، كما عرضنا سابقًا، فإن الله يودّ ان يدفعَهم إلى الأمام ويرفعَهم من هذه الطريقة الدنيئة في الحبّ إلى درجةٍ أسمى في حبِّ الله، ويحرِّرَهم من الممارسة الدنيئة بالحسّ والاستدلال، والتي كانوا يبحثون بها عن الله بخسَّةٍ شديدة وعوائقَ كثيرة، كما قلنا، وينتقلَ بهم إلى الممارسة الروحيّة التي يستطيعون بها الإتصال به بسخاء أوفر وتحرّرٍ أكبر من النقائص. لقد تدرَّبوا بعض الوقت في طريق الفضيلة بمواظبتهم على التفكّر والتأمّل حيث وجدوا عذوبةً ولذّةً قطعوا بهما تعلّقهم بأمور العالم، واكتسبوا في الله بعض القوى الروحيّة كبحوا بها شيئًا من الشهوات التي تشدّهم إلى الخلائق، وتحمّلوا حبًّا بالله قسطًا من ضيقٍ أو يبوسة دون العودة إلى الوراء. وفي أفضل الحالات، عندما ينعمون بالعذوبة والمتعة في هذه االرياضات الروحيّة، وعندما يظنّون أن قد سطعت عليهم شمسُ الافضال الإلهية بنورٍ أوضح، يُظلِمُ الله عليهم هذا النورَ تمامًا، ويُقفل عليهم البابَ ومنبعَ الماء الروحيّ العذب الذي كانوا ينعمون به في

الله، وطالما شاؤوا؛ إذ عندما كانوا على ضعفٍ وليونة، لم يكن يُقفَلُ بابٌ في وجههم، كما يقول يوحنا في سفر **الرؤيا** (٣ / ٨). أما الآن، فيتركهم الله في ظلمةٍ دامسةٍ لا يعرفون معها إلى أيّ جهة يتّجهون بواسطة حسّ المخيّلة والاستدلال؛ كما أنّهم يعجزون عن خَطْوِ خطوةٍ واحدة في إعمال الفكر كما اعتادوا ان يصنعوا سابقًا؛ لأن الحسّ الداخلي قد صار غارقًا في هذه الليالي. ويدَعهم الله في يبوسةٍ شديدة يفقدون معها عصيرَ الأمور الروحيّة ومذاقَها، وممارساتٍ صالحةً اعتادوا ان يجدوا فيها لذائذَهم ومباهجَهم؛ بل، عوضًا عن ذلك، يجدون، بالعكس، تفاهةً ومرارةً في الأمور المذكورة. ومردُّ ذلك، كما قلنا، أنَّ الله، بعدما رآهم قد تقدّموا هنا بعضَ الشيء، فلكي يتشدّدوا ويَخرجوا من القُمُط، يُبعدهم عن الثدي اللذيذ، ويُنزلهم عن ذراعيه، ويحثّهم على السير على أرجلهم فيستغربون أشدَّ الغرابة كيف انقلبَ لديهم كلُّ شيءٍ رأساً على عَقِب.

سرعة الدخول في الليل

٤ – هذا ما يحدث عادةً لمن يشرعون في مزاولة الإختلاء؛ ويحدث لهم قبل سواهم بقدر ما يتحرّرون من ظروفٍ تُعيدهم إلى الوراء، ويسعون بأسرع وقتٍ إلى إصلاح اهوائهم العالميّة، وهو ما يُطلَبُ للمباشرة في دخول ليل الحسّ السعيد. ولا يمضي، عادةً، وقتٌ طويلٌ على مباشرتهم حتى يشرعوا في دخول ليل الحسّ هذا؛ ونرى أنَّ معظمَهم يدخل فيه، لأنهم يقعون عادةً في هذه اليبوسات.

شهادة الكتاب المقدّس

٥ – وبما ان هذا النوع من التطهير الحسّي شائعٌ جدًّا فإننا نستطيع ان نستشهدَ بعددٍ كبيرٍ من آيات الكتاب المقدّس نجد كثيراً منها في كلِّ صفحة منه وخاصةً في **المزامير والأنبياء**. غير أنّني لا أنوي صرفَ الوقت في ذلك، لأن من لا يتسنّى له مراجعةُ النصوص في الكتاب، يكفيه ما يعرف عنه بالاختبار العادي.

الفصل التاسع

في العلامات التي تُظهر أن الروحانيّ يسير في طريق هذا الليل وهذا التطهير الحسّي.

علامات التطهير

١ - وبما أنّ هذه اليبوسات قد لا تتأتّى غالباً ممّا ذكرنا من ليل الشهوة الحسّية وتطهيرها، بل من خطايا أو نقائصَ أو رخاوةٍ وفتور، أو تعكُّرٍ في المزاج، أو وعكةٍ جسدّية، فسأضع هنا بعضَ العلامات التي يُعرَفُ بها إذا كانت تلك اليبوسة ناجمةً من التطهير السابق أو من إحدى الرذائل المذكورة. وإني أجد لذلك علاماتٍ رئيسيةً ثلاث:

الأولى: فقدان المتعة

٢ - الأولى هي أنّه كما تفقد النفسُ المتعةَ والتعزيةَ في أمور الله فقلّما تجدهما في الأشياء المخلوقة؛ لأن الله حين يضعها في هذا الليل المظلم لكي يجفِّفَ شهوتَها الحسّية ويطهِّرها، فلن يدعَها تستطيبُ أيَّ شيء أو تستعذبُه. وبهذا يُرَجَّحُ جدًّا أنَّ هاتين اليبوسةَ والتفاهةَ لا تنتجان عن خطايا أو نقائص ارتُكِبَت حديثًا. إذ لو كان الأمر كذلك لَوَجَبَ أن يشعرَ الطبعُ

بميلٍ أو رغبةٍ في التلذّذ بشيءٍ يختلف عن أمور الله. لأن الشهوةَ ما إن تتهاون في احدى النقائص حتى تشعر حالًا أنّها تميل إليها قليلًا أو كثيراً وفقَ ما وجدت فيها من لذّةٍ وتعلّق. ولكن بما أنَّ فقدان اللذة في الأمور العلويّة والأمور السُفليّة على السواء قد يتأتّى من توعُّكٍ أو سويداء، ويحول غالباً دون التلذّذ بأيِّ شيءٍ، فلا بدّ لنا من العلامة أو الحالة الثانية.

الثانية: تذكّر الله بألم

٣ - العلامة الثانية للتأكّد من حدوث التطهير المذكور هو أنَّ النفسَ تتذكّر اللهَ عادةً باهتمامٍ وغمٍّ مؤلِمَيْن؛ وإذ تجد ذاتها محرومة من اللذة في أمور الله، بل تعود إلى الوراء. فيتّضح من ذلك أن هاتين التفاهة واليبوسة لا تصدران عن تهاونٍ أو فتور. لأنَّ من طبيعة الفتور عدمَ الانكباب على أمور الله وعدمَ الاهتمام الباطني بها. فشتّانَ، عندها، ما بين اليبوسة والفتور: لأن الفتورَ من شأنه أن يرافقَه تراخٍ وتخاذل في الإرادة وفي الروح، وتوانٍ في خدمة الله. اليبوسةُ المُطَهِّرةُ فقط، فتقترن عادة بشغفٍ يصحبه غمٌّ وعناء، لأن النفس تظنّ، كما قلت، أنها لا تخدم الله. ولو صاحبت السويداءُ أو مزاجٌ آخر هذه اليبوسة، كما يحصل مراراً، فلن تنيَ تعمل عملَها المطهِّرَ في الشهوة فتحرمها من كلِّ متعة، وتجعلها تحصر اهتمامها في الله وحده. فعندما يكون السببُ مجرَّدَ مزاجٍ لا يصدر عنه إلّا كَدَرٌ وتَلَفٌ في الطبيعة، دون ما يرافق اليبوسةَ المطهِّرةَ من رغباتٍ في خدمة الله. ورغم أنَّ الجزءَ الحسّي يكون من الضعف والرخاوة والوهن

بحيث لا يستطيع عملًا لقلّة ما يجد فيه من لذّة، إلّا أنّ الروحَ يكون مستعدًّا وقويًّا.

تبدّلٌ طارىء

٤ - ويعود سبب هذه اليبوسة إلى أنَّ الله يستبدلُ خيراتِ الحسِّ وقوَّتَه بخيراتِ الروح وقوَّته. ولمّا كان الحسُّ والقوّةُ الطبيعيّة عاجزَيْن عن احتواء تلك الخيرات، فإن الجزء الحسّيَّ يبقى صائماً يابساً خاوياً لأنه ليس أهلًا لما هو روحٌ خالص. ولذلك، فعندما يتنعَّم الروحُ يَحرَدُ الجسد ويتقاعسُ عن العمل. غير أنَّ الروحَ يتقبَّل الغذاء رويدًا فيتقوّى ويزدادُ خفَّةً وحرصًا على ألّا يقصِّرَ في سبيل الله أكثر من ذي قبل. وإن لم يشعرْ منذ البدء بالعذوبة واللذاذة الروحِيَّتين، بل باليبوسة والتفاهة، فإنما يعود ذلك إلى التبدّل الطارئ. فالحلق الذي تعوَّدَ تلك المُتَع الحسّية، ولا يزال يصبو إليها، دون أن يُكَيَّفَ الحلقُ الروحيُّ ويُطَهَّرَ ليستطيبَ لذّةً مرهفةً بهذا المقدار، يتعذَّرُ عليه الإحساسُ باللذّة والخير الروحِيَّين إن لم يتهيَّأْ تدريجيًّا بواسطة هذا الليل القاحل الحالِك؛ بل لن يشعرَ إلّا باليبوسة وفقدان اللذّة لحرمانه اللذّةَ التي كان يتذوَّقُها قبلًا بسهولةٍ فائقة.

أبناء إسرائيل في الصحراء

٥ - إنَّ أولئك الذين يبدأ الله يقودهم في عزلة هذه الصحراء يُشبهون أبناءَ إسرائيل الذين ما إن بدأ الله يعطيهم في الصحراء طعامَ

السماء الحاويَ كلَّ لذة، ويتحوَّل وفقاً لذوق كلٍّ منهم كما يقول الكتاب (**حكمة** ١٦/٢٠-٢١)، حتى صاروا مع ذلك كلِّه يشعرون بالحرمان من مذاقاتٍ وعذوبات اللحم والبصل اللذين كانوا يأكلونهما قبلاً في مصر، أكثر ممّا يشعرون بحلاوة المَنِّ الملائكي اللطيفة. وكانوا يبكون وينتحبون طلباً لِلَّحم، **بين أطعمةُ السماء** (عدد ١١/٤-٦). ما تبلغه شهوتنا من دناءة يجعلنا نتشوَّقُ بؤسَنا ونحتقرُ خبزَ السماء الذي لا يوصف.

سلوان باطني

٦ - ولكن عندما تصدر اليبوسات عن طريق تطهير الشهوة الحسّيّة، كما قلت، مع أن الروحَ لا يشعر في البداية بالعذوبة للأسباب التي ذكرنا آنفاً، فإنه يستمدّ قوةً وجرأةً على العمل من الجوهر الذي يعطيه إياه الطعامُ الباطني، وهو مصدرُ تطلُّعٍ مُظلمٍ وقاحلٍ بالنسبة الى الحسّ. وهذا التطلُّع المظلمُ، الخفيُّ والسرّي حتى على من يعاينه، والمصحوبُ عادةً بما يُنزِل بالحسّ من يبوسةٍ وخواء، يمنح النفس ميلاً شديداً الى الإنفراد في سكينةٍ، فلا تستطيع أن تفكّرَ في شيءٍ خاص، ولا رغبةَ لها في التفكير. ومع ذلك، لو عرف الذين يحدث لهم هذا الأمرُ أن يخلدوا الى السكينة، تاركين أيَّ نشاطٍ باطنيّ أو خارجيّ، غيرَ مهتمّين، عندئذٍ، بعملِ أيِّ شيء، لأحسّوا حالاً، في وسط ذينك الإهمال والكسل، بالسلوان الباطني اللطيف؛ وهو من اللطافة بحيث إنَّهم لا يحسّون به عادةً إن رغبوا في الإحساس به أو اهتمّوا به، لأنه يعمل، كما قلت، في

أشدٌّ كسلٍ أو إهمالٍ تعيشه النفس؛ وهو كالهواء يطير إن حاولنا تشديدَ القبضة عليه.

عمل الله المباشر

٧ - ويمكننا، في هذا الصدد، أن ندركَ ما قاله العريس للعروس في سفر **الأناشيد: حوِّلي عينيكِ عنيّ، فقد جعلتاني أطير** (٤/٦). وهكذا يضع اللهُ النفسَ في هذه الحال ويقودها في طريق مختلفة جدًّا بحيث لو أرادت أن تعمل بقواها الذاتية لأعاقت ما يعمل الله فيها بدل أن تساعده، بينما كان يحدث قبلاً عكس ذلك. والسبب هو أنَّ الله في حالة التطلّع هذه، حيث تخرج النفس من الاستدلال وتدخل حال المتقدّمين، هو الذي يعملُ في النفس، فيكبِّل قواها الداخلية نازعاً عنها كلَّ سند في العقل، وكلَّ عذوبة في الإرادة، وكلَّ استدلالٍ في الذاكرة. أما ما تستطيع النفس القيامَ به من ذاتها في مثل هذا الوقت، فلا يؤدّي إلاّ الى عرقلة السلام الداخلي والعمل الذي يتمّمه الله في الروح بواسطة يبوسة الحسّ. وبما أنَّ تلك اليبوسة هي روحيّة ومرهفة، فهي تحقّق عملاً ساكنًا مرهفًا منفردًا مرضيًّا هادئًا بعيدًا جدًّا عن كلِّ تلك اللذّات السابقة التي كانت ملموسةً وحسيّةً جدًّا. هذا هو السلام الذي يقول عنه داود: **يتكلّم به الله في النفس** ليجعلها روحيّةً (**مزمور** ٩/٨٤). ومن هنا العلامة الثالثة.

عجز عن التفكّر

٨ – أما العلامة الثالثة للتثبّت من حصول تطهير الحسّ، فهو عجزُ النفس عن التفكّر والاستدلال بحاسّة المخيّلة، كما اعتادت، مهما عملت من جهتها. فلأن الله يبدأ هنا يمنحها ذاتَه، لا بواسطة الحسّ، كما كان يفعل من قبل بطريقة الاستدلال الذي كان يؤلّف المدارك ويفصّلها، بل بواسطة الروح المحض، حيث لا يقع استدلالٌ متتابع، ويتّصل بها بفعلِ تطلّعٍ بسيطٍ تعجز حواسُّ الجزء السفلي الخارجيّة والداخليّة عن الوصول اليه، فمن هنا ان المصوِّرةُ والمخيِّلةُ لا تستطيعان عندئذٍ، الاستنادَ الى أيِّ اعتبارٍ ولا الارتكاز عليه، من الآن فصاعداً.

إعاقة غير مزاجية

٩ – يجب ان ندرك، في هذه العلامة الثالثة، أن ما يصيب القوى وطاقتها على الذوق من إعاقة، لا ينتج من أيِّ تعكُّر في المزاج. لأنه في هذه الحالة، ما إن يزول ذلك المزاج الذي لا يستقرّ أبدًا على وضعٍ، حتى تعودَ النفسُ، حالاً، بجهدٍ قليلٍ تبذله، الى ما كانت تقوى عليه سابقًا، وتجدُ القوى ما يَدعَمُها. أما في تطهير الحسّ، فليس الأمر كذلك، إذ إنَّ النفس ما إن تدخل فيه حتى يزدادَ عجزُها عن الاستدلال بواسطة القوى. ولئن كان صحيحاً أنَّ هذا التطهير، بالحقيقة، لا يدخل منذ البداية في بعضهم، أحيانًا، بصورةٍ متواصلةٍ جدًّا بحيث ينقادون بعض الأحيان لأذواقهم وللاستدلالات الحسيّة، فربمّا لأنه لا يناسب ضعفهم أَن يُفطَموا وفجأةً.

تقلّبات الليل

ومع ذلك كلّه، فإن كان يجب أن يمضوا قُدُمًا، فسيوغلون فيه باستمرار وينتهون من العمل بالحواس. فالذين لا يسلكون طريقَ التطلُّع، يتصرّفون بطريقةٍ مختلفة جدًّا، لأنَّ ليلَ اليبوسات هذا لا يستمرّ عادةً لديهم في الحسّ؛ فقد تصيبهم اليبوساتُ تارةً وطوراً لا؛ ويعجزون عن الاستدلال أحيانًا ويقوون عليه أخرى. والله لا يضع هؤلاء في هذا الليل إلاّ لكي يدرِّبَهم ويواضِعَهم ويُصلِحَ فيهم الشهوةَ لئلاّ تشتدَّ فيهم رذيلةُ الشراهة في الأمور الروحيّة، لا لكي يقودَهم في طريق الروح أي التطلُّع. ولا يبلغ الله بجميع الذين يتمرّسون عمدًا في طريق الروح الى التطلّع حتى ولا نِصفَهم: والسبب في ذلك يعرفه هو وحده. ولهذا، فإنَّ هؤلاء لن ينتهوا أبدًا، وفعلاً، من فِطام الحسّ عن الاعتبارات والاستدلالات إلَّا فتراتٍ قليلةً من وقتٍ الى آخر، كما سبق القول.

الفصل العاشر

كيف يجب أن يتصرّف هؤلاء في هذا الليل المظلم.

من التفكّر الى التطلّع

١ - وسط يبوسات هذا الليل الحسّي، يُتمِّم الله هذا التبدّلَ المذكور آنفًا فيُخرِجُ النفسَ من حياة الحسّ الى حياة الروح، أي من التفكّر الى التطلّع، حيث تفقد النفس القدرةَ على العمل والاستدلال في أمور الله بقواها الذاتيّة. في ذلك الوقت لا يُقاسي الروحانيّون آلاماً مُبرِّحة من جرّاء ما يكابدون من يبوسات، بقدر ما يخشون من أن يتيهوا في الطريق، لظنِّهم أنْ قد انقطعَ عنهم الخيرُ الروحيّ، وأنَّ الله قد تخلّى عنهم، فلا يجدون أيَّ سندٍ أو مُتعةٍ في أيِّ شيءٍ صالح.

ولذلك يَجِدُّون ويسعون، كما اعتادوا قبلاً، ليدعموا قواهم بشيءٍ من اللذّة في موضوعٍ من موضوعات الاستدلال، معتقدين أنَّهم لا يفعلون شيئًا إن لم يقوموا بذلك وإن لم يشعروا بأنهم يعملون. ويقومون به مع كثير من الغمّ والاشمئزاز الباطنيَّين في النفس التي كانت تستطيب البقاء في تينك السكينة والراحة، دون أن تعمل بقواها. وبهذه الطريقة يُتلفون ذواتهم في

الأوَّل ولا يتقدَّمون في الآخر، لأنهم، يفقدون بالتفتيش عن الروح ما كان فيهم من روح السكينة والسلام. فيشبهون بذلك من يترك ما أنجزَ ليعمله ثانيةً، أو من يخرج من مدينةٍ ليعودَ الى دخولها، أو من يُطلق طريدةً صادها ليعودَ الى قنصِها. وهذا، كما قلنا، ما لا فائدة منه في هذه الحال، لأنه لن يجدَ شيئاً بطريقة التصرُّف تلك.

إرهاق في غير محلّه

٢ - وإذا لم يتوافر، عندئذٍ، لهؤلاء مَنْ يتفهَّمُهم، يعودون الى الوراء ويتخلَّون عن متابعة السير، أو يتراخون، أو، على الأقل، يُعرقلون تقدُّمَهم بكثرة ما يبذلون من جهودٍ للسير في طريق التفكّر والاستدلال؛ ويَتعبون، ويُرهِقون الطبيعةَ بما يفوق طاقتها، لتصوُّرهم أنَّ إهمالَهم أو خطاياهم هي سبب تأخُّرهم. غير أنَّ لهم في ذلك عذراً لأنَّ الله يقودهم في طريق أخرى، أي طريق التطلّع، وهو مختلفٌ جدًّا عن الأوَّل؛ فالأوَّل هو تفكّرٌ واستدلال، بينما الآخر لا يقع في مخيَّلةٍ ولا استدلال.

عزاء ومثابرة

٣ - ينبغي لمن وجدوا ذاتهم في هذه الحالة، أن يتعزّوا مثابرين على الصبر[1]، وغير مغتمِّين؛ وليثِقوا بالله الذي لا يخذل ملتمسيه بقلبٍ نقيٍّ

(١) ليس الوقت وقت نصائح أو مواعظ. بل يكتفي يوحنا الصليب بعرض قاعدة وجيزة مناسبة بعبارات جوهرية: «ثِق بالله، فلن ينيَ يُعطي ما يلزم للطريق».

ومستقيم، ولن يَبْخُلَ عليهم بما يلزَم لطريقهم حتى يبلغَ بهم نورَ الحبِّ، النقيَّ الساطعَ، يمنحهم إيّاه بفضل ليل الروح المظلم. إن استحقوا أن يزجَّهم الله فيه.

الإخلاد الى السكينة

٤ - أما النهج الذي يترتَّب عليهم سلوكه في ليل الحسِّ هذا فهو ألَّا يزاولوا أبدًا الاستدلالَ والتفكّر لأنَّ زمَنهما قد ولّى؛ بل فليدعوا النفس تخلد الى الهدوء والسكينة، حتى لو بدا لهم بوضوح أنَّهم لا يفعلون شيئًا، ويضيّعون الوقت؛ ولئن بدا لهم أنَّهم لا يودّون، في تلك الحالة، التفكيرَ في أيِّ شيءٍ بسبب تهاونهم، يكفيهم أن يصبروا في المواظبة على التأمل دون القيام بأيِّ شيءٍ. أمّا ما يجب عليهم فعله، هنا، فهو أن يتركوا النفسَ حُرّةً طليقةً، ومرتاحةً من كلِّ المدارك والأفكار، وألّا يهتموا بما يفكّرون فيه أو بما يتأملون، وليكتفوا فقط بانتباهٍ ودّي وهادئٍ الى الله، وليمكثوا دون قلق، أو نشاطٍ، أو رغبةٍ في التمتُّعِ أو الإحساسِ بالله. لأنَّ كلَّ هذه الطموحات تُربِكُ النفسَ وتشتِّتُها عمّا يمنحه التطلّعُ هنا من سكينةٍ هادئةٍ وراحةٍ لذيذة.

تألم وهدوء

٥ - ومهما انتاب [المبتدئ] من وساوس بأنَّه يُضيّع الوقت وأنَّه خيرٌ له

ويعطي يوحنا التوجيه عينه، بإسهاب وتحليل، في إحدى رسائله المُفعمة صداقة وحياة روحية: **رسالة ١٩** (عن الناشر EDS).

أن يفعلَ شيئاً آخر - إذ لا يستطيع، في التأمل، أن يفعل شيئاً أو أن يُفكِّر في شيءٍ -، فليحتمل ذلك وليظلَّ في هدوءٍ كمن لا يذهب الى التأمل إلّا للترويح عن النفس وإراحة البال. لأنَّه إن أراد، من تلقاء نفسه، أن يعملَ شيئًا بقواه الباطنيّة، فسيتلِف ويخسرُ الخيرات التي قد أخذ الله يسكبها ويطبعها في النفس، بفضل ذينك السلام والراحة. شأنه في ذلك شأنُ رسّامٍ يرسم وجهًا ويكحِّلُه: فإن حاول الوجهُ التحرُّكَ للقيام بعملٍ ما، فلن يدعَ الرسّامَ يعمل شيئًا، ويُعيقه عمّا كان يصنع. وكذلك النفس: عندما تريد أن تمكثَ في سلامٍ وراحةٍ باطنيَّين، فإنَّ أيَّ عملٍ أو عاطفةٍ أو إهتمامٍ تبغي التمسُّكَ به، حينذاك، سيُشتِّتها ويُقلقها ويجعلها تحسّ باليبوسة وخواء الحسّ. لأنَّه كلّما حاولت الاستقواءَ بعاطفةٍ أو إدراكٍ، كلَّما شعرت بنقصٍ لا يمكن الاستعاضة عنه بتلك الطريقة.

ماهية التطلّع

٦ - ولذلك يترتَّب على هذه النفس ألّا تأبه لفقدانها عمليّات قواها؛ بل عليها أن تُسرّ بفقدانها سريعًا؛ لأنها إذا لم تعرقِل عمليّةَ التطلّع المُفاض الذي يمنحها الله إيّاه، فستناله بوفرة وسلام عظيمين، وتُفسِحُ في المجال ليتَّقِدَ ويضطرمَ في الروح ما يحمل التطلّعُ المظلم والسرّي معه من حبٍّ يُضرمُ النفس. فما التطلّع إلّا فيضٌ سرّيٌّ، هادئٌ، ودِّيٌّ لله، يُلهبُ النفسَ بروحِ الحبّ إذا أُفسِحَ له في المجال، وفقَ ما تعنيه النفس في البيت التالي وهو:

مَشوقَةً، بالحبِّ مضطرمة.

الفصل الحادي عشر

شرح الأبيات الثلاثة من الأنشودة

الاضطرام بالحبّ

١ - إنَّ هذا الإضطرام بالحبّ كلَّما مع أنَّه لا يُحَسُّ عادةً في البدء، إما لأنَّه لم يبدأ بعد بالإتِّقادْ بسبب نجاسة الطبيعة[1]، أو لأنَّ النفسَ لا توسِع له مكانًا هادئًا كونها لا تفهمه، كما قلنا، ورغم أنَّ النفس أحيانًا، بفهمٍ وبغير فهم، تبدأ حالاً، تشعر، نحو الله، بلهفةٍ، فإنَّه كلّما ازداد لهفةُ النفس شعرت باشتداد شغفها بالله أو اضطرامها بحبِّه، دون أن تدريَ أو تفهمَ كيف ومن أين نشأ فيها ذانك الشغفُ والحبّ الرقيق. إلَّا أنَّ هذين الشعلة والإضطرام يتفاقمان فيها أحيانًا، فتتشوّق النفس الى الله بلهفات الحبّ، حسبما يقول داود عن نفسه وهو في الليل: **لقد إضطرم قلبي** أي بحُبٍّ تطلُّعي، **وتبدَّلت كُليتاي**، أي إنَّ شهواتي الى المودّات الحسّية قد تحوَّلت من الحياة الحسِّيَّة الى الحياة الروحيّة؛ [وهذا التحوُّل] هو اليبوسةُ

---

(١) يعتري العبارة الإسبانية بعض الغموض بسبب قِدَم الكلمات التي سقطت من الإستعمال، فاقتبسنا الشرح والمعنى عن الناشر في طبعة (EDS ١٩٨٨) (ش.ر.).

وزوالُ كلِّ الشهوات التي نتكلَّم عليها. ويقول أيضًا: **وأنا تلاشيتُ وصرتُ عَدَمًا ولم أعلم**[1] (**مزمور** ٧٣/ ٢٢). فالنفسُ، إذًا، ودون أن تدري من أين تسير، كما قلنا، ترى أنَّها تلاشت بالنسبة الى كلِّ الأمور العلويّة والسفليّة التي كانت، عادةً، تتمتّع بها لترى، فقط، أنَّها مشغوفةٌ دون أن تدري كيف ولأيّ سبب.

عطش الحبّ

وإذ يتعاظم، أحيانًا، إضطرامُ الحبّ في الروح، فإنَّ اللهفاتِ الى الله تبلغ في النفس درجةً يَبدو معها أنَّ العظامَ تيبسُ في هذا الظمأ، وتذبل الطبيعة، وتذهب حرارتهُا وقوَّتُها من جرّاء شدّة عطش الحبّ، فتشعر النفس أنَّ عطشَ الحبّ هذا شديد. وهذا ما كان داود، أيضًا، يشعر به في داخله عندما قال: **ظَمِئَتْ نفسي الى الإله الحيّ** (**مزمور** ٤٢/٣). وكأني به يقول: عطشٌ شديدٌ أصاب نفسي، وهو من الشدّة بحيث نستطيع القول إنَّه عطشٌ قتّال. ولكن تجدر الإشارة إلى أنَّ فداحته ليست متواصلةً إلّا مرّاتٍ قليلةً، ولئن شعرت النفس عادةً بشيءٍ من العطش.

يبوسة وخواء

٢ - وتجدر الملاحظة، وفقًا لما بدأنا بقوله آنفًا، أنَّ هذا الحبَّ لا يُحَسُّ عادةً في بادئ الأمر، بل اليبوسةُ والخواء اللذين نتكلّم عليهما. ومع

(١) في الترجمة اليسوعية القديمة: **قد توغَّر قلبي، وانتخستُ في كليتيَّ، وأنا غبيٌّ ولا عِلمَ لي** (ش.ر.).

ذلك، فَعِوَضَ هذا الحبّ الذي يتأجّج لاحقًا، تُظهِرُ النفسُ، بفضل ما يصيب القوى من تلك اليبوسات والخواءات، إهتماماً دائماً بالله وعنايةً به يَصحبُهما تألّمٌ وخوفٌ من أنّها لا تخدمه. وإنّها لتضحيّةٌ تَسرّ الله كثيراً أن يرى الروحَ مُنكسراً وملهوفاً بحبّه (مزمور ١٩/٥١). وبعد أن يُطهِّرَ ذاك التطلُّع الخفيُّ الحِسَّ، أي القسمَ الحسّي، تطهيراً بسيطاً من القوى والعلائق الطبيعيّة، بواسطة اليبوسات التي يَضعُها فيه، يبثُّ في النفس هذين العنايةَ والإهتمام، إلى أن يُضرمَ في الروح ذاك الحبَّ الإلهي. غير أنَّ [النفسَ] في غضون ذلك تُشبه مَن وُضِعَ قيد المعالجة، فكلُّ ما في ذلك التطهير المظلم والجافّ للشهوة يؤلِمُها، فتَشفى من نقائص عديدة، وتتمرَّس في جملة فضائل لتُصبحَ جديرةً بالحبِّ المذكور، كما سَنُبَيِّنُه في البيت التالي :

يا له حظًّا سعيدًا!

منافع جمّة

٣ - وبمقدار ما يضع الله النفسَ في هذا الليل الحسّي كي يُطهِّرَ الحِسَّ في الجزء السفلي منها، ويوافقَ بينه وبين الروح، ويُخضعَه له، ويوحِّدَه به، - إذ يُدخِلُ الحسَّ في الظلام ويجعله يوقِفُ أعمال الاستدلال، كما سيفعل، فيما بعد، حينما يضع النفسَ في الليل الروحيّ ليُطهِّرَ الروحَ فيوحِّده بذاته، حسبما سَيرد لاحقًا -، بمقدار ذلك تجني النفسُ منافعَ جمّةً ليست بالحسبان، تَعتبر معها حظًّا سعيدًا خروجَها،

بفضل الليل المذكور، من فخٍّ الحسّ وضيقِه في الجزء السُفليّ. فتقول البيت التالي:

يا له حظًّا سعيدًا!

ومن المناسب، في هذا الصدد، أن نذكرَ، هنا، ما تجد النفس في هذا الليل من فوائد تجعلها تعتبر اجتياز هذا الليل حظًّا سعيدًا. تلك الفوائد كلُّها تضمِّنُها النفسُ في البيت التالي:

خرجتُ لم يدرِ بي أحد.

من الرذائل الى الفضائل

٤ - يُقصَدُ بذلك خروجُ النفس من خضوعها للجزء الحسّي والتِماسُ الله بأعمالٍ واهيةٍ ومحدودةٍ وطارئةٍ جدًّا، شأن أعمال الجزء السفليّ؛ إذ إنَّها، لدى كلِّ خطوة، كانت تتعثَّرُ بألف نقيصةٍ وجهالة، كما ذكرنا سابقًا في كلامنا على الرذائل الرئيسية السبع؛ فمن ذلك كلِّه تتحرَّر النفسُ، إذ يُخمِدُ هذا الليلُ جميعَ اللذّات العلويّة والسفليّة، ويُدخلُ في ظلمةٍ جميعَ أعمال الاستدلال، ويمنح النفسَ خيراتٍ أخرى لا تُحصى باكتساب الفضائل، كما سنشرح حالاً. ومن يسير في هذا الطريق يجد لذّةً وتعزيةً كبُرَيَن حين يرى أن ما كان يبدو للنفس قاسياً ومعاكساً ومنافياً للذوق الروحيّ يُحقِّق فيها كلَّ تلك الخيرات.

وبفضل هذا الليل، تنال النفسُ تلك الخيرات، كما قلنا، بخروجها، قلباً وعملاً، من كلِّ الأشياء المخلوقة، وبالسير نحو الأمور الخالدة، وهو حظٌّ كبير وسعادةٌ عُظمى؛ فإنَّه، أوَّلاً، لأمرٌ عظيمٌ إخماد الشهوة والعاطفة نحو جميع الأشياء؛ وثانياً، إنَّ الذين يتألّمون ويثابرون على الدخول في هذا الباب الضيِّق وعلى السير في **الطريق الوَعِر المؤدّي الى الحياة**، كما يقول مخلِّصنا (متى ١٤/٧)، هم قلّةٌ ضئيلة.

الباب الضيّق والطريق الوعِر

فالباب الضيِّق هو ليل الحسّ الذي فيه تتجرّد النفس وتتعرّى لتدخل فيه، مستندةً الى الإيمان البعيد عن كلِّ حسّ؛ ثم تسلك النفسُ فيما بعد الطريقَ الوَعِرَ أي ليلَ الروح الذي تدخل فيه لاحقًا كي تسيرَ الى الله بإيمان خالص، وهو الوسيلة التي بها تتّحد النفس بالله. ولمَّا كان ذلك الليل وعراً ومُظلماً ومُرعِباً جدًّا حتى إنَّه لا يمكن مقارنة ظلمتِه ومصاعبِه بظلمة ليل الحسّ ومصاعبه، - كما سنقول لاحقًا - فالسالكون فيه قلّة ضئيلة، إلّا أن فوائدَه تربو كثيراً على فوائد ليل الحسّ. فعليها سنتكلَّم الآن، بقدر ما يمكن من الإقتضاب، قبل أن ننتقل الى الليل الآخر.

الفصل الثاني عشر

في الفوائد التي يسبّبها هذا الليل للنفس.

الخبز اليابس

١ - إنَّ هذا الليلَ المطهِّرَ الشهوة لسعيدٌ بالنسبة الى النفس لأنَّه يُحقِّق فيها خيراتٍ وفوائد جمّة، وإن بدا للنفس سابقاً أنَّ الخيرات تُنزَع منها، كما أسلفنا القول. فكما **أقام إبراهيم مأدبةً عظيمةً في يوم فطام إبنه إسحق (تكوين** ٨/٢١)، كذلك يفرحون في السماء عندما يَنزع الله القُمُط عن هذه النفس ويُنزلها عن ذراعيه ليجعلها تسير على رجليها؛ كما أنَّه يحجب عنها ثديَ اللبن وطعام الأطفال الحلو اللذيذ، ليجعلها تأكل الخبز اليابس وتبدأ بتذوّق طعام الأَشدّاء الذي يُعطىَ للروح الجاف والخالي من اللذائذ الحسيّة، وسط يبوسات الحسّ وظلماته؛ فهذا هو التطلُّع المُفاض الذي تكلَّمنا عليه.

فوائد معرفة الذات

٢ - إنَّ الفائدة الأولى والرئيسية التي يُحدثها ليلُ التطلُّع، القاحل

والمظلم، هي معرفةُ الذاتِ وبؤسِها[1]. وبما أنَّ جميع المِنَن التي يُغدقها الله على النفس يغدقها مغمورةً بهذه المعرفة، فإنَّ هذه اليبوسات وخواءَ القوى من البحبوحة التي كانت النفس تشعر بها، والمشقةَ التي تجدها الآن في الأعمال الصالحة، تساعدها على معرفة حقارتها وبؤسها؛ وهذا ما لم تكن تلاحظه في زمن الرخاء.

ولنا عن ذلك صورةٌ بليغة في سفر **الخروج** (٥/٣٣). عندما أراد الله أن يُذِلَّ أبناء إسرائيل فيعرفوا حالتهم، أمَرَهُم أن يطرحوا لباس العيد وينزعوا الزينة التي كانوا يرتدونها عادةً في الصحراء، قائلاً: **إنزعوا من الآن فصاعداً زينتكم عنكم**، والبسوا ثياباً عاديّة وللعمل، **لتعلموا أيَّة معاملة تستحقّون**[2]، كأني به يقول: بما أنَّ اللباس الذي ترتدونه هو ثوب العيد والبهجة، فإنَّه يمنعكم من استشفاف حقارتكم كما أنتم بالحقيقة؛ فاطرحوا عنكم هذا اللباس؛ حتى إذا ما رأيتم أنَّ الدناءةَ لباسُكم، تعرفون، من الآن فصاعداً، مَنْ أنتم وأنكم لا تستحقّون أكثر من ذلك. بذلك تعرف النفسُ حقيقةَ شقائِها، وهذا ما كانت تجهله فيما مضى؛ لأنَّها عندما كانت بثياب العيد تَجِدُ في الله كثيراً من المُتعة والتعزية والعون، كانت تسير أكثر رضىً وسروراً، لأنَّها، باعتقادها، تخدم الله بعض الشيء. وهذا الإعتقاد،

---

(١) ما يُسَمّى هنا معرفة الذات ومعرفة الله لا يُقَصدُ به ما نعرفه بواسطة المطالعة والتعليم والتفكير، بل إنَّه إختبارٌ باطني أليم وراسخ لعدميّة الذات وعظمة الله، يَظهر في موافق وقناعات ونهج حياة (عن الناشر في طبعة EDS).

(٢) نص الكتاب المقدّس يقول: **لأعلمَ ما أصنعَ بكم.**

وإن لم يكن يراودها صراحةً، كان يندسُّ، شيءٌ منه على الأقلّ، في الرضى الذي تجده في اللذة؛ أما الآن، وقد أُلبستْ لباسَ العمل واليبوسة والتخلّي، فما أن تخبو أنوارُها الأولى، حتى تنالَ، بجلاء أوضح، أنوارَ تلك الفضيلة السامية التي لا بدَّ منها، ألا وهي فضيلة معرفة الذات، فلا تَعتبر بعدُ ذاتها شيئاً، ولا ترتضي أبداً بذاتها، لاقتناعها بأنَّها لا تعمل شيئاً ولا تستطيع شيئاً. والله بدوره ، يقدِّر احتقارَ النفس ذاتَها، وتحسُّرَها على تقصيرها في خدمته، أكثرَ من تقديره جميعَ الأعمال التي كانت تقوم بها مهما عظُمت، واللذّاتِ الأولى التي كانت تشعر بها والتي كانت بالنسبة إليها مصدرَ نقائص وجهالات عديدة. وعلاوةً على ما ذكرنا من فوائد لباس اليبوسة هذا، هناك أخرى كثيرة نذكرها لاحقاً وأكثر منها نُهمل عرضَها، وتنبثق من معرفة الذات كأنَّها تصدر عن منبعها وأصلها.

إتزان في التعامل مع الله

٣ - أما الفائدة الأولى فهي أن تتعاملَ النفسُ مع الله بكثيرٍ من الرصانة والأدب؛وهذا ما يجب أن يتَّسمَ به دائماً التعاملُ مع العليّ؛ وهو ما لم تكن النفسُ تقوم به إبّان رخاءِ ذوقها وتعزيته؛ لأن ما كانت تشعرُ به من طعمٍ لذيذٍ كان يجعلُ الشهوةَ[٣] التي تتّصل بالله، أكثر جرأةً مما كان يكفي، وبدون تهذيبٍ واحتراز. كما حصل لموسى عندما شعر أنَّ

(٣) إن كلمة شهوة هنا لا تتضمّن أصلاً معنىً سلبيّاً. راجع في هذا الموضوع الملحق في الفلسفة المدرسية في كتاب **مع يوحنا الصليب** ص ١٢٧.

اللهَ كان يخاطبه؛ ولأنَّ المتعةَ والشهوةَ كانتا قد أعمتاه، ودون أيِّ إعتبارٍ آخر، فقد تَجاسرَ على التقدّم، لو لم يأمرْه الله بالتوقّف وخلعِ نعليه. بذلك يُدرَكُ بأيِّ إحترامٍ وبأيِّ رزانةٍ وعُري من الشهوة، يجب التعاملُ مع الله. وهكذا، بعد أن أطاعَ موسى الأمرَ، صار حكيماً وفَطِناً حتى قال الكتاب المقدس عنه إنَّه ما تجرّأ من بعدُ على التقدّم، بل لم يتجاسر حتى **على رفع نظره** (**خروج** ٣ / ٢-٦، **أعمال** ٧ / ٣٢)؛ فبعد أن نزعَ حذاءَ الشهواتِ واللذاتِ صار يعرف معرفةً عميقةً بؤسَه أمام الله؛ فهذا ما كان يناسبه ليسمعَ كلام الله.

كما أنَّ إعدادَ الله أيوبَ كي يخاطبَهُ، لم يقم على الملذّات والمجد التي قال أيوب عنها إنَّه اعتاد أن يجدَها في إلهه (**أيوب** ١/ ١-٨)، بل قد أراد الله أن يطرحه عارياً في مزبلةٍ تغطّي الديدانُ أرضَها، مرذولاً يضطهده حتى أحبّاؤه، ويكتنفه الضيق والمرارة. وحينذاك، وبهذه الطريقة، تنازل الله العلي **الذي يقيم البائسَ من المزبلةِ** (**مزمور** ٧/١١٢) وخاطبَ أيوب وجهاً لوجه، كاشفاً له من حكمتِه سموَّها العميق العظيم؛ وهذا ما لم يصنعه إليه قبلاً في أيام الرخاء (**أيوب** ٣٨-٤٢).

إنارة العقل

٤ - ويجدر بنا أن نلاحظ فائدةً ساميةً أخرى، نجدها في ليل الشهوة الحسّي وبوستِها - وقد توصَّلنا الى فهمها - وهي أنَّ اللهَ سيُنير النفسَ في ليل الحسّ المظلم هذا، ويمنحها ليس فقط معرفة حقارتها وشقائها،

كما قلنا، بل معرفةَ عظمتهِ وسموّه أيضاً، لكي يَتمَّ قولُ النبيّ: **يَسطَعُ في الظلمةِ نورُك** (**إشعيا** ٥٨/١٠). لذلك، وبعدَ أن تُخْمَدَ الشهواتُ واللذّاتُ والمعونات الحسيّة يمكُثُ العقل صافياً وحُرّاً ليُدركَ الحقيقة - لأن الذوقَ والشهوةَ الحسّيتين، وإن تعلّق الأمرُ بأشياءَ روحية، تَغشَيان الروحَ وتُقلقانه-، بل إن ذينك الضيّقَ واليبوسةَ في الشهوة يُنيران العقل ويشحذانه، وفقاً لقول **إشعيا** (١٩/٢٨): **الشدّة تُفهِمُ**[٤] كما يُفَقِّهُ الله النفس الخالية المتجرّدة في حكمته الإلهية، بطريقة فوطبيعية[٥]، وسط ليل التطلُّع المظلم والقاحل، كما قلنا، حسبما يقتضي تأثيره الإلهي؛ وذاك ما لم يكن الله يصنعه وسط العذوبات والمتع السابقة.

الحرمان وسيلة معرفة الله

٥ - هذا ما يوضحه جيّداً إشعيا النبي عينه بقوله: **لمن تُرى يُعلِّم الله عِلمَه، ولمن يُلَقِّنُ البَلاغ؟ للمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي** (٩/٢٨). يُفهَم بذلك أن ما يوهِّل لهذا التأثير الإلهي ليس لبن العذوبة الروحيّة السابق، ولا الاتكاء الى صدر الاستدلالات العذبة بالقوى الحسيّة، الذي كانت النفس تتذوَّقُه، بل حرمانُها الأولَ وانفصالها عن الثاني، باعتبار أن النفس، كي تسمع الله، ينبغي لها أن تكون منتصبةً ولا سند

---

(٤) في الترجمة اليسوعية الجديدة: «**تلقين البلاغ وحده يُخيف**». بذلك يتّضح أنَّ يوحنا الصليب كان ينقل نصَّ الكتاب المقدّس عن الترجمة اللاتينية **الشائعة**.

(٥) فوطبيعية Surnaturelle ، هي دمج كلمتي فوق وطبيعية (ش.ر.).

لها، حسب العاطفة والحسّ، كما يقول النبي عن نفسه: **سأقف على مرصدي** (أي منفصلاً عن الشهوة)، **سأثبّت الخطوَ** (أي لن أستدلّ بالحسّ، لكي أتطلّع، أي لكي أفهمَ ما بلغني من قِبَل الله) (**حبقوق ٢/ ١**). وبهذه الطريقة نعلم، الآن، أنَّه يَنتج عن هذا الليل الجاف أولاً معرفةُ الذات، ثمَّ عنها تَنتج الأخرى كمن أساسها أي معرفة الله. ولذلك كان القديس أغسطينوس يقول لله: «فلأعرف ذاتي، يا ربّ، فأعرفَك أنت»[٦]. لأنَّه كما يقول الفلاسفة: الطَرَفُ يُعرَفُ جيّداً بالطرف الآخر[٧].

قوّة الليل

٦ - ولكي نُثبتَ بطريقةٍ أكمل ما يحتويه ليلُ الحسّ في يبوسته وتُجرّده من فعالية تُسبّب مزيداً من نورٍ تناله النفسُ، هنا، من الله، كما قلنا، سنورد قولاً قاطعاً لداود يوضِحُ فيه ما لهذا الليل من قوّة عظيمة لبلوغ معرفة الله السامية. فهو يقول بهذه العبارات: **في أرضٍ قاحلة، لا ماء فيها، مُجدبةٍ وبدون طريق، حضرتُ أمامك لأرى عزّتك ومجدَك** (**مزمور ٣/٦٢**).

إنَّه لأمرٌ مدهشٌ حقاً: فداود يوضح هنا أنَّ كثرة اللذائذ والمسرّات الروحيّة التي نالَها لم تكن تأهيلاً لمعرفة مجد الله ووسيلةً إليها، بل يبوسات الجزء الحسّي وتجردَه، التي يُكَنّى عنها هنا بالأرض القاحلة والقفر. ويقول،

---

(٦) القديس أغسطينوس - **كتاب النجاوى** ف ٢: ١،١.

(٧) يقابله بالعربيّة قول الشاعر: والضِدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضِدُّ (أ.ط.).

كذلك، إنَّ الطريق الى رؤية قوّة الله والشعورِ بها ليست المدركاتِ والاستدلالاتِ الإلهية التي استخدمها كثيراً، بل العجزَ عن تثبيت الفكر في الله والسير باستدلال الاعتبار الخيالي، وهو ما يُفهَمُ هنا بالأرض غير المطروقة. لذلك فإنَّ الليلَ الحسّيَّ المظلم بما فيه من يبوسات وخواءات، هو السبيل الى معرفة الله ومعرفة الذات، حتى وإن لم يتمّ ذلك بملء ليل الروح وغزارته: لأن هذه المعرفة هي بمثابة الأساس للّيل الآخر.

تواضع الروح

٧ - ومن يبوسات ليل الشهوة وفراغاته تستمدّ النفسُ تواضعَ الروح، وهو الفضيلة المضادة للرذيلة الرئيسية الأولى التي قلنا إنَّها الكبرياء الروحية. وبفضل هذا التواضع الذي تكتسبه النفس بمعرفتها ذاتَها، تتطهَّر من جميع تلك النقائص التي تتَّصل برذيلة الكبرياء، والتي كانت تسقط فيها في زمن رخائها. وإذا رأت النفس ذاتها جافةً ويابسةً فلن يخطرَ لها، مرّةً واحدةً، كما كانت تفعل في السابق، أنَّها تسير أفضل من سواها أو أنَّها تبزّهم في شيء، بل على العكس، تعترف لهم بالتفوّق عليها.

محبة القريب

٨- ومن هنا تنشأ محبّة القريب؛ لأنَّ النفسَ تقدِّرهم[٨] ولا تدينهم كما كانت تفعل من قبل، حينما كانت ترى ذاتها مفعمةً حرارةً وتقوى، أمّا الآخرون فلا. فهي لا تعرفُ سوى بؤسِها، وتجعله نصبَ عينيها بحيث

(٨) ينتقل الكاتب فجأةً من المفرد إلى الجمع فحافظنا على اسلوبه (ش.ر.).

لا يتركها ولا يدعها تنظرُ الى أي شخصٍ آخر. وهذا ما يوضحه داود بنوعٍ مدهشٍ، وهو في ذلك الليل، قائلاً: **خرِسْتُ وتواضعتُ؛ صمتُّ في الخيرات فهاج وجعي**[٩] (**مزمور** ٣/٣٨). يقول هذا لظنِّه أنَّ خيرات نفسه قد نضبت عنه حتى إنَّه لم يكن يجد ما يقول فيها؛ لا بل إنَّه قد بقي أخرسَ إزاء الآخرين، أيضاً، يتوجَّع من معرفة بؤسه.

طاعة ووداعة

٩ – هنا، أيضاً يُصبحون خاضعين طائعين في الطريق الروحي، حتى إنَّهم، لدى رؤيتهم تفاقم بؤسهم، لا يستمعون فقط الى من يُعلِّمهم، بل يودّون أن يقودَهم أيٌّ كان، ويدلَّهم على ما يجب أن يفعلوه. لقد فقدوا ما كان يشوبُهم، أحياناً، في الرخاء، من غرورٍ عاطفي؛ وخلا، أخيراً، طريقُهم من جميع النقائص الأخرى التي لاحظناها سابقاً وتتّصل بالرذيلة الأولى أي الكبرياء الروحيّة.

---

(٩) يرد النص في الترجمة اليسوعية القديمة بهذه الصيغة: **خَرِسْتُ ساكتاً. صَمَتُّ بمعزلٍ عن الخير، فهاجَ وجعي.**

الفصل الثالث عشر

في الفوائد الأخرى التي يُحدثها في النفس ليلُ الحسّ.

إعتدال كلّي

١ - أما بشأن النقائص التي كانت تشوب النفس، وهي مصابةٌ بالبخل الروحي وفيه تتلهَّفُ الى هذا الخير الروحيّ أو ذاك، بحيث لا ترضى أبداً بهذه الرياضات أو بسواها لما تجد فيها من جشع الشهوة ولذَّتِها، فالنفس الآن قد تبدَّلَ حالُها كثيراً في هذا الليل الجاف والمظلم. ولأنَّها لا تجد ما اعتادت عليه من مسرّةٍ وعذوبةٍ بل مشقَّة وفقداناً للّذة، فها هي تزاول [الرياضات] باعتدالٍ كلّي، حتى إنَّها تكاد الآن تخسر بالتقصير حيث كانت تخسر سابقاً بالإفراط. ومع ذلك، فالله، عادةً يمنح، عادةً، الذين يزجُّهم في هذا الليل تواضعاً واندفاعاً، ولكن مع نفور، لكي يقوموا من أجل الله وحده بما يؤمَرون به، وهم يتخلّون عن أمور كثيرةٍ لا يجدون فيها لذّةً.

حرّية النفس

٢ - يتّضح لنا كذلك، بالنسبة الى الدعارة الروحيّة، أنَّ النفسَ تتحرَّرُ، بفضل ما تسبِّبُ لها الأمور الروحيّة من يبوسةٍ ونفور في الحسّ، من الأدناس التي تكلّمنا عليها في محلّه، لأنَّها تَنتج، عادةً، عن اللذّة التي تفيضُ من الروح الى الحسّ.

نقائص الشراهة

٣ - أما النقائص التي تتعلّق بالرذيلة الرابعة أي الشراهة الروحيّة والتي تتحرَّرُ منها النفسُ في هذا الليل المظلم، فيمكن مراجعتها[1] في محلّها؛ فقد تكلّمنا عليها في حينه، ولو أنَّنا لم نستعرضْها جميعها لأنَّها لا تُحصى. لذلك فإني أستنكفُ عن البحث فيها الآن، لأنَّني أريدُ الإنتهاء من هذا الليل، فأنتقل، من ثمَّ، إلى الليل الآخر الذي لنا فيه كلامٌ وتعليم خطيران.

قمع الشهوة والميل المنحرف

ولكي ندركَ ما تنالُ النفسُ، في هذا الليل، من فوائدَ جمّةٍ تُضاف الى ما ذكرنا، وتتعلّق برذيلة الشراهة الروحيّة، يكفي القول إنَّ النفسَ تتحرَّرُ من تلك النقائص التي أشرنا اليها ومن شرورٍ أخرى أعظم منها،

(١) ١ ليل ٣.

ودناساتٍ قبيحة لم نتطرّق اليها سابقاً[٢]؛ مع أنَّ كثيرين سقطوا فيها حسب خبرتنا، لأنَّهم لم يُصلحوا الحسَّ فيما يتعلّق بهذه الشراهة الروحيّة. وإذ يدخِلُ الله النفسَ في هذا الليل الجاف والمظلم، فهو يكبح فيها جماحَ الميل المنحرف[٣] ويقمعُ الشهوةَ فلا تستطيعان أن تتغذّيا بأي طعمٍ أو عذوبةٍ حسّيةٍ في أيِّ شيءٍ سفلي أو علوي؛ ويتابع الله عمله في النفس حتى تستكينَ وتصطلحَ وتنتظمَ في مجال الميل المنحرف والشهوة، فتفقد النفس قوّةَ الأهواء والميل المنحرف وتصبح عقيمةً لا تستعمل ذوقها، كاللبن تجِفُّ مجاريه عندما لا يستمرُّ اعتصارُه من الضرع. وبعد أن تُجَفَّفَ [تُعتصر] شهواتُ النفس، تتولّد فيها، إضافةً الى ما ذكرنا، منافعُ عجيبةٌ، بواسطة هذا الزهد الروحيّ؛ لأنَّه حين يتمّ إخماد الشهوات والميول المنحرفة، تعيش النفسُ في سلام وطمأنينة روحيَّين؛ فحيث لا تتحكّم الشهوة والميل المنحرف لا يكون اضطرابٌ، بل سلامٌ وتعزيةٌ من الله.

ذكر الله

٤ - وتنبع من هنا فائدةٌ ثانية، وهي أنَّ النفسَ تتذكّر الله دوماً

---

(٢) ١ ليل ٦.

(٣) ترد في هذا النص ثلاث كلمات Concupiscencia, Apetito, Passiones وهي متقاربة في المعنى الأصلي رغم تمايزها، لكنّها مترادفة في سياق النص الذي ننقله. فحاولنا فصلَها باقتباس عن **معجم اللاهوت الكاثوليكي**، وعن كتاب **خلاصة التصوّف المسيحي**، وعن **المعجم الفلسفي** (ش.ر.).

ويتملَّكُها خوفٌ وحذرٌ، كما قلنا، من التقهقر في طريقِ الروح. وهذه فائدة عُظمى لا يُستهان بها، تصيبُها النفسُ في إبّان اليبوسة وتطهير الشهوة، حيث تتطهَّرُ وتتنقّى من النقائص التي كانت تتعرَّض لها من جرّاء شهواتٍ وعلائق تُضعف النفس وتكدِّرها.

فضائل مجتمعة

٥ - وهناك فائدة أخرى في غاية الأهمية، تكسبُها النفس في هذا الليل، وهي أنَّها تتمرَّس في فضائل عدّة مجتمعة كالصبر وطول الأناة، تدأب عليها في اليبوسات والخواءات، محتملةً مكوثَها بدون تعزيةٍ أو لذّةٍ في رياضاتها الروحيّة. كما أنّها تمارس محبَّةً لله لا يدفعها إليها ما تجد فيها من لذّة أو تتذوَّق فيها من عذوبة بل اللهُ وحده. كما تمارس النفس، هنا أيضاً، فضيلةَ الشجاعة وسط هذه الصعوبات والضيقات التي تعترضها، فتستمدّ من الضعف قوّةً في العمل، وتصبح بذلك قويَّةً. وأخيراً فإنَّها تتمرَّس جسديّاً وروحيّاً، وسط هذه اليبوسات، في جميع الفضائل، الإلهية، والرئيسيّة والأدبية[٤].

---

(٤) يورد الكاتب تقسيم الفضائل حسب اللاهوت المدرسي:
الفضائل الإلهيّ Vertus Théologales، الفضائل الرئيسيّة Vertus Cardinales
الفضائل الأدبيّة. Vertus morales

تمثّل بداود

٦ - والبرهان على أنَّ النفسَ تنالُ، في هذا الليل، تلك الفوائد الأربع التي ذكرنا، أي لذّة السلام، وعادةَ ذكر الله واللهفةَ اليه، وصفاءَ النفس وطهارتَها، وممارسةَ الفضائل، كما أسلفنا القول، هو إفصاحُ داود عما اختبره هو نفسه، عندما كان في وسط هذا الليل، بهذه العبارات (مزمور ٧٧/٤ و٧) : **أَبَتْ نفسي التعزيات؛ تذكّرْتُ الله فوجدتُ عزاء، تمرّستُ فزَهِقَتْ منّي الروح.** ويُضيف بعد قليل: **في الليل تفكّرتُ بقلبي وتمرّست، كنَّستُ وطهَّرتُ روحي**(٥)، أي من جميع العواطف.

ليونة ووداعة

٧ - وتُطَهَّر النفسُ، أيضاً، من يبوسة الشهوة هذه ومن نقائص الرذائل الروحيّة الثلاث الأخرى، التي سبق الكلام عليها، وهي الغضب والحسد والكآبة، وتكتسب الفضائلَ المضادَّةَ لها؛ ذلك أنَّ النفسَ، وقد ليَّنَتْها وأذلَّتها هذه اليبوساتُ والمصاعبُ وسائرُ التجارب والضيقات حيث اختبرها الله بتقلّبات الليل، تصبحُ وديعةً تجاه الله، وتجاه ذاتها، وحتى تجاه القريب؛ فلا يثور، من ثمَّ، غضبُها ضدَّ ذاتها على أخطائها الخاصة، ولا

---

(٥) في الترجمة اليسوعية الحديثة: **ونفسي أبت أن تتعزّى. أذكُرُ اللهَ فتئنُّ نفسي؛ أتأمّلُ فيغشى على روحي. في الليل أذكُرُ معزوفتي، أتأمّلُ بقلبي ويبحث روحي.**

ضدَّ القريب على أخطائه، ولا تثير تجاه الله متاعبَ ومشاحناتٍ وقحةً كونه لا يجعلها صالحةً بسرعة.

حسدٌ صالحٌ

٨ - وبخصوص الحسد، فهنا، أيضاً، تمارس النفسُ المحبَّة نحو الآخرين؛ وإن وُجد فيها طَرَفٌ من حسد، فليس رذيلاً كما اعتاد أن يكون، حينما كانت تغتمّ إن فُضِّل آخرون عليها وسبقوها. أما الآن فهي تقِرُّ لهم بالسبق، نظراً إلى ما ترى من شدّة بؤسها؛ أما ما فيها من الحسد (إن وُجِد) فهو صالحٌ لأنَّها تتشوَّق إلى الإقتداء بالآخرين، وهي فضيلة كُبرى.

حزنٌ وملل

٩ - وليست حالات الحزن والملل، التي تشعر بها النفسُ، الآن، في الأمور الروحيّة، بمعيبةٍ كما في السابق، حين كانت تصدر عما تصيب النفسُ، أحياناً، من متعٍ روحيّةٍ تطمح إلى نوالها لدى فقدانها. أمّا هذا الملل فلا ينتج عن الضعف في الذوق، لأن الله قد انتزع منه، بتطهير الشهوة، كلَّ لذَّةٍ في جميع الأمور.

عذوبةٌ وحبّ

١٠ - وإضافةً الى ما ذكرنا من فوائد، تنال النفسُ، بواسطة هذا التطلّع الجاف، فوائدَ أخرى لا تُحصى؛ فغالباً ما يمنحُ الله النفسَ، وسط

هذه اليبوسات والضيقات، وفي ساعةٍ لا تتوقَّعُها، عذوبةً روحيّةً، وحبّاً خالصاً جدّاً، ومعارفَ روحيّةً في غاية الرِّقة، أحياناً، وكلٌّ منها يفوق نفعاً وقيمةً كلَّ ما كانت النفسُ تستطيبه سابقاً، مع أنَّها لا تظنُّ ذلك في البداية؛ لأنَّ التأثيرَ الروحيّ الذي يَطغى عليها، الآن، هو في غاية الرِّقة فلا يقع تحت الحواسّ.

تحرُّر من الأعداء

١١ - وأخيراً بمقدار ما تتطهَّرُ النفسُ هنا من المودّات والشهوات الحسيّة، تحصل على حريّة الروح حيث تُكتَسَبُ ثمارُ الروح القدس الاثنا عشر. وهنا تتحرَّرُ النفسُ بنوعٍ مدهشٍ، حتى من قبضة اعدائها الثلاثة وهم الشيطان والعالم والجسد؛ فبعد أن تَخمُدَ العذوبة واللذّة الحسّيتان تجاه الأشياء، لا يبقى للشيطان ولا للعالم ولا للحسّية أسلحةٌ ولا قوىً لمحاربة الروح.

حذر وخشية

١٢ - فهذه اليبوسات تجعل النفسَ تتقدَّم بنقاوةٍ في حبِّ الله، فلا تندفع من بعد الى عملٍ ما من أجل لذّة العمل وعذوبته، كما كانت تفعلَ ربما عندما كانت تُصيبُ لذّةً، بل طَلَباً لمرضاة الله فقط. كما أنَّها لا تعتدّ بذاتها ولا ترضى عنها، كما كانت تفعل ربما، في زمن الرخاء؛ بل تسير الآن في حذرٍ وخشيةٍ من ذاتها، ولا ترضى عنها أيَّ رضىً؛ ففي ذلك تكمن المخافةُ المقدّسة التي تحافظ على الفضائل وتضاعفها. وكما قلنا

سابقاً، فإنَّ هذه اليبوسة تُطفىء أيضاً فوراتِ الميل المنحرف. والحماسة الطبيعية، إذ من المستحيل أن تجدَ النفسُ، بجهدها الذاتي، في أيِّ عملٍ أو ممارسة روحيّين، كما سبق القول، لذّةً وعزاءً حسّيّاً، إن لم تكن لذّةً أفاضها الله عليها بنفسه أحياناً.

لهفة إلى خدمة الله

١٣ - ووسطَ هذا الليل القاحل تَنمو [في النفس] الغيرة على الله والشوق إلى خدمته؛ لأنّها، بعد أن جفَّ ثديا الحسّيَّةَ اللذان كانا يغذّيان ويرضعان الشهوات عندما كانت النفسُ تسعى وراءها، لم يبقَ فيها سوى الشوق إلى خدمة الله في عُرْيٍ ويبوسة؛ وهذا ما يسرّ اللهَ كثيراً، لأنَّ **الذبيحة لله**، كما يقول داود، **روحٌ منكسر** (**مزمور** ٥١/ ١٩).

١٤ - وبما أنَّ النفسَ تعرفُ أنَّها قد استقت واستمدّت، باجتيازها هذا التطهير الجاف، فوائد عديدة وثمينة جدّاً، كالتي أُشيرَ إليها هنا، فغيرُ كثيرٍ أن تقولَ في الأنشودة التي سنشرحها البيتَ التالي وهو:

يا له حظّاً سعيداً!
خرجتُ لم يدرِ بي أحد.

وهو أنّي خرجتُ من شباك شهواتي الحسّية وعواطفي، ومن تسلّطها عليّ، ودون أن يدرِ بي أحد، أي دون أن يتمكّنَ الأعداء الثلاثة المذكورون من صدّي عن ذلك. فهؤلاء [الأعداء]، كما قلنا، يكبّلون النفس بالشهوات والمذاقات مثل الحبال، ويمنعون عليها الخروج من ذاتها

إلى حرّية حبِّ الله؛ وبدون هذه الشهوات لا يستطيعون محاربة النفس كما سبق القول .

أهواء النفس

١٥ - لذلك، حينما تُخمَدُ بالإماتة المستمرّة، أهواءُ النفس الأربعة أي الفرح، والحزن، والأمل، والخوف، وإذ ترقدُ الشهوات الطبيعية ييبوساتِ اعتيادية في الميل المنحرف، ويتوقّف انسجام الحواس والقوى الباطنية، وتنقطع هذه عن أعمال الاستدلال، كما قلنا، أي ما يؤلف جميع أهل البيت وسكنى الجزء السّفليّ من النفس، وهو ما تسميه النفس هنا بيتها قائلة :

وقد صار بيتي هادئًا .

الفصل الرابع عشر

يُشرَحُ البيتُ الأخير من الأنشودة الأولى.

مسار التحوُّل

١ - ينتج عمّا سبق أنَّه بعدما خمدت أهواءُ النفس الأربعة أيّ الفرحُ والحزنُ والأملُ والخوفُ بفضل الإماتة المستمرَّة، وبعدما رقدت الشهوات الطبيعية في الحسّ بواسطة اليبوسات الاعتيادية، وإذ توقَّفَ عن العمل تناسقُ الحواس والقوى الباطنية، وبَطُلَت أعمالُ الاستدلال، كما قلنا، وكلُّ ذلك يؤلِّف سكانَ الجزء السفلي من النفس، الذي تدعوه هنا بيتها قائلةً:

وبيتي قد صار هادئاً.

فبعد أن هدأ، أي أُميتَ، بيتُ الحِسِّيَّة، وخمدت أهواءُ النفس، وهدأت ورقدت شهواتُها، بفضل هذا الليل السعيد، ليل التطهير الحسّي، خرجت النفسُ تجدّ السيرَ في طريق الروح، وهو طريق السالكين والمتقدِّمين، ويسمّونه أيضاً طريقَ التنوير أو طريق التطلُّع المُفاض، حيث يرعى الله النفسَ ويغذِّيها بذاته، بدون أن تقومَ النفس باستدلالٍ أو تقدِّمَ أيَّ عونٍ فعّال

روح الفجور

٢ - هذا هو، كما قلنا، ليلُ الحسّ وتطهيره في النفس، الذي تصحبه عادةً متاعبُ جسيمةٌ وتجاربُ حسّيَّةٌ خطيرةٌ تدوم طويلاً، يعانيها بعضهم أكثر من بعضٍ؛ ويحدث ذلك لأولئك الذين سوف يدخلون في الليل الآخر، الأشدّ وطأةً، أي ليل الروح، لينتقلوا منه إلى الاتِّحاد بالله بالحبّ؛ ولا يدخل فيه، عادةً، جميعُهم بل قلَّةٌ فقط. لأنَّ بعضَهم يُعطَون ملاكَ الشيطان، أي روحَ الفجور، يجلد حواسَّهم بتجاربَ شنيعةٍ وعنيفة، ويعكّر على روحهم بأفكارٍ قبيحةٍ وتمثّلاتٍ تنطبعُ في المصوِّرة فتسبِّب لهم أحياناً عذاباً أقسى من الموت.

روح تجديف وروح دوار

٣ - ويُعطَونَ، مرّاتٍ أخرى في هذا الليل، روحَ تجديفٍ، يُسرِّب إلى جميع مفاهيمهم وأفكارهم تجاديفَ لا تُطاق، تُهمَسُ أحياناً في مصوِّرتهم بعنفٍ يجعلهم على وشك التلفُّظ بها؛ وهذا ما يسبِّب لهم عذاباً مبرِّحاً. ومرّاتٍ أخرى يُعطَون روحاً شنيعاً آخر، يسمّيه أشعيا روحَ الدوار (١٩، ١٤) لا لكي يسقطوا، بل ليُمرِّنَهم. وهو يُعتِّمُ حِسَّهم تعتيماً يملأُهم بألف وسواسٍ وارتباكٍ تُدخِلُ إلى رأيهم تشويشاً لا يستطيعون معه أن يرتضوا شيئاً، أو يثبتوا على رأي أو فكر؛ وهذا من أخطر مهامز هذا الليل وأهواله، وهو قريبٌ جدّاً ممّا يحدث في الليل الآخر، أي ليل الروح.

تأديب الربّ

٤ - هذه العواصف والمتاعب يرسلها الله، عادةً، في هذا الليل أو التطهير الحسّيّ، إلى الذين يريد، كما قلت، أن يضعَهم، فيما بعد، في الليل الآخر، ولو أنَّ الجميع لا يبلغونه؛ حتى إذا ما أُدِّبوا وصُفِعوا بهذه الطريقة، أخذوا يمرّنون حواسَّهم وقواهم ويُعدُّونها ويُهيِّئُونها للإتِّحاد بالحكمة التي تُعطى لهم هناك. لأنَّ النفسَ إذا لم تُجَرَّبْ وتُدَرَّبْ وتُمتَحَنْ بالمشقّات والتجارب فلا يُمكنها أن تُأجِّجَ لهفةَ حواسِّها نحو الحكمة. لذلك يقول **ابن سيراخ** (٣٤/ ١٠): **مَنْ لم يُجَرَّبْ، ماذا يعرف؟ مَنْ لم يُمتَحَنْ أيَّة أشياء يعرف؟**[1] ويشهد، أيضاً، إرميا على هذه الحقيقة بقوله: **لقد أدَّبْتَني، يا ربّ، فتعلَّمت** (٣١/ ١٨). وإن أكثر تأديبٍ يُلائمُ دخول الحكمة هي الضيقات الداخلية التي تكلَّمنا عليها، هنا، لكونها نوعاً يطهِّرُ الحسَّ تطهيراً فعّالاً من المذاقات والتعزيات التي كان يميلُ إليها، بضعفٍ طبيعي، وفيها تتَّضع النفس، بالحقيقة، من أجل الإرتقاء الذي ستبلغه.

مدّة تطول أو تقصر

٥ - أمّا المدَّة التي يجب على النفس أن تقضيَها في صوم الحسّ وإماتته فلا يمكننا تحديدُها بدقَّة، لأنَّ الأمرَ لا يحصل لدى الجميع بطريقة

---

(١) في الترجمة الحديثة: **الذي لم يُمتَحن يعلَمُ قليلاً، اما الذي سافر فهو كثير الحيَل.**

واحدة ولا [يتعرَّض الجميع] للتجارب عينها، ولأنَّ مقياس ذلك إرادةُ الله. وبمقدار ما يحملُ كلُّ واحد تقريباً نقائصَ يجب تطهيرها، سيُذلُّه الله إذلالاً يشتدُّ أو يخفّ في مدَّةٍ تطول أو تقصر وفقاً لدرجة الإتِّحاد بالحبِّ الذي يريد الله أن يرفعَه إليه. ويطهِّرُ في وقتٍ أسرع مَنْ يجد فيهم طواعيةً، وطاقةً أشدّ على احتمال عذاب أقسى؛ أمَّا الضعفاء الضعفاء، فيقودهم زماناً طويلاً في هذا الليل، رائفاً ورافقاً بهم، و [يَمتَحنُهم] بتجارب خفيفة، مانحاً حواسَّهم بعض العذوبات العادية، لئلاَّ يعودوا إلى الوراء، فيُبطئون في بلوغ نقاوة الكمال في هذه الحياة - وبعضهم لن يبلغها قط-؛ فهؤلاء ليسوا في وسط الليل، ولا خارجه. وبالرغم من أنَّهم لن يتقدَّموا، فالله يُمرِّسُهم، في بعض الأوقات والأيَّام، في تلك التجارب واليبوسات ليمكثوا في التواضع ومعرفة الذّات، كما أنَّه يَسندهم بالتعزية فتراتٍ أخرى وجيزةً، لئلاَّ تثبط عزيمتُهم فيعودوا إلى التماس تعزية العالم. بينما النفوس الأكثر ضعفاً، فالله يتراءى لها تارةً ويتوارى عنها طوراً لكي يُمرِّسَها في حبِّه، لأنَّها بدون احتجاب الله، فلن تتعلَّمَ التقرُّب منه.

٦ - أمَّا النفوس التي ستبلغ تلك الحالة السعيدة والسامية جدّاً، أي حالة الاتحاد بالحبِّ، فمهما عجَّلَ الله في رفعها، فإنَّها تقضي عادةً زمناً طويلاً في هذه اليبوسات والتجارب، كما هو معروفٌ بالاختبار. وقد حان وقتُ الكلام على الليل الثاني.

الكتاب الثاني

ليل الروح

الفصل الأول

يبدأ البحث في ليل الروح المظلم ويقال متى يبدأ.

كالخارج من سجن ضيّق

١ - إنَّ النفس التي يبغي الله أن يمضي بها قُدمًا لا يضعها في ليل الروح هذا، حالما تخرج من يبوسات التطهير الأول ومشقّاته، أي ليل الحسّ، بل غالبًا ما ينقضي وقت طويل وسنوات عدَّة على خروج النفس من حالة المبتدئين، لتتمرَّسَ بحالة المتقدِّمين. فتكون كمن خرج من سجن ضيّق، فتسلك في أمور الله بسَعَةٍ ورضى ولذَّةٍ باطنيَّة أوفر ممَّا كانت تفعل في البداية، قبل دخولها الليلَ المذكور. ذلك أنَّ الاستدلالَ والهمَّ الروحيَّين لا يكبّلان الآن مخيّلتها وقواها كما في السابق، بل تجد النفس حالاً في روحها، وبسهولة وافرة، تطلُّعًا هادئًا ودِّيًّا مع عذوبة روحية ودون مشقَّة الاستدلال. ومع ذلك، فبما ان تطهير النفس لم يتمّ، لأنه لم يتم تطهير القسم الرئيسي، أي الروح الذي بدونه قلَّما ينتهي ويكتمل تطهيرُ الحسّ عينُه مهما كان شديدًا - نظرًا الى التواصل بين الجزئين الحسّي والروحي لكونهما شخصاً واحداً، - فلن تُعدَمَ النفسُ أحيانًا حاجاتٍ ويبوساتٍ

وظلماتٍ وضيقاتٍ تكون في بعض الأحيان أشدَّ وطأةً من ذي قبل، وهي بمثابة عوارض وبشائر لليل الروح القادم. غير أنَّ هذه [المصاعب] لن تدوم دوامَ الليل المنتظر. فما إن تقضي النفسُ فترة أو فترات أو أيّامًا في هذا الليل وهذه العاصفة حتى تعودَ حالاً الى صفائها المعتاد.

فهكذا يطهِّرُ الله عادةً بعضَ النفوس التي لن ترتقِيَ إلى درجةٍ ساميةٍ من الحبّ نظير سواها، فيزجُّها من وقتٍ إلى آخر في ليل التطلُّع والتطهير الروحي فيجعلَها تُلْيِلُ [1] تارةً وتُصبحُ أُخرى، ليتمَّ ما صرَّحَ به داود النبي: **أنَّ الله يُلقي جليدَه - أي تطلُّعه - كالفُتات.** (**مزمور** ١٤٧/ ١٧)؛ إلَّا أنَّ فُتات التطلُّع المظلم هذا ليس قطُّ بكثافة ليل التطلع المرعب ذلك الذي سوف نتكلَّمُ عليه، وفيه يزجّ الله النفسَ عن سابق قصد، ليرفعَها إلى الإتحاد الإلهي.

مضايقات المتقدِّمين

٢ - وهاتان العذوبة واللذَّة الباطنيَّتان، اللتان نقول إنَّ المتقدِّمين يجدونهما ويتذوَّقونهما في روحهم بكلِّ سهولةٍ وغزارةٍ - ومن الروح تفيضان على الحسّ - يُغدِقُهما الله عليهم بوفرةٍ أعظم ممَّا اعتادوا عليه قبل هذا التطهير الحسّي. فكلَّما ازداد الحسُّ نقاوةً شعرَ، على طريقته، وبسهولةٍ أكبر، بمسرَّات الروح. وأخيرًا، بما أنَّ هذا الجزءَ الحِسّيَّ من النفس ضعيفٌ

(١) تُلْيِلُ مِن أَلْيَلَ أي دخلَ في الليل وتُصبحُ مِن أصبحَ أي دخلَ في الصباح (م).

وعاجزٌ عن أمور الروح القويَّة، ينتج عن ذلك أنَّ المتقدِّمين، وبسبب هذا الاتصال الروحي الذي يحدث في الجزء الحسِّي، يعانون في [هذا الجزء الحسِّي] من أوهانٍ كثيرة وأتعابٍ ومضايقاتٍ في المعدة، وبالتالي، إرهاقاتٍ في الروح؛ لأنَّه كما يقول الحكيم، **الجسدُ الفاسدُ يُثقِلُ النفس (حكمة ٩/ ١٥)**.

لذلك لا يُمكن للاتصالات التي تحدث للمتقدِّمين أن تكون من القوَّة والكثافة والروحانيّة، كما يتطلَّبُها الإتحاد الإلهي بالله، بسببِ ما للحِسِّيَّة المشاركة فيه من ضعفٍ وفسادٍ.

من هنا تحصل الانخطافاتُ والإغماءاتُ وتفكُّكُ الأوصال التي تحدثُ دومًا عندما لا تكون تلك الاتصالات روحيةً صرفة، أي للروح وحده، كما هو الحال لدى الكاملين الذين تطهَّروا بالليل الثاني، أي ليل الروح. فلدى هؤلاء تتوقَّفُ الانخطافاتُ وعذاباتُ الجسد، لأنَّهم ينعمون بحريَّة الروح دون أن يتكدَّرَ الحسّ أو يضطرب.

٣ - ولكي ندركَ حاجة هؤلاء الى دخول ليلَ الروح، نشيرُ هنا إلى بعض النقائص والأخطار التي يتعرَّضُ لها المتقدِّمون.

الفصل الثاني

يتبع البحث في نقائص أخرى تعتري هؤلاء المتقدّمين.

تطهير الجذور

١ - يعتري هؤلاء المتقدّمين نوعان من النقائص: بعضُها اعتيادية وأخرى ظرفية. فالاعتيادية هي العواطف والملَكات الناقصة التي ما زالت، كالجذور، باقيةً في الروح، حيث لم يصلْ بعد تطهيرُ الحسّ. والفرق بين تطهير هذه [النقائص الاعتيادية] وتلك، كالفرق بين الجذع والفرع، أو بين نزع لطخة حديثة وأخرى مزمنة ومتأصّلة. فتطهير الحسّ، كما قلنا، ليس إلاّ بابًا لتطهير الروح ومبدأً للتطلُّع؛ وهذا أيضًا، كما قلنا، يجعلُ الحسَّ يُلائم الروح أكثر ممَّا يوحِّد الروحَ بالله. غير أنَّ أدران الإنسان القديم تظلُّ في الروح حتى وإن لم يدرِ بها الإنسان أو لم يتمكَّنْ من رؤيتها. وما لم يتمّ تنظيفُ تلك الأدران بالصابون وبالنطرون، في تطهير هذا الليل، فلن يستطيعَ الروحُ أن يبلغَ نقاء الاتِّحاد بالله.

خَبَلٌ في العقل

٢ - ونجدُ في هؤلاء، كذلك، خَبَلاً في العقل وخشونةً في الطبع يصيبان كلَّ إنسانٍ من جرّاءِ الخطيئة، مع تشتُّت الروح واتِّجاهِ صوب الخارج؛ فيجب أن يُنارَ الروحُ ويُصَفَّى ويُستجْمَعَ بواسطة عذاب ذاك الليل وضيقه. وهذه النقائص الاعتيادية نجدُها في جميع الذين لم يعبروا بعد حالة المتقدِّمين، إذ لا تتوافق، كما قلنا، وحالةَ الاتِّحاد الكاملة بالحبّ.

النقائص الظرفية

٣ - أمَّا النقائص الظرفية فلا يسقط فيها الجميع وبطريقة واحدة. فبعضهم يتلقَّى الخيرات الروحيَّة بشكلٍ خارجيٍّ جدًّا، وبسهولةٍ وافرةٍ في الحسّ، يسقطون معها في مهالكَ وأخطارٍ أشدّ من تلك التي ذكرناها في البداية. وبما أنَّهم ينالون ملءَ اليدين اتصالاتٍ وتصوّراتٍ روحيَّةً كثيرةً في الحسّ والروح، يرون معها مرارًا عديدةً رؤًى خياليّةً وروحيَّةً؛ ولأن كلَّ ذلك يحدث مصحوبًا بمشاعرَ عذبةٍ للعديد منهم، ففي هذه الحالة غالبًا ما ينصُب الشيطان والمُخَيِّلة[1] الخاصة مكايدَ للنفس. وبما أنَّ الشيطان من عادته أن يطبعَ في النفس التصوُّراتِ المذكورةَ ويوحي إليها بالمشاعر المقرونة باللذَّة، فهو يغويها ويخدعها بسهولة كبرى لأنَّها لا تتَّقيه بالتسليم [لله]، ولا تقاومُ بحزمٍ، بواسطة الايمان، هذه الرؤى والمشاعر. فإنَّ الشيطان

---

(١) المُخَيِّلة هي القوَّة المُصوِّرة الخلاَّقة fantasia.

يجعل كثيرين يصدِّقون رؤًى باطلة ونبوءاتٍ كاذبة؛ وهنا، في هذه الحالة، يسعى إلى جعلهم يدَّعون بأنَّ الله والقديسين يخاطبونهم، فيصدِّقون غالبًا مخيِّلتهم. وهنا يملأهم الشيطان عادةً غرورًا وكبرياء، فيدفعهم الغرور والإعتزازُ بنفسهم إلى أن يُشاهَدوا في أفعالٍ خارجية توحي بالقداسة كالانخطافات والظواهر الأخرى. فيتجرَّأون على الله، ويفقدون المخافة المقدَّسة التي هي مفتاح جميع الفضائل وحارسُها. وتتراكم عادةً لدى بعضهم الآخر الأكاذيبُ والخِدَعُ وتتأصَّل فيهم فيصبح معها رجوعُهم إلى طريق الفضيلة القويم والروح الأصيل أمرًا مشكوكًا فيه؛ ويسقطون في تلك المصائب لأنَّهم ما إن بدأوا يتقدَّمون في الطريق حتى أخذوا يتهالكون بثقة مفرطة على التصوّرات والمشاعر الروحيَّة.

ضرورة الليل الروحي

٤ - كان بودّي أن أستفيضَ في الكلام على نقائص هؤلاء [المتقدِّمين]، وعلى إستعصاء شفائها لأنَّهم يحسبونها روحانيَّةً أكثر من الأولى[٢]؛ لكنّي أُحجِمُ عن ذلك. غير أنّي أشدِّدُ على ضرورة الليل الروحي - وهو التطهير اللازم لمن يبغي التقدُّم - فأقولُ إنَّ أيًّا من هؤلاء المتقدِّمين، مهما أثمرت جهوده، لا يخلو، على الأقل، من تلك العواطف الطبيعية والملَكات الناقصة التي ذكرنا قبلاً ان تطهيرها المسبق ضروري للعبور إلى الاتِّحاد بالله.

(٢) الأولى، أي النقائص الاعتيادية. (ش.ر.).

طريق الإيمان المظلم

٥ - وعلاوةً على ذلك، وما قد قلناه سابقًا، أي بالرغم من اشتراك الجزء السفلي في هذه الاتصالات الروحيَّة، فلا يُمكن أن تكون بتلك الكثافة والنقاء والقوَّة التي يتطلَّبُها الاتِّحاد المذكور؛ فلكي تبلغَ النفسُ إليه لا بدَّ لها من الدخول في الليل الثاني، أي ليل الروح، حيث يتعرَّى الحسّ والروح تمامًا من جميع هذه التصوّرات والعذوبات، فتُقادُ النفسُ بإيمانٍ خالص ومظلم؛ وهذه هي الوسيلة الخاصة والملائمة التي بواسطتها تتَّحدُ النفسُ بالله كما يقول في هوشع القائل: **سوف أتزوَّجُكِ** أي سوف أتَّحدُ بكِ - **بالإيمان** (٢/ ٢٠).

الفصل الثالث

تعليق على ما يلي

ترابط التطهيرين

١ – لقد أصبحَ هؤلاء، الآن، في عداد المتقدِّمين بفضل ما أمضوه من الوقت في تغذية الحواس بالاتصالات العذبة؛ حتى إذا ما جُذِبَ الجزءُ الحسّي واستطاب المذاقَ الروحيّ الدافقَ إليه من الروح، اتَّحد بالروح وتكيَّف معه فتغذَّى كلُّ جزءٍ على طريقته الخاصة بذات الغذاء الروحي من الصحفة عينها العائدة إلى الشخص أو الكائن الواحد. وفي هذه الحالة، يتسنَّى لهما، بتطابقهما واتِّحادهما، أن يتحمَّلا معًا التطهيرَ الروحي، الشاقَّ والقاسي، الذي ينتظرهما.

فبهذا [التطهير] يجب أن يتطهَّرَ تمامًا جزءَا النفس، الروحي والحسّي، إذ لا يتطهَّرُ احدهما جيِّدًا بدون الآخر؛ فتطهير الحسّ الجيّد يحصل عندما يبدأ في الواقع تطهير الروح. فالليل الذي سمّيناه ليلَ الحسّ يُمكن، بل يجب، بالأحرى، أن يُدعى نوعًا من الإصلاح وكبحَ الشهوة، أكثر منه تطهيرًا. والسبب في ذلك أنَّ جميع النقائص والاضطرابات في الجزء الحسّي تأخذ قوَّتَها من الروح وتتجذَّر فيه، وله تخضع الملكاتُ

الصالحةُ والرديئةُ جميعُها؛ وإلى أن تطهُرَ هذه، فلا يُمكن تطهيرُ ثورات الحسّ ونكباته تمامًا.

القوّة في اتّحاد الجزئين

٢ - نستنتجُ من ذلك أنّه في هذا الليل التالي، يتطهَّرُ الجزءان معًا؛ ولهذا الهدف كان من الضروري اجتياز إصلاح الليل الأوّل وما نتجَ عنه من رخاءٍ حتى إذا ما توحَّدَ الحسُّ بالروح، على نحو ما، يتطهَّران ويتحمَّلان عندها العذاب بقوّةٍ أشدّ. لأنَّ تطهيرًا بهذه الشدَّة والقساوة يقتضي استعدادًا كبيرًا؛ فإن لم يكن قد أُصلِحَ قبلاً وَهَنُ الجزءِ السفلي ونالَ في الله قوّةً بما أقام معه فيما بعد من معاشرةٍ عذبة لذيذة، فلن يتوفَّر للطبع قوّةٌ ولا استعدادٌ لأحتمال التطهير.

إدراك كالأطفال

٣ - ومع ذلك، فإنَّ طريقة هؤلاء المتقدِّمين في معاشرة الله والقيامِ بأعمالٍ لأجله تظلُّ دنيئةً جدًّا وطبيعيَّةً جدًّا، لأنَّ ذَهَبَ الروح لم يُطهَّر ولم يُصَفَّ بعد؛ فما زالوا يدركون الله كالأطفال، ويتكلَّمون على الله كالأطفال، ويعرفون عنه ويسمعون عنه كالأطفال، حسب تعبير القديس بولس (١قورنتس ١٣، ١١)؛ وذلك لأنَّهم لم يبلغوا، بعدُ، الكمالَ الذي هو اتّحاد النفس بالله؛ ففي ذلك الاتّحاد يصيرون كالكبار يأتون في روحهم عظائم، لأنَّ أعمالَهم وقواهم أصبحت إلهيَّة أكثر منها بشريَّة، كما سيقال لاحقًا. ولمَّا كان الله يريد أن يُعرِّيَهم فِعليًّا من هذا الإنسان القديم ويلبسَهم

الإنسانَ الجديد، المخلوقَ على صورة الله في جِدَّة الحسّ، كما يقول الرسول (**قولسي** ٣/ ١٠) فإنَّه يُعرِّي فيهم كذلك القوى والعواطف والحواس، الروحيَّة منها والحسِّية، الخارجية والداخلية، تاركًا العقلَ في ظلمة، والإرادةَ في جفاف، والذاكرةَ في خواء، وعواطفَ النفس في غمٍّ ومرارةٍ وضيقٍ، حارمًا إيَّاها ما كانت تحسُّ به قبلاً من طعمٍ وذوقٍ في الأمور الروحيَّة، كي يصبحَ هذا الحرمان أحد العناصر الأساسيَّة التي يقتضي وجودها في الروح، لتَدخُلَ إليه وتَتوحَّدَ فيه الصورةُ[1] الروحيَّة للروح أي الاتِّحاد بالحبّ. وذلك كلّه يحقِّقُه الله في النفس بواسطة تطلُّعٍ خالصٍ ومظلمٍ، كما تعبِّر عنه النفس في الأنشودة الأولى؛ ومع أنَّنا شرحناها[2] في معرض كلامنا على الليل الأوَّل أي ليل الحسّ، غير أنَّ النفسَ تعني بها، خصوصًا، الليلَ الثاني، أي ليل الروح، الذي يشكِّلُ القسم الأساسيَّ في تطهير النفس. لذا فإنَّنا نورد الأنشودة هنا ثانيةً ونشرحها مرَّةً أخرى.

---

(١) كي نفهمَ هذا الشرح يجب علينا أن نعودَ إلى ثنائية المادة والصورة (hylémorphisme) التي تُطبِّقُها الفلسفة المدرسية دون تمييز على عناصر الوجود. فإذا اعتبرنا الروح الإنسانية المادة في الثنائية يصبحُ الاتِّحاد بالحبّ الصورةَ لأنَّها تُعطي الروحَ شكلَه النهائي في الوجود. وتتبيَّن في هذا التحليل أيَّة أهميَّة يُعطي يوحنا الصليب للإتِّحاد بالله في اكتمال شخصيَّة الإنسان. (ش.ر.).

(٢) المقصود بالضمير الانشودة الاولى (ش. ر.).

الفصل الرابع

الأنشودة الأولى وشرحَها.

الأنشودة الأولى

في ليلةٍ مُظلمة،
مَشوقَةً، بالحبِّ مُضطرمة،
يا له حظًّا سعيدًا!
خرجتُ لم يَدْرِ بي أحد،
وقد صارَ بيتي هادِئًا.

الشرح

١ - إذا نَسَبْنا الآن معنى هذه الأنشودة إلى تطهير الروح وتطلُّعه أو تعرِّيه أو فقره[1]، - وهذا كلّه شيءٌ واحدٌ تقريباً - نستطيعُ أن نشرحَها بهذه الطريقة وكأنَّ لسان حال النفس يقول: بعدما صرتُ في فقرٍ وهجرانٍ وتركٍ لكلِّ تصوّرات نفسي، أي إذ حلَّت الظلمةُ في عقلي، والانقباض في

(١) هناك فرقٌ بين المخطوطات؛ وقد عُدْنا في هذا المدخل إلى النص الذي أثبتَهُ الأب سيلفيريو في مجموعة BMC مجلد ١١ ص٤٢١ (ش.ر.).

إرادتي، والغمُّ والضيقُ في ذاكرتي، مستسلمةً إلى الظلمة بإيمانٍ خالصٍ، - وهي ليلٌ مظلمٌ للقوى الطبيعية المذكورة، بينما الإرادة وحدها تقاسي الألَمَ والهمَّ ولهفات الحبِّ لله، - خرجتُ من ذاتي، أي من طريقتي الدنيئة في الإدراك، ونصيبي الضعيف في الحبِّ، وطريقتي الهزيلة في تذوُّق الله، لا يصدّني عن ذلك الشيطان ولا الحِسِّيَّة.

التحوّل الى العمل الإلهي

٢ - لقد كان لي ذلك سعادةً كبرى وحظًّا صالحًا. فبعد أن تلاشت واستكانت قوى نفسي وأهواؤها وشهواتُها وعواطفها التي بها كانت تستشعر الله وتتلذَّذ به، بطريقةٍ دنيئةٍ، خرجتُ من معاشرتي وعملي البشريَّين إلى عمل الله ومعاشرته. أي إنَّ عقلي خرج من ذاته وتحوَّلَ من إنساني وطبيعيّ إلى إلهي، لأنَّه اتَّحدَ بالله بواسطة هذا التطهير، فلن يُدرِكَ، بعدُ، بفضل قوَّته الذاتية ونوره الطبيعي، بل بفضل الحكمة الإلهيَّة التي اتَّحد بها.

أمَّا إرادتي فقد خرجت من ذاتها وأصبحت إلهيَّة؛ إذ بعد أن اتَّحدت بالحبِّ الإلهي، فإنَّها لا تحبُّ بعد بصورةٍ دنيئةٍ وبقواها الطبيعية، بل بقوَّة الروح القدس ونقاوته. فالإرادة، إذًا، لا تعمل لأجل الله، بعد الآن، بطريقةٍ بشريَّة. وكذلك الذاكرة، لا أكثر ولا أقلّ، قد تبدَّلت إلى تصوّرات المجد الأبديَّة. وأخيرًا، فإنَّ قوى النفس وعواطفها جميعًا تتجدَّد كلِّيًّا بواسطة هذا الليل وبواسطة تطهير الإنسان القديم، وتتحوَّل إلى طباعٍ وملذّات إلهيَّة. ويلي البيت:

في ليلةٍ مُظلمة.

الفصل الخامس

يُذكَر البيت الأوّل ويُشرح كيف أنَّ هذا التطلُّع المظلم ليس بالنسبة إلى النفس ليلاً فحسب، بل ألم وعذاب أيضًا.

التطلُّع المفاض

١ - هذا الليل المظلم هو تأثيرٌ يُحدثه الله في النفس فيطهِّرها من جهالاتها ونقائصها الاعتياديّة، الطبيعيّة والروحيّة، يسمِّيه التطلعِيّون[١] تطلُّعًا مُفاضًا[٢] أو لاهوتًا صوفيًّا فيه يعلِّمُ الله النفسَ سرًّا ويثقِّفُها في كمال الحبّ دون أن نعملَ النفسُ شيئًا أو تدركَ ما هو التطلُّع المفاض. وبما أنَّه معرفةٌ ودّيةٌ لله، فإنَّه يولِّد في النفس مفعولين رئيسيَّين: فهو

---

(١) جمع التطلّعي وهي ترجمة كلمة Contemplativo، الذي يسير في نهج التطلّع.

(٢) Contemplación infusa التطلُّع المُفاض يُفيضُه الله في النفس تمييزًا له عمَّا دعاهُ اللاهوتيّون Cont. adquirida التطلُّع المكتسب أي ما يكتسبه المُتطلِّع بالدُّربة (ش.ر.).

يطهّرها وينويرها يعدّها للاتّحاد بالله بالحبّ. لذلك، فالمعرفة الودّية نفسُها، التي تطهِّر الأرواح الطوباوية وتنيرها، هي التي تطهِّر النفس هنا وتنيرها.

الحكمة الإلهيَّة

٢ - لكن هناك شبهة : بما أنَّ النور الإلهي، كما قلنا، ينيرُ النفسَ ويطهِّرُها من جهالاتها، فلماذا تسمّيه النفسُ ليلاً مظلمًا؟ نجيبُ على ذلك بقولنا: إنَّ هذه الحكمة الإلهيَّة هي، بالنسبة إلى النفس، ليلٌ وظلامٌ، بل ألمٌ وعذابٌ أيضًا، لسببين: أوَّلُهما هو سموّ الحكمة الإلهيَّة، التي تفوقُ طاقة النفس، فتصبح لها من جرّاءِ ذلك ظلامًا؛ والسبب الآخر هو ضَعة النفس وقذارتها؛ وفي هذه الحال [تكون الحكمة] لها مصدرَ عذابٍ وغمٍّ وظلامٍ أيضًا.

شعاع ظلمة

٣ - لكي نثبتَ الأوَّل يجدر بنا الافتراض [أنَّنا نعرف] بعضًا من تعليم الفيلسوف القائل إنَّه بمقدار ما تكون الأمور الإلهيَّة جليّة في ذاتها وواضحة، بمقدار ذلك تكون، طبيعيًّا، مظلمةً للنفس وخفيَّةً عليها؛ كذلك النور: فكلَّما سطع أعمى وبَهَرَ حدقة البوم؛ وكلَّما شَخَصنا إلى الشمس بوضوحٍ أظلمت الشمس القدرةَ البصريَّةَ وعطَّلتها، لأنَّها تفوقُ البصرَ بسبب ضعفه. لذلك عندما ينقضُّ هذا النور الإلهي، نور التطلُّع،

على النفس التي لم تكتملْ بعد إنارتها، يولِّدُ فيها ظلماتٍ روحيَّةً؛ فهو لا يفوقها فحسب، بل يعطِّل فيها، أيضًا، عمل عقلها الطبيعي ويُعتِّمُه.

ولهذا السبب يُسمِّي القديس ديونيزيوس، ولاهوتيون صوفيّون آخرون، هذا التطلُّع المُفاض «شعاع ظلمة»[٣] - أي ظلمة للنفس التي لم يتمّ، بعد، تطهيرُها وتنويرُها -، لأنَّ نورَه الساطع والفائقَ الطبيعة يغلب القوَّة العقليّة الطبيعيّة ويعطِّلُها. وفي الموضوع نفسه قال داود أيضًا: **بالقرب من الله ومن حوله الظلمةُ والغمام**[٤] (**مزمور** ٩٦/ ٢)؛ ليس لأن الله هو كذلك في ذاته، بل بسبب عقولنا الضعيفة التي تُظلِمُ وتُبهَرُ[٥] وسط النور العظيم فلا تستطيع الوصول إلى الله. ويشرح ذلك داود بقوله: **من بهاء حضرته جعل الغمام حجابًا** (**مزمور** ١٧/ ١٢-١٣)[٦]، أي بين الله وعقلنا. وهذا هو السبب في أنَّ الله أذ يشتقُّ من ذاته هذا الشعاعَ الباهر من حكمته الخفيَّة صوب النفس التي لم تتحوَّل بعد، يجعل في عقلها ظلماتٍ حالكة.

صراعُ ضِدَّين

٤- ومن البديهي أن يكون هذا التطلُّع المظلم شاقًّا على النفس في

---

(٣) Pseudo-Denys - *La Théologie mystique ch.1.* أمَّا «الصوفيّون الآخرون» فقد رأت الأبحاث التاريخية أنَّهم ينتسبون إلى المدرسة الروحية الشمالية وخاصةً Jean de Ruysbroeck.

(٤) في الترجمة الحديثة: **الغمامُ المظلم من حوله.**

(٥) تُحرَمُ النورَ وتَعمى.

(٦) في الترجمة الحديثة: **أقام من الظلمة حجابًا له... أمام بهائه مرّت الغيوم.**

البداية؛ فبما أنَّ هذا التطلُّع الإلهي المفاض يحوي خيراتٍ عديدةً غايةً في الجودة، بينما النفس، التي تنالها، كونها لم تتطهَّر بعد، تحوي دناءاتٍ عديدةً غايةً في السوء أيضًا، وبما أنَّه لا يمكن أن تتَّسع ذاتُ النفس لضدّين، فلا بدَّ لها من أن تَشقى وتتألَّمَ لأنَّها هي الشخص الذي فيه يتصارع هذان الضِدَّان واحدٌ ضدّ الآخر، بسبب تطهير نقائصها الذي يتمّ بواسطة هذا التطلُّع. وسنُبيِّن ذلك بالاستقراء(٧)، وبهذه الطريقة.

العذاب الأوَّل: تناقض الأضداد

٥ - [يحصل العذاب] الأوَّل لأنَّ نورَ هذا التطلُّع ساطعٌ جدًّا وحكمتَه صافيةٌ جدًّا، بينما النفس التي يغمرها مظلمة وكَدِرَة. فلذلك تتألَّمُ النفس أشدَّ الألم عندما تقتبله في ذاتها، كما تتألَّم الأعينُ الكَدِرَةُ أو المريضةُ من جرّاء خِلْطٍ خبيثٍ، إن غمرها النور الباهر. وهذا العذاب الذي تقاسيه النفس بسبب قذارتها، عندما يغمرها تمامًا هذا النورُ الإلهي، شديدٌ كلَّ الشدَّة؛ فإذ يغمر النفسَ هذا النورُ النقي لكي يطردَ منها قذارتَها، تشعر بأنَّها قَذِرَةٌ وبائسةٌ لدرجةٍ تخالُ معها أنَّ الله ضدَّها، وأنَّها أصبحت هي أيضًا ضدّ الله. وهذا ما يسبِّب لها ألمًا مُبرِّحًا لاعتقادها هنا أنَّ الله قد رذلها. وهذا، بالضبط، كان من أشدِّ المشقّات التي كان أيّوب يقاسيها

(٧) الاستقراء (Inducción) عملية ذهنية ينتقلُ فيها الفكر تدريجيًا من الخاص إلى العام أي يصل إلى استنتاجات عامة انطلاقًا من ملاحظة حالاتٍ فردية ورصدها. عن فريدريك معتوق- **معجم العلوم الإجتماعية**. أكاديميا، بيروت ١٩٩٣، ص ١٩٤.

عندما ابتلاه الله، فيقول: **لماذا جعلتني ضدّك، فصرت عبئًا وثقلاً على نفسي؟** (٧/ ٢٠) [٨]. لأنَّ النفسَ، وإن كانت في ظلمة، إذ ترى الآن قذارتها بوضوح، بفضل هذا النور النقي، تعرف جيِّدًا أنَّها ليست أهلاً لله ولا لأيِّ خليقةٍ أخرى. وإنَّ أكثرَ ما يؤلمها ظنُّها أنَّها لن تصير أبدًا [أهلاً له]، بل إنَّ خيراتها قد نضبت جميعًا. وهذا ما يسبِّبُه للنفس غوصُ ذهنها العميق في معرفة أخطائها ومساوئها والشعور بها؛ لأنَّ هذا النورَ الإلهيَّ والمظلمَ يضعها، كلَّها هنا، نصبَ عينيها، فترى بجلاءٍ كيف أنَّها، من تلقاءِ ذاتها، لن تستطيعَ الحصول على شيءٍ آخر. بهذا المعنى يمكننا أن نفهمَ آية داود القائل: **بسبب الإثم أدَّبتَ الإنسان، وأتلفتَ وأذبتَ نفسه، وكالعنكبوت تُبقَرُ.** (**مزمور** ٣٨/ ١٢) [٩].

العذاب الثاني: ثقلُ التطلُّع

٦ - أمَّا عذابُ النفس الثاني فمردُّه إلى ضعفها الطبيعيّ، الأدبيّ والروحيّ؛ فإذ يغمرُ هذا التطلُّع الإلهي النفسَ بشيءٍ من العنف ليقوِّيَها ويروِّضها، فإنَّها تتألَّمُ في وهنها حتى لتكاد تتلاشى، خاصةً عندما يغمرها [التطلُّع] بشدَّة أعظم أحيانًا؛ فالحسّ والروح يتألَّمان كأنَّهما ينوءان تحت ثقلٍ عظيمٍ ومجهول، ويُنازِعان لدرجةٍ يحسبان معها الموتَ راحةً وحلاًّ

---

(٨) في الترجمة الحديثة: «**ولم جعلتني هدفًا لك حتى صرتُ عبئًا عليك؟**».

(٩) في الترجمة الحديثة: **بالتوبيخ على الإثمِ أدَّبتَ الإنسان، أتلَفت كالعُثِّ مُشتهاه.**

أفضل. وأيّوبُ النبي، بعد أن اختبرَ ذلك، كان يقول: **«لا أريدُ أن يعاملني بشدَّة حتى لا يسحَقَني بثقلِ عظمته** (٢٣/ ٦)[١٠].

٧- ومن جرَّاء هذين الضغط والعبء تشعرُ النفسُ بأنَّها بعيدةٌ كلَّ البعد عن أيِّ عطفٍ حتى ليُخيَّل إليها - وهذا هو الواقع - أنَّ الأمورَ التي اعتادت أن تجدَ فيها بعضَ السند قد تلاشت مع باقي [الخيرات]، وليس من يرأف بها. وفي هذا الصدد يصرخ أيّوب أيضًا: **إرحموني أنتم، على الأقل، يا أخلاَّئي، لأنَّ يدَ الرَّبِّ قد مسَّتني** (١٩/ ١٢)[١١].

ويثيرُ فينا شديدَ الاستغراب والرأفة مقدارُ ضعف النفس وقذارتها؛ إذ بالرغم من أنَّ يدَ الله، في ذاتها، هي في غاية الرقَّة والنعومة، فالنفسُ تحسّها هنا ثقيلةً ومعاكِسةً؛ مع أنَّ الله لا يثقل بها عليها ولا يسحقها، بل يلمَسها، فقط، لمسةَ حنان، لكي يغمرَ النفسَ بالنِعَم وليس ليقتصَّ منها.

---

(١٠) في الترجمة الحديثة: **أبِعظمة جبروته يُحاجُّني؟**

(١١) في الترجمة الحديثة: **إرحموني، إرحموني أنتم يا أصدقائي، فإنَّ يدَ الله قد مسَّتني.**

الفصل السادس

في أنواعٍ أخرى من العذاب تقاسيها النفسُ في هذا الليل.

العمل الإلهي

١ - يتأتّى النوع الثالث من الآلام والعذاب التي تقاسيها النفس هنا من نقيضَين آخرين يجتمعان هنا، هما الإلهي والإنساني: الإلهي هو هذا التطلُّع المطهِّر، والإنساني هو ذات النفس. وبما أنَّ الإلهي يغمرُ النفسَ ليُجدِّدَها[1] فيجعلَها إلهيَّة، ويُعرِّيها من عواطفها الاعتيادية وخصائص الإنسان القديم الذي به اتَّحدت وثيقًا والتصقت، ومعه تكيّفت، ويسحقُها ويُفني الجوهرَ الروحي، ويزجُّها في ظلامٍ عميق دامس، فهي تشعرُ بأنَّها تتلاشى وتذوبُ لدى رؤية غمرة مساوئها، وتحسُّ بموتٍ قاسٍ في الروح؛ وتحسُّ كان وحشاً ابتلعها، ويهضُمها في جوفه المظلم؛ وتقاسي الضيقات

---

(١) يُلاحظُ هنا الأب سيلفيريو في طبع (BMC) أنَّ المخطوطات تُضيفُ فعلاً آخر يُفسِّرُ عملَ التطلُّع بما معناه: purgarla, hacerla, cogerla, cortarla, cocerla, sazonarla ويتساءلُ: مَنْ ينقلُ بأمانةٍ أكبر؟ (ش.ر.).

مثل يونان في بطن ذلك الحوت (**يونان ٢/ ١**). فمن الأنسب لها أن تمكثَ في هذا القبر، [قبر] الموت المظلم، بانتظار القيامة الروحية.

شعور بغضب الله

٢ - وبالرغم من أنَّ نوعَ هذا الألم وهذا العذاب يفوقُ كلَّ نوع، إلَّا أنَّ داود يصِفه قائلاً: «**إكتنفتني أنّاتُ الموت؛ وعذاباتُ الجحيم أحاطت بي؛ في ضيقي صرختُ** (**مزمور ١٨/ ٥- ٧**)[٢].

بيدَ أنَّ أشدَّ ما تكابد النفس في هذه الحالة، اعتقادُها الراسخ أنَّ الله قد رذلَها وتنكَّرَ لها طارحًا إيَّاها في غياهب الظلمات؛ فيشقُّ عليها ويؤلمها أشدَّ الألم أنَّ الله قد تخلَّى عنها. والنبي داود، لدى شعوره المرهف بهذه الحالة يقول: **كما أنَّك لا تذكر، بعدُ، الجرحى المائتين في القبور، المنقطعين عن يدك، هكذا وضعوني في الجبِّ الأعمق والأسفل، في الظلمات وظلال الموت؛ وعليَّ استقرَّ غضبُك وأفرغتَ عليَّ جميع أمواجك** (**مزمور ٨٨/ ٦-٨**)[٣].

وبالفعل، تشعرُ النفسُ، عند ضغط هذا التطلُّع المطهِّر، شعورًا مرهقًا

---

(٢) في الترجمة الحديثة: **أمواجُ الموت غمرتني، وسيول بليعال روَّعتني؛ وحبائل مثوى الأموات حاطتني، وشِباك الموت استبقتني. في ضيقي دعوتُ.** نُلاحِظُ أنَّ الكاتب ينتقي الآيات والعبارات ولا يستشهدُ بالآيات كما تَرِد (ش.ر.).

(٣) في الترجمة الحديثة: **فراشي بين الأموات، مثل القتلى الراقدين في القبور، مَنْ عدتَ لا تذكرُهم وهم من يدك منتَزعون. جعلتَني في الجبِّ الأسفل في الأعماق والظلمات. عليَّ ثقلُ غضبكَ، وضايقتَني بجميع أمواجك.**

بظلِّ الموت، وزفراتِ الموت وعذابات الجحيم، أي إنَّها بدون الله، ومعاقَبَةٌ،ومنبوذةٌ، وغير أهلٍ له، وهو غاضبٌ عليها. وتشعرُ بذلك كلِّه، بل بأشدّ منه، إذ يُخيَّل إليها أنَّ ذلك سيدومُ إلى الأبد.

مَثَل يونان

٣ - وتشعرُ النفسُ بالخذلان نفسه وبالاحتقار من قِبَل الخلائق كلِّها، خاصةً من قِبَل أصحابها؛ لذلك يتابع داود في هذه الحالة قائلاً: **أبعدتَ عنِّي صَحبي ومعارفي، فاعتبروني رِجسًا** (مزمور ٨٨ / ٩)[٤].

ويشهدُ على ذلك كلِّه يونان الذي اختبره، فعلاً، في بطن الوحش جسديًّا وروحيًّا، حين يقول: **قد طرحتني في العمق في قلب البحر، فالتيار أحاط بي. جميعُ تيّاراتك وأمواجك جازت عليَّ، فقلتُ: طُرِدتُ من أمام عينيك، لكنِّي سأعودُ أنظرُ هيكلَ قدسك.** - يقول ذلك لأنَّ الله يطهِّر هنا النفس كي تراه - **قد اكتنفتني الأمواه حتى النفس، وأحاط بي الغمرُ، وغطَّى البحرُ رأسي. نزلتُ إلى أطراف الجبال، مزاليجُ الأرض أغلقتْ عليَّ إلى الأبد.** (**يونان ٢/ ٤ - ٧**)[٥].

---

(٤) في الترجمة الحديثة: **أبعدتَ عنِّي معارفي، ولهم قبيحةً جعلتني.**

(٥) في الترجمة الحديثة: **قد طرحتَني في العمق في قلب البحار، فالنهرُ أحاطَ بي. جميع مياهك وأمواجك جازت عليَّ. فقلتُ: إنِّي طُرِدتُ من أمام عينيك، لكنِّي سأعودُ أنتظرُ هيكلَ قدسِك. قد غمرَتْني المياه إلى حَلقي، وأحاطَ بي الغمرُ والتفَّ الخيزرانُ حولَ رأسي. نزلتُ إلى أصول الجبال، إلى أرضٍ أغلقتْ عليَّ مزاليجُها للأبد.**

وهذه المزاليج تعني، في هذه الحالة، نقائصَ النفس التي تمنعها من التنعُّم بهذا التطلُّع العذب.

تطهير شامل

٤ - أمَّا النوعُ الرابع من العذاب فيُسبِّبُ في النفس ميزةً ساميةً أخرى من ميزات هذا التطلُّع المظلم ألا وهو جلالُ التطلُّع العظيم، الذي يُوَلِّدُ في النفس شعورَها بنقيضٍ آخر موجودٍ فيها وهو فقرُها العميق وبؤسها. وهذا [الشعور] هو من العذابات الرئيسيّة التي تكابدُها النفس في هذا التطهير، لأنَّها تشعرُ في داخلها بعميقِ الفراغ والإفتقار إلى ثلاثةِ أنواعٍ من الخيرات التي تُوازي ذوقَ النفسِ،.وهي الخيرات الزمنيَّة والطبيعيَّة والروحيَّة؛ بينما ترى ذاتَها وسطَ الشرور المعاكسة، أي في شقاءٍ من جرَّاء النقائص واليبوسات، وفراغِ القوى من المعارف، وخذلانِ الروح في الظلمة. وبمقدار ما يُطهِّرُ الله النفسَ هنا، حسب الجوهر الحسّيّ والروحيّ، وحسب القوى الداخليّة والخارجيّة، بمقدار ذلك يجب أن توضَعَ في فراغٍ وفقر وخذلان جميعُ أجزاء النفس، فتبقى النفسُ يابسةً فارغةً، وفي ظلامٍ، فيُطهِّرُ الجزءُ الحسّي باليبوسة، والقوى بإفراغها من المعارف، والروحُ بالظلمة الدامسة.

انحلالٌ خطير

٥ -كلُّ هذا يُحقِّقُه الله بواسطة هذا التطلُّع المظلم حيث تكابدُ النفسُ الفراغَ وتوقُّفَ تلك المعونات من الطبيعة والمعارف، - وهو عذابٌ مبرِّحٌ كعذابِ مَنْ عُلِّقَ وأُبقي في الفضاء كي لا يتنفَّسَ-؛ لا بل [إنَّ الله] يُطهِّرُ

النفسَ أيضًا ملاشيًا ومُفنيًا فيها ومُفرِغًا منها- كما تفعلُ النارُ بالصدأ والأوكسيد بالمعدن - جميعَ عواطفِها ومَلَكاتها الناقصة التي اكتسبتها طوال حياتها. وبما أنَّها مُتجذِّرةٌ في جوهر النفس، فيضاعف أَلَمَ النفس انحلالٌ خطيرٌ وغمٌّ باطنيّ، علاوةً على ما ذكرنا من فقرٍ وخواء طبيعي وروحي. فتَصدُقُ فيها آيةُ حزقيال القائل: **سأجمعُ العظامَ وأحرقُها بالنار، فيفنى اللحمُ، ويُطبَخُ التركيبُ كلُّه وتذوبُ العظام** (٢٤، ١٠)[٦]. ويُشارُ بذلك إلى العذاب الذي تُكابده النفسُ من جرَّاء الخواء والفقر في جوهرها الحسّي والروحيّ. ويُردِفُ على هذا الموضوع: ثمَّ ضَعها فارغةً على الجمر لكي يُحمَّى ويُصهرَ معدنُها فيذوبَ في وسطها قَذَرُها وتفنى عفونتها. (**حزقيال** ٢٤، ١١)[٧].بهذه العبارات نُدركُ شدَّةَ الآلام التي تُقاسيها النفسُ هنا من جرَّاء تطهير نار هذا التطلُّع؛ فالنبي يقول: لكي يتطهَّرَ ويفنى صَدَأُ العواطف الكامنة في وسط النفس يجب على النفس ذاتها أن تتلاشى نوعًا ما وتفنى كأنَّها أصبحت جزءًا من طبيعة هذه الأهواء والنقائص.

المَطْهَر في الارض

٦ - ومن ثمَّ، فعندما تتطهَّرُ النفسُ في هذا الأتُون كالذهب في البوتقة، وفقًا لقولِ الحكيم (**حكمة** ٣، ٦)، تشعرُ كأنَّها تنزلقُ تدريجيًّا إلى انحلالٍ مريعٍ في جوهرها ذاته مع فقرٍ شديد. ويُمكنُ استنتاج ذلك ممَّا يقولُ

---

(٦) وفي الترجمة الحديثة: **أكثِر الحطب وأضرم النار وركِّز المَرَقَ فتُحرَقَ العِظام.**

(٧) المرجع عينه: **ثمَّ ضَعْها على جمرها فارغةً لكي تُحمى ويَحمرَّ نحاسُها فيذوبَ قذرُها في وسطها ويزول زنجارها.**

داود في هذا الموضوع، صارخًا إلى الله بهذه العبارات: **خلِّصني، يا ربّ، فإنَّ المياهَ بلغَتْ إلى نفسي؛ قبعتُ في عمق الطمي وليس ما أستندُ إليه. بَلَغْتُ إلى قعر البحر وأغرقَتْني العاصفة. قد أعْيِيْتُ في صراخي؛ بُحَّ حلقي وكلَّتْ عيناي من انتظاري إلهي** مزمور ٦٨ / ٢-٤) [٨]. فبذلك يُذلُّ اللهُ النفسَ كثيرًا ليَرفَعَها من بعدُ كثيرًا. ولولا أنَّ اللهَ يأمرُ هذه المشاعر بأن تَخمُدَ حالما تتأجَّج في النفس، لقضت النفسُ نحبَها في أيَّامٍ قصيرة. لكنَّها لا تشعرُ، إلَّا في فتراتٍ متقطعة، بحدَّة [هذه المشاعر] التي تبلغُ حدَّتُها مبلغًا تخالُ النفسُ معه أنَّها ترى الجحيمَ مفتوحةً أمامها والهلاك. وهذا ما يحدثُ حقًّا للذين يهبطون إلى الجحيم أحياء (**مزمور** ٥٤/ ١٦). لأنَّهم يُطَهَّرون هنا كما يُطَهَّرون هناك[٩]، فيقضون هنا تطهيرًا كان يجب أن يقضوه هناك. فالنفسُ التي تمرُّ بهذه الحالة إمَّا أنَّها لا تدخلُ في ذلك المكان أو أنَّها لا تبقى فيه إلاَّ قليلاً، لأنَّ ساعةً هنا تفيدُ أكثر من ساعات هناك.

---

(٨) في الترجمة الحديثة: **أللّهمَّ خلِّصني فإنَّ المياه قد بلغت حلقي. غرقتُ في موحلٍ عميقٍ ولا مُستَقَرَّ. بلغتُ إلى قَعر المياه والسيلُ غمرَني. عَيِيْتُ من صراخي والتهبَ حلقي، وكلَّتْ عيناي من انتظاري لألهي.**

(٩) يُفهَمُ بكلمة **هنا** الحياة الأرضية والحياة التي يتكلَّمُ عليها، أمَّا **هناك** فيقصدُ بها حالة المطهر، (ش.ر.).

الفصل السابع

يُتابعُ الموضوعَ نفسَه ويتكلَّمُ على أحزان الإرادة وانقباضاتها.

ذكريات متناقضة

١ - إنَّ أحزانَ الإرادة وانقباضاتها لشديدةٌ هنا كلَّ الشدَّة بنوعٍ أنَّها تصيبُ النفسَ بطعنةٍ من جرَّاءِ تذكُّرِها المفاجيء الأوجاعَ التي تُلِمُّ بها دون التأكُّد من علاجها، إضافةً إلى تذكُّر حالات الرخاء الماضية؛ لأنَّ الذين يدخلون في هذا الليل يكونون عادةً قد نَعِموا بلذَّاتٍ عديدةٍ في الله وأدّوا له خدماتٍ جلَّى. فأشدُّ ما يؤلمُهم كونُهم بعيدين عن ذلك الخير ولن يستطيعوا بلوغه. وهذا ما يقوله أيّوب أيضًا، بعدما اختبره، بهذه العبارات: «**أنا الذي كان غنيًّا ثريًّا فصرتُ فجأةً منهارًا ومسحوقًا. أمسكَ بقفا عُنقي فحطَّمني ونصبني هدفًا له لِيتخِذَني جِراحًا. أحاطني بسهامه وجرَّحَ أضلاعي كلَّها، ولم يعفُ؛ نَثَرَ على الأرض أحشائي، هشَّمني جرحًا على جرح، وهجمَ عليَّ هجومَ عملاقٍ جبّار. لقد لففتُ على جلدي مِسحًا وغطَّيتُ رأسي بالرماد؛ كوى البكاءُ وجهي، وعَمِيَتْ عينايَ** (أيّوب ١٦/ ١٣- ١٧)»[1].

(١) في الترجمة الحديثة: **كنتُ في هدوءٍ فهشَّمَني، أخذَ بقفاي فحطَّمَني،**

٢ – إنَّ عذابات هذا الليل لعديدةٌ وخطيرةٌ، ولدينا كثيرٌ من آيات الكتاب المقدَّس نحتجُّ بها في هذا المجال، لولا افتقارُنا إلى الوقت والقدرة على نقلها، إذ إنَّ كلَّ ما يُمكنُنا قولُه، هو، بدون شك، أقل ممَّا ينبغي؛ إلاَّ أنَّه يُمكن تكهُّن شيءٍ عنه من خلال الآيات السابق ذكرُها. ولكي أُنهِيَ شرحَ هذا البيت، وأوضحَ ما يفعله في النفس هذا الليل، أنقلُ ما شعرَ به إرميا في أثنائه؛ ونظرًا إلى فظاعته، يرويه النبي مُنتحبًا بعباراتٍ مستفيضةٍ بهذه الطريقة[٢]: (مراثي ٣/ ١– ٢٠).

أنا الرجلُ الذي رأى البؤسَ تحت عصا غَضَبِه.

قادني وسَيَّرني في الظلام ولم يكنْ هناك نور.

عليَّ وَحْدي يمدُّ يدَه ويُعيدُها النهارَ كُلَّه.

أَبْلى لحْمي وجِلْدي وهشَّمَ عِظامي.

بنى عليَّ وأَحاطَني بمرارةٍ ومَشَقَّة.

أَسكَنَني في الظلمات مِثلَ الموتى مِن قديم.

سَيَّجَ عليَّ فلا أَخرُج وثَقَّلَ قُيودي.

ونصبَني هدفًا له. تكتنِفُني سهامُه يشقُّ بها كِلْيَتَيَّ ولا يُشفِقُ، ويُريقُ مرارتي على الأرض. يفتحُ فيَّ ثُغرةً على ثُغرة ويهجمُ عليَّ هجومَ الجبَّار. لقد لفَّقتُ على جلدي مِسحًا ومَرَّغتُ في التراب جبهتي. إحمرَّ وجهي من البكاء، وغشِيَ جفنيَّ ظلالُ الموت.

(٢) نظرًا إلى طول النص، ننقلُه حسب الترجمة الحديثة، دون أن نورِدَ الترجمة القديمة (ش.ر.)

إنَّه ولو صرختُ واستَغَثتُ يَصُدُّ صلاتي.
سَيَّجَ على طُرُقي بالحجرِ المنحوت وسَدَّ سُبُلي.
هو لي دُبٌّ في الكمين وأَسَدٌ في المِرْصاد.
أَضَلَّ طُرُقي ومَزَّقَني وجعلني قَفْرًا.
سَدَّدَ قوسَه ونصَبَني هدفًا للسِّهام.
خرقَ كُليَتَيَّ بسِهامِ جَعبَتِه.
صِرتُ أُضحوكةً لجميع شعبي وأُغنِيَةً لهم طوال النهار.
جَرَّعَني مرارات أَزْواني العَلْقَم.
كَسَّرَ بالحصى أسناني وأَطعَمَني رَمادًا.
فأُبعِدَت نفسي عن السلام ونَسيتُ الهَناء.
وقلتُ: «زالت ثِقَتي ورجائي الذي من الربّ».
أُذكُرْ بُؤْسي وتَشَرُّدي العَلقَمَ والسُّمّ.
تتذَكَّرُ تتذَكَّرُ نفسي وتَنهارُ فيَّ.

عذاب لا نهاية له

٣ - لقد ذرفَ إرميا تلك الدموع الغزيرة على هذا الشقاء، واصِفًا بها وصفًا حيًّا آلامَ النفس في هذا التطهير وفي الليل الروحي. لذلك، فالنفسُ التي يزجُّها الله في هذا الليل العاصف والمروّع جديرةٌ بكلِّ شفقة. وبالرغم من أنَّ حظًّا سعيدًا ينتظرها من جرّاء الخيرات العظيمة التي ستحصلُ لها منه

عندما **يستخرجُ الله**، كما يقول أيّوب، **من الظلمات خيراتٍ عظيمة في النفس، ويُبرز إلى النور ظلَّ الموت** (١٢، ٢٢)[٣]، بحيثُ **تصبحُ هذه كلُّها**، كما يقول داود، **نورَها، كما كانت ظلماتِها** (**مزمور** ١٣٨/ ١٢)[٤]، غيرَ أنَّها لشدَّة العذاب الذي تُقاسيه، وفظاعة شكلِها في علاجه، تستحقُّ كلَّ رأفةٍ وشفقة، لاعتقادِها، كما يقول هنا إرميا النبي، أنَّ عذابَها لن يكونَ له نهاية؛ ويبدو لها، كما يقول داود أيضًا، **أنَّ الله أسكنها في الظلمات كالذين ماتوا للأبد. فضاقَ لذلك روحُها، واضطربَ فيها قلبُها** (**مزمور** ١٤٣، ٣- ٤)[٥].

لا عزاء ولا سند

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ النفسَ لا تجدُ، بسبب العزلة والتخلّي الناتجين عن هذا الليل المظلم، عزاءً في أيِّ تعلُّمٍ أو سندًا لدى أيِّ معلِّمٍ روحي؛ وبالرغم من أنَّ [المعلِّمَ] يُثبتُ لها، بطرقٍ عديدة، أسباب ما يُمكنُ أن تنالَ من عزاءٍ بواسطة الخيرات الكامنة في تلك العذابات، إلاَّ أنَّها لا تستطيعُ تصديقه؛ بل يبدو لها، لكونِها غارقةً ومستغرقةً في إحساسٍ بالشرور يُبيِّنُ لها بجلاء مساوئَها، أنَّ [المعلِّمين] يقولون ما يقولون لكونِهم لا يرون ما ترى وما تُحسُّ

---

(٣) في الترجمة الحديثة: **يُجلّي من الظلمة أعماقها، ويُبرِز ظلال الموت إلى النور.**

(٤) في الترجمة الحديثة: **والليلُ يُضيءُ كالنهار.**

(٥) في الترجمة الحديثة: **في الظلمات أسكنَني كالذين ماتوا للأبد. قد خارَتْ في روحي وارتعبَ قلبي في باطني.**

به ولا يفهمونَها؛ فعوضَ السلوان تكابد ألمًا جديدًا، ويُخيَّلُ إليها أنَّ [ما يقولونَه] ليس الدواء لعذابها. وهذه هي الحقيقةُ؛ وإلى أن ينتهِيَ الرَّبُّ من تطهيرها بالطريقة التي يرتئيها، فلن تُفيدَها أيَّةُ وسيلةٍ ولن ينفعَ عذابَها أيُّ علاجٍ؛ فكم بالأحرى إن كانت النفسُ لا تستطيعُ في هذا المجال إلاَّ القليل، شأنُها في ذلك شأنُ مَنْ كُبِّلَتْ يداه ورجلاه [وطرح] في زنزانةٍ مظلمةٍ، فلا تستطيعُ حراكًا أو رؤيةً، أو تلمُّسَ أيّ مؤازرةٍ من العلاء أو من أسفلٍ، إلى أن يتواضعَ الروحُ ويُذَلَّ ويتطهَّرَ ويُصبحَ دقيقًا بسيطًا نحيفًا حتى يتمكَّنَ من أن يصيرَ واحدًا مع روح الله، وفقًا لدرجةِ اتِّحاد الحبّ التي يريدُ الله أن يهبَه إيّاها برحمته؛ ووفقًا لذلك تشتدُّ وطأةُ التطهير أو تقلّ، وتقصرُ مدَّتُه أو تطول.

توالي التطهير والتنوير

٤ - وإن كان هذا [التطهير] حقيقيًّا، فهو، مهما اشتدّ، يدومُ بضع سنين، تتخلَّلُها فتراتُ راحة، يسمحُ الله فيها بأن يكفَّ هذا التطلُّع المظلم عن غمرِ النفس بطريقةٍ وشكلٍ مطهِّرين، ليغمرَها بطريقةٍ تنويرية ووديَّة تخالُ النفس معها أنَّها خرجت من تلك الزنزانة والسجون، ووُضعت في استراحةٍ من السعة والحرِّيَّة؛ فتشعرُ بعذوبةٍ وسلامٍ كبيرين، وتتذوَّقُ إلفةً حميمةً مع الله مصحوبةً باتصالاتٍ روحيَّةٍ غزيرةٍ وسهلة تكون للنفس دليلاً على الخلاص الذي يحقِّقُه فيها التطهير المذكور، وبشيراً لغزارة الخيرات التي تنتظرها، بحيث تظنُّ النفس، أحيانًا، أنَّها قد بلغت نهاية مشقّاتها. لأنَّ للأمور الروحيَّة في النفس، عندما تكون روحيَّةً صرفًا، ميزةً خاصةً وهي

أنَّها، عندما تكون شدائدَ، تُوهِمُ النفسَ بأنَّها لن تخرجَ منها أبدًا، وأنَّ خيراتِها قد زالت، كما يوضح ذلك ما أوردْنا من نصوصٍ دامغة. أمَّا عندما تكون [تلك الأمور] خيراتٍ روحيَّةً، فالنفسُ تعتقدُ أنَّ ضيقاتِها قد زالت، وأنَّ الخيرات لن تَنقُصَها أبدًا، على مثال داود الذي اختبرَ ذلك فاعترفَ قائلاً: **أنا قلتُ في وَفرتي: لن أتزَعزعَ إلى الأبد (مزمور ٣٠/ ٧)**.

تبدّل الروح

٥ - ويحدث ذلك لأنَّ الوجودَ الحالي لأيِّ ضدٍّ في الروح من شأنه أن يُزيحَ الوجودَ الحالي للضدِّ الآخر، والإحساسَ به[٦]؛ ويتمُّ ذلك على هذا الشكل في القسم الحسِّي من النفس لكونه ضعيفَ الإدراك. أمَّا الروح، فإذا لم يُطهَّرْ بعدُ ولم يُنَقَّ تمامًا من العواطف التي علقت به في الجزء السفلي، وبالرغم من أنَّه روحيٌّ لا يتغيَّر، إلاَّ أنَّ تأثُّره بها يجعلُه متبدِّلاً مُعَرَّضًا للعذابات. وهذا ما نراه في داود: فبالرغم من أنَّه في زمن رخائه ظنَّ وأَعلنَ أنَّه لن يتزعزعَ أبدًا، إلاَّ أنَّه تغيَّرَ فيما بعد إذ انتابَه كثيرٌ من المصائب والضيقات. كذلك تفعلُ النفس: فإذ ترى الآن أنَّ وَفرةَ الخيرات الروحيَّة تغمرُها، ولا تلاحظ أنَّ أصل النقص والنجاسة ما زال كامنًا فيها، تظنّ أنَّ جميع شدائدها قد ولَّت إلى غير رجعة.

---

(٦) هذا التحليل صدًى لمبدأ **عدم التناقض** في الفلسفة المدرسية؛ وهو يُظهِر مدى اعتماد المؤلف على المبادىء الفلسفيّة، وتطبيقها على الأمور الروحيَّة كما ورد سابقًا (**ليل** ك ١ ف ٤، ١).

عدوٌّ داخلي

٦ – غير أنَّ هذه الفكرة لا تراودُ النفسَ إلاَّ نادرًا. لأنَّه طالما لم يتمّ التطهير الروحيّ، فقلَّما يكون، عادةً، الاتصالُ العذبُ من الغزارة بحيث يحجب الجذرَ الباقيَ فلا تعودُ النفسُ تشعرُ في عمق باطنها بأنَّ شيئًا ما لا يُعرَف ينقصُها أو عليها فِعله، وهو يحرمُها التمتُّعَ تمتُّعًا تامًّا بذاك الارتياح، وتشعرُ كأن، في داخلها عدوّاً يختبىء، وتخشى، بالرغم من هدوئه وسباته الحالي، من أن يعودَ إلى نشاطه وشنِّ هجماته المعهودة. والواقع أنَّ النفسَ كلَّما كانت أكثر اطمئنانًا وأقلَّ حذرًا، كلَّما عادت تَغرق وتغوص في دَرَكٍ أسوأ وأقسى وأكثر ظلمةً وحزنًا من ذي قبل، قد يدومُ ردحًا آخر من الزمن أطولَ من السابق. فيعاودُ النفسَ الظنُّ، في هذه الحالة، أنَّ تلك الخيرات كلَّها قد فارقتها إلى الأبد. ذلك أنَّ اختبارَها الخيرَ السابقَ الذي تمتَّعت به بعد الشدَّة الأولى – عندما اعتقدت أنَّها لن تتألَّم أبدًا بعد الآن – لن تكفيَها لتكفَّ عن الاعتقاد أنَّ كلَّ خيرٍ، في هذه الدرجة الثانية من الضيق، قد ضاعَ كلِّيًا ولن يعودَ كما في المرَّة الماضية. والسبب في ذلك، كما ذكرت، أنَّ هذا الاعتقاد الراسخ جدًّا، تُودِعُه النفسَ قناعةُ الروح الحاليّة التي تُلاشي فيه كلَّ ما يخالفُها.

إحساسٌ بالرَذل

٧ – هذا هو السبب في أنَّ القابعين في المطهر يعانون شكوكًا مبرِّحة في أنَّهم سيخرجون من هناك وتنتهي عذاباتهم. فهم، مع امتلاكهم، عادةً، الفضائلَ الإلهيَّة الثلاث، أي الإيمان والرجاء والمحبَّة، لا يدعُهم شعورُهم

الحالي بالعذاب وفقدان الله، يتلذَّذون بالخير الحاضر وبما توليهم تلك الفضائل من تعزية. وبالرغم من لَحْظِهم أنَّهم يحبُّون الله حبًّا شديدًا، فلا يعزّيهم ذلك، ظنًّا منهم أنَّ الله لا يُحبُّهم ولا يستحقّون ذلك. وعلى العكس، إذ يرون أنَّهم فاقدون الله، غائصون في بؤسهم، يبدو لهم أنَّ فيهم جمًّا من الأسباب تحملُ الله على رذلهم ونبذهم، وبكلِّ حقٍّ، مدى الأبد. تلك حالُ النفس في هذا التطهير: فمع اقتناعها بحبِّها الشديد لله، وباستعدادها لبذل ألف حياةٍ في سبيله - وهذا هو الصحيح، لأنَّ هذه النفوس التي تغمرها الشدائد، تحبُّ الله حبًّا صادقًا - فهي لا تجدُ ارتياحًا في كلِّ ذلك، بل يسبِّبُ لها عذابًا أليمًا. وبما أنَّها تحبُّ الله حبًّا لا يتركُ لها همًّا سواه، فحينما ترى شدَّة بؤسها، وتعجزُ عن الإيمان بأنَّ الله يحبُّها، هي، وبأنَّه يجدُ أو سيجد دافعًا لذلك، - بل بالعكس تستحقُّ الرذلَ إلى الأبد، ليس من قبله فحسب، بل من قبل جميع الخلائق - تنتحبُ لرؤيتها في ذاتها أسبابًا تجعلُها تستحقُّ أن يرذلَها مَنْ تُحبُّه كثيرًا وتتشوَّقُ إليه.

الفصل الثامن

في عذابات أخرى تُحزن النفس في هذه الحالة.

قيد القوى والعواطف

١ - هناك أمرٌ آخر يُحزن النفسَ ويغمُّها كثيرًا وهو أنَّ هذا الليل المظلم يقيِّد قواها وعواطفَها فتعجز عن رفع عاطفتها وعقلها وصلاتها إلى الله، فتظنّ، على مثال إرميا، أنَّ الله وضع **غمامًا امامه كي لا تنفذ إليه الصلاة، (مراثي ٣/ ٤٤)**[١]. وهذا ما يعنيه بقوله في النص المذكور: **لقد سدَّ طرقي وقطعها عليَّ بحجارة مربَّعة (مراثي ٣/٩)**[٢]. واذا صلَّت النفس احيانًا، فبدون قوّة ولا عصارة[٣] فتخال أنَّ الله لا يسمعها ولا يأبه لها؛ وهذا ما يعنيه النبي ايضًا في السِفر عينه بقوله: **عندما صرختُ وصَلَّيتُ استبعدَ صلاتي (مراثي ٣/ ٨)**[٤]. وفي الحقيقة، ليس هذا الوقت

---

(١) في الترجمة الحديثة: **إلْتَحَفْتَ بالغمام لئلّا تعبُرَ الصلاةُ إليك.**

(٢) في الترجمة الحديثة: **سيَّجَ على طرقي بالحجر المنحوت وسدَّ سبلي.**

(٣) عصارة Jugo ، والمقصود بها اللّذة التي يشعر بها الحلق عند شرب العصير (ش. ر.).

(٤) في الترجمة الحديثة: **إنّه ولو صرختُ واستغثتُ يصدُّ صلاتي.**

وقت التحدّث إلى الله، بل، حسب قول إرميا، **أن تضع** [النفسُ] **فمَها في التراب علّها يأتيها بعضٌ من رجاءٍ حاليّ (مراثي ٣/ ٢٩)**(٥)، محتملةً تطهيرها بصبر. والذي يقوم الآن بالعمل في النفس إنما هو الله؛ ولذلك لا تستطيع، هي، شيئًا. وبالنتيجة يتعذّر عليها تلاوة الصلاة وحضور الشعائر الإلهية بانتباه، أو مزاولة سائر الامور والمداولات الزمنية. ولا يحدث لها ذلك فحسب، بل غالبًا ما تنتاب ذاكرتها حالاتٌ من الشرود والنسيان العميق بحيث تقضي النفسُ فتراتٍ طويلةً لا تدري فيها ماذا صنعت أو في ما فكّرت ولا ماذا تصنع أو سوف تفعل، ولا تستطيع الانتباه، مهما ارادت، إلى ايٍّ شيء يحدث لها.

ملاشاة النفس

٢ - والسبب في ذلك أنه ما لم يتطهّر العقل من نوره، والارادة من عواطفها، والذاكرة، كذلك، من استدلالاتها ومعارفها، فلا بدّ، أيضًا، من أن تُلاشى النفسُ في جميع [قواها]؛ فيتمّ ما يصرّح به داود عن نفسه قائلاً: **لقد تلاشيتُ ولم أعلم. (مزمور ٧٣/ ٢٢)**. وهذا «اللا علم» يُقصَدُ به، هنا، حالات الجهل والنسيان في الذاكرة؛ وهذه الحالات من الشرود والنسيان يسبّبها الاختلاء الداخلي الذي فيه يأخذ التطلّع بمجامع النفس. فلكي تُعَدَّ النفسُ وتُكَيَّفَ قواها مع الحالة الإلهيّة من أجل الاتحاد الإلهيّ بالحبّ، لا بدّ لها أوّلاً من أن تُجذَبَ مع جميع

(٥) في الترجمة الحديثة: **ليَجعَلْ في التراب فمَه عسى أن يكونَ له أمل.**

قواها، في نور التطلّع، هذا النور الإلهيّ، الروحيّ والمظلم، وتُجَرَّدَ من جميع عواطف الخلائق ومعارفها؛ وهذا الامر يطول، عادةً، بنوعٍ فرديّ، حسب كثافة [النور][٦]. وكلَّما كان غمرُ النور النفسَ بسيطًا نقيًّا كلَّما أظلمَها [٧] وأفرغَها ولاشاها بخصوص معارفها وعواطفها الخاصة، إن في الامور السفليّة أو في الامور العلويّة. وكلَّما قلَّ غمرُ النفس بساطةً ونقاءً، كلَّما قلَّ حرمانُها وظلمتُها. وقد يبدو أمرًا لا يصدَّق القولُ إنَّ النور الفوطبيعي والإلهي كلَّما إزداد سطوعاً ونقاء زاد النفس إظلاماً؛ وكلَّما قلَّ سطوعه قلَّ إظلامُه. لكنّنا نجد [القولَ] ملائِمًا إن أخذنا بالإعتبار ما أيَّدَه سابقًا رأيُ الفيلسوف[٨] بأن الامور الفوطبيعية تبدو لعقلنا أكثر ظلمةً بمقدار ما هي في ذاتها أكثر وضوحًا وسطوعًا.

مثل النور الطبيعي

٣ - ولكي ندرك ذلك بوضوح أكبر، نضرب هنا مثل النور الطبيعي والشائع: نرى أنَّ شعاعَ الشمس الذي يدخل من النافذة، كلَّما كان أكثر صفاء ونقاء من الذرّات، كلَّما قلَّت رؤيته وضوحًا؛ وكلَّما حوى الهواء

---

(٦) لقد أضفنا كلمة نور إلى كثافة، توضيحًا لمعنى الجملة الأخيرة، وتناسقًا مع الجملة اللاحقة التي توضحها (ش.ر.).

(٧) أظلَمَ إظلامًا دخل وأدخَلَ في الظلام (ش.ر.).

(٨) يقصد به دائمًا أرسطو في كتابه **الماورائيات** ١،١.

مزيدًا من الذرّات والغبار، بدا [النور] للعين . والسبب في ذلك أنَّ النورَ ليس ما يُرى بحدّ ذاته، بل إنَّه الوسيلةُ التي بها تُرى سائر الاشياء التي يَغمرُها. وحينئذٍ يُرى النور أيضًا بفعل انعكاسه في الاشياء. وإن لم يقع عليها فلا مجال لرؤيته ولا لرؤية الاشياء؛ حتى إنَّه لو دخل نورُ الشمس من نافذة غرفةٍ واخترق نافذةً أخرى مقابلة مارًّا بوسط الغرفة، دون أن يصطدمَ بأيِّ شيء أو أن يجدَ في الهواء ذرّاتٍ ينعكس فيها، فلن يُرى الشعاعُ ولن تُضاءَ الغرفة أكثرَ من ذي قبل؛ بل بالعكس: إذا لاحظنا جيِّدًا نجد أنَّ الظلامَ أشدُّ حيث يوجد الشعاع، لأنَّه يخفِّف، نوعًا ما، من سطوع النور الآخر؛ أمَّا هو فلا يُرى، لأنَّه، كما قلنا، لا توجد أجسامٌ مرئيَّةٌ ينعكس فيها.

شعاع التطلّع

٤ – وهذا ما يعملُه في النفس شعاعُ التطلّع الإلهي، لا أكثر ولا أقلّ؛ فهو إذ يغمرها بنوره الإلهي، فإنَّه يفوق نورَها الطبيعي، ويُظلِمها به، ويحرمها من جميع المعارف والعواطف الطبيعية التي كانت تدركها سابقًا بواسطة النور الطبيعي. وهكذا، فهو لا يتركها في ظلام وحسب، بل خاوية، أيضًا، بحسب القوى والشهوات، الروحيّة منها والطبيعية؛ وبعد أن يتركَها على هذه الحالة، خاويةً ومظلمة، يُطهِّرُها وينيرُها بالنور الإلهي الروحي، دون أن تعيَ النفسُ المُنارَةُ إلّا انَّها في الظلمات، كما قلنا في الشعاع: بالرغم من وجوده في وسط الغرفة، فإذا كانَ نقيًّا ولم يجد ما يصدُمه، فلا يُرى. لكنَّ النفسَ، في هذا النور الروحي الذي يغمرُها،

عندما يجد ما ينعكسُ فيه ولو كان ذرّةً صغيرةً، فحالاً تراه؛ وعندما يَعرُضُ لإدراكها أمرٌ روحيٌّ يخصُّ الكمالَ أو النقصَ أو الحكمَ في ما هو خطأ أو صواب، تُدرِكُ بوضوحٍ أجلى من السابق، يوم كانت وسط تلك الظلمات، وتعرف، لا أكثر ولا أقلّ، أنَّ نورًا روحيًّا يغمرُها لكي تَسهُلَ عليها معرفةُ النقص الذي يعرضُ لها. شأنها في ذلك شأن النور الذي يكون، كما قلنا، مُظلِمًا في الغرفة: مع أنَّه لا يُرى، فإذا صدَفَ أن عبرت فيه يدٌ أو أيُّ شيء، فحالاً تُرى اليدُ، ويُعْرَفُ أنَّ نورَ الشمس كان هناك.

معرفة شاملة يسيرة

٥ - من هنا، بما أنَّ هذا النور الروحي بسيطٌ ونقيٌّ وشاملٌ جدًّا، لا يرتبط ولا يختصّ بأيِّ معقولٍ[٩] خاصّ، طبيعيّ أو إلهي - لأنَّه يفرِّغ قوى النفس من جميع هذه المدارك ويُلاشيها - فالنفسُ تعرف بشمولٍ واسع وسهولة كبيرة أيَّ أمرٍ عُلوي أو سُفلي يَعرضُ لها، وتسبر غورَه. لذلك يقول الرسول: **إنَّ الروحاني يَسبِرُ كلَّ شيء، حتى أغوارَ الله** (١قور ٢/ ١٠). ويُفهَمُ بهذه الحكمة الشاملة والبسيطة ما كان الروحُ القدس يقول بلسان الحكيم، أي بنقاوتها **تلج كلَّ شيء** (**حكمة** ٧/ ٢٤)[١٠]، لأنَّها لا تختصّ بأيِّ معقولٍ مُجَدَّد أو عاطفة خاصة. وتلك ميزة الروح المطهَّر والمجرَّد من كلِّ العواطف والمعقولات الخاصة، أنَّه بعدم تذوّقه وادراكه

---

(٩) أي مُدرَك بالعقل (ش.ر.).

(١٠) في الترجمة الحديثة: **فهي لطهارتها تخترق وتنفذ كلَّ شيء**

أيَّ شيء محدّد، وببقائه في خوائه وظلمته، يستوعب كلَّ شيء باستعدادٍ وافر، فيتحقَّق فيه قول القديس بولس: **لا شيء عندنا، ونحن نملك كلَّ شيء** (**٢قورش** ٦/ ١٠). فهذه الطوبى يستحقُّها مثل هذا الفقر بالروح (**متى** ٥/ ٣).

الفصل التاسع

كيف أنَّ هذا الليل يُظلِمُ الروحَ كي يضيئَه ويغمرَه بالنور.

تطهير الروح

١ - بقيَ علينا الآن أن نُبَيِّنَ كيف أنَّ هذا الليل لا يُظلِمُ الروحَ إلّا لكي يغمرَه بالنور في جميع الأمور؛ ولا يُذِلُّه ويجعلُه بائسًا إلّا لكي يعظِّمَه ويرفَعَه؛ ولا يُفقِرُه ويُفرِغُه من كلِّ تملُّك وعاطفة طبيعيّة، إلّا لكي يجعلَه قادرًا، بنوعٍ إلهي، على أن يتذوّقَ جميعَ الأشياء، العلوية والسفلية، ويتنعَّمَ بها بحرّية الروح الشاملة، في كلِّ شيء. وكما أنَّ العناصر الداخلة في تكوين المركَّبات والكائنات الطبيعيّة يناسبُها ألَّا تلتصقَ بها أيَّةُ ميزةٍ تختصّ باللون أو الرائحة أو الطعم، كي تشاركَ في تكوين جميع الطعوم والروائح والألوان، كذلك الروح يناسبُه أن يكونَ بسيطًا نقيًّا مجرّدًا من جميع أنواع العواطف الطبيعيّة، حاليةً كانت أم اعتياديّةً، كي يتسنّى له الاشتراك، بحرّيةٍ وبسعة الروح، في الحكمة الإلهيّة حيث يذوق، بفضلِ صفائه وبنوعٍ سامٍ رفيع، جميعَ الطعوم في كلِّ الأمور. وبدون هذا التطهير، لا يتمكّن الروح، في أيِّ حال، من الإحساس بكلِّ هذه الوفرة من العذوبات

الروحيّة، ومن تذوّق متعتها؛ إذ يكفي وجود عاطفةٍ واحدة أو تعلّقٍ حالي أو اعتيادي بشيء خاص كي لا يُحِسَّ ولا يذوقَ ولا ينالَ لطافة روحِ الحبِّ وطعمَه الحميم، وهو يحوي في ذاته، بنوعٍ سامٍ، كلَّ الطعوم.

تبدّل الذوق الروحي

٢ - وكما أنَّ بني إسرائيلَ بمجرَّد أن بَقِيَ لديهم تعلّقٌ بشيء واحد وتذكّرُ اللحوم والأطعمة التي كانوا قد ذاقوها في مصر (**خروج** ١٦/ ٣)، لم يتمكّنوا، بسبب ذلك، من تذوّق خبز الملائكة اللذيذ في الصحراء، ذلك المنّ الذي كان يحوي، كما يقول الكتاب المقدّس، عذوبةَ كلِّ الطعوم، ويتحوَّل إلى الطعم **الذي يطلبه كلُّ واحد** (**حكمة** ١٦/ ٢٠-٢١)[1]، كذلك الروح، لن يستطيع الوصول إلى تذوّق لذائذ روح الحرّية كما ترغب الارادة، ما دامَ يتأثَّر بأيّة عاطفة، حالية أو اعتياديّة، أو بمعقولاتٍ خاصة، أو بأيّة معرفة أخرى. والسبب في ذلك أنَّ عواطفَ الروح الكامل ومشاعرَه ومعارفَه، لكونها إلهيّةً، تختلفُ جدًّا عن الطبيعية نوعًا وجنسًا، وتسمو عليها؛ وبغية امتلاك هذه [الإلهيّة] حاليًّا واعتياديًّا، يجب بالطبع، طردُ الأخرى وملاشاتُها، تمامًا كما يفعل الضدّان اللذان لا يمكنهما الوجود معًا في كائنٍ واحد. وبناءً عليه، فلكي تبلغَ النفسُ هذه العظائم، يناسب جدًّا، بل من الضروري، أن يُلاشيَها ليلُ التطلّع المظلم

(١) في الترجمة الحديثة: **ناولتهم طعامَ الملائكة، خبزًا يوفِّرُ كلَّ لذّة ويلائمُ كلَّ ذوق،... ويتحوّلُ إلى ما شاء كلُّ واحد.**

ويُفنيَ، أوّلاً، دناياها، ويضعَها في ظلامٍ، جافةً، منقبضة، خاوية. لأنَّ النورَ الذي سيُعطى لها هو نورٌ إلهيٌّ سامٍ كلَّ السموّ، يفوقُ كلَّ نور طبيعيّ ولا يقع طبيعيًّا في العقل.

تطهير العقل والإرادة

٣ - ولكي يبلغَ العقلُ الاتِّحاد بهذا النور، فيصبح إلهيًّا في حال الكمال، ينبغي، أوّلاً، أن يُطَهَّرَ ويُلاشى في نوره الطبيعي، ويوضعَ فعليًّا في ظلامٍ، بواسطة هذا التطلّع المظلم. ومن المناسب أن تدومَ هذه الظلمة ما يكفي لتُطرَدَ وتُلاشى المَلَكَةُ التي اكتسبها [العقل] منذُ وقت طويل، مع طريقتها في الإدراك، ويَحِلَّ محلَّها ضياءُ النور الإلهي. وبقدر ما تكون قدرته السابقة على الإدراك طبيعيّةً، تكون الظلماتُ التي يُقاسيها [العقل]، هنا، حالكةً ورهيبةً وأليمةً جدًّا؛ وبما أنَّها تُحَسُّ في جوهر الروح العميق، فإنَّها تبدو ظلماتٍ جوهرية. [كذلك الإرادة] لا أكثر ولا أقل: فبما أنَّ عاطفةَ الحبّ التي ستُعطى لها في الاتِّحاد الإلهي بالحبّ، إلهيَّةٌ - وهي، من ثمَّةَ، روحيَّةٌ جدًّا، ورقيقةٌ ولطيفةٌ، وجوّانيّةٌ جدًّا، بحيث تفوقُ كلَّ عاطفة وشعورٍ في الإرادة، وكلَّ شهوةٍ فيها -، فلكي تتوصَّلَ الإرادةُ باتِّحادِ الحبّ، إلى الشعور بهاتين العاطفة واللذّة الإلهيَّتين، الساميتَين جدًّا فلا تقعان، طبيعيًّا، في الإرادة، وإلى تذوّقهما، ينبغي لها، أوّلاً، أن تُطهَّرَ وتُلاشى في عواطفها ومشاعرها كافةً، وتبقى جافةً منقبضة وقتًا يناسب مَلَكَةَ العواطف الطبيعيّة فيها، إنْ في الأمور الإلهيّة أو في الأمور البشرية؛

حتى إذا ما أُرهقت الإرادة وجفّت وأُعتِقَت تماماً، في نار هذا التطلّع الإلهي، من جميع أنواع الشياطين، - مثل **كبد حوت طوبيا على الجمر (طوبيا ٦/ ١٧)**، - حصلت على استعدادٍ نقيٍّ بسيط، وحلقٍ مُطهَّر سليم، لتشعرَ بلمسات الحبّ الإلهي، السامية والعابرة، وترى فيها ذاتَها قد تحوّلت بطريقة إلهيّة، بعد أن يكون قد طُرِدَ، كما قلنا، كلُّ ما كان فيها من معاكسات حاليّة واعتياديّة.

تزيّن النفس

٤ - ويجب أيضًا على النفس، في الاتّحاد المذكور الذي يعدّها له ويقودُها إليه هذا الليل المظلم، أن تمتلئَ وتتزيَّن بشيءٍ من البهاء المجيد في الاتصال بالله، الذي يحتوي على خيراتٍ لا تُحصى من اللذّات، تفوقُ كلَّ وفرةٍ تستطيع النفسُ بالطبيعة الحصول عليها؛ - ولا يمكن أن تحصلَ عليها في طبيعةٍ غايةً في الضعف والدنس، وفقًا لقول إشعيا: **ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، أعدّه** الخ... (٦٤/ ٣)[٢]. - لذلك كان لزامًا على النفس، أوّلاً، أن توضعَ في خواءٍ وفي فقرِ الروح، وتَطْهُرَ من كلِّ سَنَد وتعزية ومعرفة طبيعيّة تجاه كلّ الأمور العلويّة والسفليّة، حتى إذا ما أضحت خاويةً تصيرُ فقيرةً جدًّا بالروح، وتتعرّى من الإنسان القديم،

---

(٢) في الترجمة الحديثة: **منذ الأزل لم يسمعوا ولم يُصغوا، ولم ترَ عينٌ إلهًا ما خلاك يعمل للذين ينتظرونه.** ويظهر من مقابلة الترجمتين أنَّ المؤلّف يمزج بين نص إشعيا ونص بولس الرسول في (١ قور ٢، ٩) (ش.ر.).

لتعيشَ تلك الحياة الجديدة والسعيدة التي بلغتها بواسطة هذا الليل، أي حالة الاتِّحاد بالله.

تبدّل الإحساس

٥ - وكما يجب على النفس أن تكتسبَ، بشأن جميع الأمور الإلهيّة والإنسانيّة، إحساسًا عذبًا جدًّا لا يقع تحت الشعور الشائع، وعلمًا إلهيًّا وافرًا جدًّا لا يقع تحت معرفة النفس الطبيعية وشعورها - لأنَّها سترى [الأمور] بأعينٍ تختلفُ كلَّ الاختلاف عن السابقة، كما يختلف الروح عن الحسّ، والإلهي عن الإنساني - كذلك ينبغي للروح أن يُصبحَ نحيفًا محنَّطاً في الإحساس الطبيعي والعام، ويوضَعَ بواسطة هذا التطلّع التطهيريّ في قلقٍ وانقباض شديدين، وتصبحَ الذاكرةُ بعيدةً عن كلِّ معرفةٍ ودِّيَّةٍ هادئة، يصحبها شعورٌ داخلي ومزاجي بالابتعاد والاغتراب عن جميع الأشياء بحيث تبدو لها كلُّها غريبةً ومختلفةً عمّا اعتادت أن تكون. وبذلك يأخذ الليل بإخراج الروح من نهجه العادي والشائع في الإحساس بالأشياء، لينقله إلى الإحساس الإلهي بها، الغريب والبعيد عن كلِّ نهجٍ بشري. وهنا تعتقدُ النفسُ أنَّ الشدائدَ تُخرِجُها من ذاتها؛ ويساورها الشكُّ، مرّاتٍ أخرى، في أنَّ ما حصل لها سحرٌ أو غشيان؛ ويصيبها الدَهَشُ من الأشياء التي تراها وتسمعها، فتبدو لها غريبةً كلَّ الغرابة وغيرَ مألوفةٍ تلك الأمورُ التي كانت تزاولها سابقًا بشكل طبيعي؛ وسبب ذلك أنَّ النفسَ تبتعدُ شيئًا فشيئًا عن الإحساس العام بالأشياء والمعرفة العامة لها،

حتى إذا ما تلاشت في هذا [الإحساس الإنساني] تبقى مطبوعةً بالإلهي الذي يتمّ في الحياة الأخرى أكثر مِمّا في هذه.

إضطراب من أجل السلام

٦ - كلُّ هذه التطهيرات التي تُخزنُ الروحَ كي يولَدَ من جديد في حياة الروح، تحت وطأة ذلك التأثير الإلهي، تحتملُها النفسُ فتلد بهذه الآلام روحَ الخلاص. فتتمّ آية إشعيا القائل: **أمام وجهك، يا ربّ، حَبِلْنا، وتضوّرْنا بآلام المخاض، وولدنا روحَ الخلاص** (٢٦/١٧- ١٨)[٣]. أضف إلى ذلك أنَّ النفسَ، إذ تتهيَّأُ، بواسطة هذا الليل التطلُّعيّ، لبلوغ الطمأنينة والسلام الداخلي اللذيذ جدًّا الذي، كما تقول الكنيسة[٤]، يفوقُ كلَّ حسّ، ينبغي لها أن تتخلّى عن سلامها الأوَّل؛ - ولو بدا للنفس المذكورة أنه سلام لكونه يُلائم ذوقها، فهو ليس بسلامٍ لأنَّها مشوبةٌ بالنقائص؛ بل إنَّه سلامان: ترى أنَّها مليئةٌ بغزارة [الخيرات] الروحية فتخالُ أنَّها قد اكتسبت سلام الحسّ وسلام الروح معًا. - وبما أنَّها ما زالت، كما قلنا، مشوبةً بالنقص، فيجب أن تُطهَّرَ، أوَّلاً، من سلام الحسّ والروح هذا،

---

(٣) في الترجمة الحديثة: **هكذا كنّا أمامك يا ربّ. حَبِلْنا وتضوّرْنا وكأنّنا وَلَدْنا ريحًا، فلم نجعل خلاصًا في الأرض.** نلاحظ أنَّ المؤلّف يسوق الآية بتصرّف، إمّا انطلاقًا من للترجمة المعروفة في زمانه، إمّا لأنّه لا يتورّع عن التصرّف بالآيات لتوافق الفكرة المعروضة (ش.ر.).

(٤) صلاة الأحد الثالث من زمن المجيء **إقتباسًا** عن الرسالة إلى أهل **فيليبّي** ٤/ ٧: **سلام الله الذي يفوق كلّ إدراك.**

وتُقصى عنه وتضطرب فيه. وهذا ما خَبِرَه إرميا وبكاه في النص الذي سبق وأوردناه لنشرح نكبات هذا الليل القاسي، حيث يقول: **أُخْلِيَتْ نفسي من السلام وأُقصيت عنه (مراثي ٣/ ١٧)**[٥].

نحيبٌ ودموع

٧ - إنَّه لَاضطرابٌ أليمٌ، مصدرُه ما في داخل النفس من شكوكٍ وتخيّلات وصراعات كثيرة؛ ومع تصوُّرِها مساوئَها وإحساسِها بها، تخشى، في هذا الاضطراب، أن تكون هالكةً وقد نضبت خيراتُها إلى الأبد. فيُصيبها في روحها، من جرّاء ذلك، عذابٌ ونحيبٌ عميقان يُحدثان فيها زأراتٍ وجأراتٍ روحية قويّة، تلفظها بفمها أحيانًا، وتحوّلها النفس إلى دموعٍ عندما تملك القوّةَ والطاقة على ذلك، رغم أنَّها نادرًا ما تنعم بهذا الفرج. وداود الذي اختبر الامر حقَّ الاختبار، يشرحه شرحًا وافيًا في أحد المزامير قائلاً: **تكدّرْتُ وانسحقتُ كثيرًا، زأَرْتُ بأنين قلبي (مزمور ٣٨/ ٩)**[٦]. وهذا الزئير موجعٌ جدًّا حتى إنَّ النفسَ، مع تذكّرها الحادّ والمفاجىء لهذه المساوئ التي تكتنفها، تهتاج عواطفها أحياناً وتحيطها بالألم والعذاب؛ فلا أعرف كيف أُفهمُه إلَّا باستعارة كلام النبي أيّوب، حينما كان في الشدّة عينها: **وزئيري ينصبُّ كالأمواه (٣/ ٢٤)**. وبالفعل، فكما تُحدِث الأمواهُ فيضاناتٍ تملأ كلَّ شيء وتغرقه، كذلك هذا الزئير أو الشعور

(٥) في الترجمة الحديثة: **أُبعدَت نفسي عن السلام ونسيتُ الهناء.**
(٦) في الترجمة الحديثة: **وَهَنْتُ جدًّا وانسَحَقْتُ، ومن زئير قلبي زَمْجَرْتُ.**

يشتدّ، أحيانًا، في النفس فيُغرقُها ويخترقها كلَّها، ويملأُ عواطفَها العميقة وقدراتها ضيقاتٍ وأوجاعًا روحيّةً تفوقُ كلَّ مبالَغة.

ليلٌ يحجب النور

٨ - هذا ما يعمله في النفس هذا الليل الذي يحجب آمال نور النهار. وفي هذا الصدد، يضيف النبي أيّوب قوله: **في الليل، نَخَرَت الأوجاعُ فمي والذين يأكلونني لا ينامون** (٣٠/ ١٧)[٧]. فالفم يعني هنا الارادة التي تنخرها هذه الأوجاع، فلا تكفّ عن تمزيق النفس؛ **ولا تنام**، لأنَّ الشكوك والهواجس التي تخترق النفس لا تنام أبدًا.

إختبارٌ قاسٍ

٩ - إنَّ هذه الحرب وهذا الصراع لَعميقان لأنَّ السلام الذي ترجوه [النفس] سيكونُ عميقًا جدًّا؛ والوجع الروحي حميمٌ وحادٌّ جدًّا، لأنَّ الحبَّ الذي ستحصلُ عليه سيكون، هو أيضًا، حميمًا ومصفًّى جدًّا؛ فبقدر ما يُرجى أن يكونَ العملُ ويبقى حميمًا ومُتْقَنًا، بقدر ذلك سيكونُ الجهدُ حميمًا ومُتْقَنًا ونقيًّا؛ ويجب أن يكونَ [الجهدُ] قويًّا بمقدار ما يجب أن يكونَ البناء منيعًا. ولهذا يقول **أيّوب: تذبلُ النفس في ذاتها، وتغلي أحشاؤها بدون أيِّ رجاء** (٣٠/ ١٦و ٢٧)[٨].

---

(٧) في الترجمة الحديثة: **في الليل يَنخُرُ هذا عظامي من فوقي، والذين يَقرِضونني لا ينامون.**

(٨) في الترجمة الحديثة: **والآن تنهال نفسي عليَّ؛ فارت أحشائي ولم تهدأ.**

وبالتحديد، بما أنَّ النفسَ السائرة نحو حالة الكمال، بواسطة هذا الليل المطهِّر، ستمتلك خيراتٍ لا تُحصى من المواهب والفضائل وتنعمُ بها، إن بحسب جوهرها أو بحسب قواها، فعليها، أوَّلاً، وبصورة عامة، أن ترى وتدركَ بالإحساس أنَّها غريبةٌ عن كلِّ هذه الخيرات، محرومةٌ وخاليةٌ منها، ومفتقرةٌ إليها، وتخالَ أنَّها بعيدةٌ كلَّ البعد عنها جميعاً فلا يمكن إقناعُها أنَّها قد تنالها، بل إنَّ كلَّ خير قد ولّى عنها. وهذا ما يوضحه، أيضًا، إرميا في النص المذكور قائلاً: **لقد نسيتُ الخيرات** (**مراثي** ٣/ ١٧).

سؤال واستغراب

١٠ - ولْنَرَ، الآن، لماذا يسبِّبُ نورُ التطلّع هذا للنفس، في بادىء الأمر، وعندما يغمرها، مفاعيلَ مبرِّحةً وقاسيةً كما قلنا سابقًا، مع أنَّه عذبٌ جدًّا ومحبَّبٌ إليها بحيث لا تبغي أيَّ شيء سواه؛ فهذا النور، كما قيل أعلاه، هو ذاته الذي ستتَّحد النفسُ به، وفيه سوف تجدُ كلَّ الخيرات التي تَنشدُها في حال الكمال.

العلّة في النفس

١١ - على هذا الشك، من السهل الإجابة بتكرار ما شرحناه جزئيًّا، وهو أنْ لا شيءَ في التطلّع والفيض الإلهي يمكنه أن يسبِّبَ بذاته

عذابًا، بل بالعكس، كثيرًا من العذوبة واللذّة، كما سيُقال لاحقًا؛ بل علَّةُ ذلك هو ما في النفس من وهنٍ ونقصٍ وأحوالٍ تعاكس تقبُّلَ تلك [المفاعيل]: فعندما يغمرها النور بها يجعلها تتألّم بالطريقة التي ذكرناها.

الفصل العاشر

يُشرَحُ أصل هذا التطهير بواسطة مقارنة.

مثل النار والحطب

١ - بغيةَ المزيد في إيضاح ما قيلَ وما سيُقال، تجدرُ الملاحظة أنَّ هذا العلمَ أو النورَ الإلهي، التطهيري والودّي، الذي نحن بصدده، يكون شأنُه مع النفس، حين يطهِّرُها ويُعِدُّها ليُوحِّدَها بذاته توحيدًا كاملاً، شأنَ النار مع الحطب حين تحوِّلُه إلى ذاتها. فعندما تَشُبُّ النارُ المادّيّة في الحطب، تبدأ، أوّلاً، بتجفيفه فتطرد منه الرطوبة وتجعله يفرز الماء الذي يحويه؛ ثمَّ تبدِّلُه أسودَ قاتمًا، مشوَّهًا، كريهَ الرائحة؛ وإذ تجفِّفُه شيئًا فشيئًا، تُخرِجُه إلى النور طاردةً عنه كلَّ العوارض القبيحة والمظلمة المضادّة للنار؛ وأخيرًا، إذ تبدأ تُلهِبُه من الخارج وتسخِّنُه، تحوِّلُه إلى ذاتها وتجعلُه بهيًّا جدًّا كالنار نفسها. وعند هذا الحدّ، لا يكون للحطب أيُّ فعلٍ خاصّ أو انفعال، ما عدا الثقل والكميّة اللذين يفوقان ثقلَ النار وكمِّيّتها - لأنَّ الحطبَ اكتسبَ خصائص النار وأفعالَها: وبما أنَّ [النار] جافّة، [فالحطب] صار جافًّا؛ النار حارّة، فالحطب حارّ؛ وهو مشعٌّ ويُنير، وأخفُّ كثيرًا من ذي قبل: فقد حقَّقت فيه النار هذه الخصائص والمفاعيل.

كشف قباحة النفس

٢ - وبالطريقة عينها يجب أن نتكلّم على هذه النار الإلهيّة، نار الحبّ التطلّعي، التي تطهِّر النفسَ من جميع أعراضها المضادّة، قبل أن توحِّدَها بذاتها وتحوِّلَها إليها. فهي تطرد خارجًا بشاعات النفس، وتقلبُها سوداءَ قاتمةً، فتبدو أشنَع من قبلُ، وأقبحَ وأكره من عادتها. وينبري هذا التطهير الإلهي يقلِّب جميعَ الشرور والأخلاط الفاسدة التي لم تكن النفس تلاحظها لتَجذُّرها واستقرارها فيها؛ ولم تكن تُدرِك أنَّ فيها شرًّا بهذا القدر. وإذ ينير النفسَ، الآن، هذا النورُ المظلم، نورُ التطلّع الإلهي، فهي تُدرِك مساوئَها بوضوحٍ أجلى، لأنَّها توضَع تحت نظرها لِتُخْرَجَ وتُلاشى؛ ومع أنَّ النفسَ ليست أقبحَ من السابق، لا في ذاتها ولا أمام الله، فإذ ترى الآن في ذاتها ما لم تكن تراه قبلاً، يبدو لها واضحًا أنَّها تستحقّ لا أن يَنظرَ اللهُ إليها، بل أن يكرَهَها؛ وإنَّه سيَكرهُها فعلاً. فاستنادًا إلى هذه المقارنة، يمكننا أن نُدرِكَ، الآن، أمورًا كثيرة تتعلَّقُ بما نقول وما نُزمِع على قوله.

النور أو الحكمة

٣ - أوَّلاً: يمكننا أن نُدرِكَ كيف أنَّ النورَ نفسه والحكمة الودّية التي ستتَّحد بالنفس وتحوِّلُها إلى ذاتها، هي عينُها التي كانت، في البدء، تطهِّرُها وتُهَيِّئُها، تمامًا كما أنَّ النارَ التي تحوِّلُ الحطبَ إلى ذاتها وتندمج فيه هي عينُها التي كانت في البدء تعدُّه للمفعول نفسه.

شدائد من ضعف النفس

٤ - ثانيًا: سنلاحظ كيف أنَّ هذه الشدائد التي تعانيها النفسُ لا تنجمُ عن الحكمة المذكورة، لأن النفس، كما يقول الحكيم، **أوتيت مع الحكمة كلَّ الخيرات معًا (حكمة ٧/ ١١)**[١]، بل عن ضعف النفس ونقصها، بحيث تعجز، بدون هذا التطهير، عن تلقِّي نورها الإلهي وعذوبتها ولذّتها، فتتألّم لذلك كثيرًا؛ شأنُها شأنُ الحطب: لا يمكنه أن يتحوَّلَ فور اقترابه من النار ما لم يكن مُهَيَّأً لذلك. هذا ما يُثبته ابن سيراخ، بوصفه ما قاساه، كي يصلَ إلى الاتّحاد بالحكمة والتنعُّم بها قائلاً: **لقد احتضرتْ نفسي من أجلها، واضطربت أحشائي في طلبها؛ لذلكَ سأقتني قِنيةً حسنة (ابن سيراخ ٥١/ ١٩ و ٢١)**[٢].

عذاب المطهر

٥ - ثالثا: نستطيع، استطرادًا، أن نستنتجَ ممّا تقدّم طريقةَ معاناة أهل المطهر: فمهما عولجوا بالنار، فلن تنالَ النارُ منهم إن لم يكن فيهم نقيصةٌ يتعذَّبون بها تكون مادةً تُحرقها؛ وعند زوال النار لا يبقى لها ما تُضرمه. كذلك في موضوعنا: فعند زوال النقائص يزول عذابُ النفس ويبقى تنعُّمُها.

---

(١) في الترجمة الحديثة: **فأتتني معها جميع الخيرات.**

(٢) في الترجمة الحديثة: **جاهدت نفسي لأجلها؛ تحرّكت أحشائي في طلبها، فلذلك اقتنيتُ اقتناءً صالحًا.**

يتابع مقارنة النفس بالحطب

٦ - رابعًا: سَنستنتج من ذلك كيف أنَّ النفسَ كلَّما تطهَّرت وتنقَّت بواسطة نار الحبّ هذه، كلَّما اضطرمت بالحبّ؛ شأنُها شأنُ الحطب: فحسب طريقة تهيئِه ومدَّته تزداد حرارتُه. غير أنَّ النفسَ لا تحسُّ دومًا بهذا الإضطرام بالحبّ، بل بعض الأحيان فقط، عندما يكفُّ التطلّع عن غمرها بشدّة، فينكشف لها ما يُعمَل فيها فتراه وتنعمُ به. وكما يبدو أنَّ العملَ يتوقَّف ويُسحبُ الحديدُ من الأتون ليُفحَصَ، نوعًا ما، ما تمَّ فيه، كذلك يمكن للنفس أن ترى في ذاتها خيرًا لم تكن تراه في أثناء العمل. كذلك، أيضًا، عندما تكفّ الشعلة عن تجريح الحطب، تُفسِحُ في المجال ليُرى جيّداً مقدارُ اشتعاله.

عودة الألم

٧ - خامسًا: نستنتج أيضًا من هذه المقارنة صحَّةَ ما قيل سابقًا، أي إنَّ النفسَ، بعد هذه التعزيات، تعود فتتألّم بشدّةٍ أعظم وأرهف من ذي قبل. لأنَّها، بعد ذاك الكشف الذي يحصل بانتهاء تطهير النقائص من الخارج، تعودُ نارُ الحبّ تَجرَحُ ما سَيُحرَقُ ويُنَقَّى من الداخل. وعندئذٍ كلَّما أضعفت النفسُ نقائصَها الأكثر عمقًا ورهافةً وروحانيةً، والأكثر تجذّرًا في داخلها، كلَّما صار تألُّم النفس أكثر عمقاً ورهافة وروحانية. مثلها في ذلك مثل الحطب: عندما تنفذ النار إلى داخله تهيئه، في عمق داخله، بقوّةٍ أعظم وأجيجٍ أشدّ، لتستوليَ عليه.

مرارة

٨ - سادسًا: من هنا سَيُعرف، أيضًا، السببُ الذي يوحي للنفس بأنَّها فقدت كلَّ خير، وأنَّها مليئةٌ شرورًا، وهو كونُها لا تذوق، في هذا الوقت، إلَّا مرارة؛ كالحطب، أيضًا، لا يصله هواءٌ أو أيُّ شيءٍ آخر سوى النار تلتهمه. غير أنَّ النفسَ، بعد نوالها كشوفاتٍ جديدةً كالسابقة، تتنعَّم في أعماقها، لأنَّ التطهير بلغ الآن إلى أعماقها.

جذرٌ يُنَغِّصُ فرحَها

٩ - سابعًا: ونستنتج أنَّ النفسَ، بالرغم من سعة تنعُّمِها خلال هذه الفترات حتى ليبدو لها، أحيانًا، كما قلنا، أنَّ عذاباتها لن تعودَ أبدًا، فمع ذلك، وحينما توشكُ [العذابات] أن تعود - هذا إذا تنبَّهت النفسُ له، وأحيانًا تتنبَّه فعلاً -، لا يفوتُها أن تشعرَ ببقاء جَذْرٍ يمنع عنها تمامَ فرحها، لأنَّه بات مهدِّدًا بالعودة ليغمرَها؛ وعند ذاك، يعود حالاً. وأخيرًا، وإزاء ما تمَّ تطهيره، لا يمكن أن يخفى على النفس ما يقتضي تطهيره وإنارته في العمق؛ وهذا ما يتمّ أيضًا في الحطب: فالفرق يبدو واضحًا جدًّا بين ما صار مُطَهَّرًا وما هو داخلي يحتاج إلى إنارة؛ وعندما يعود هذا التطهير ليغمرَ أعماقَ النفس، فلا عجب، إذًا، إن ظنَّت أنَّها فقدت ثانيةً كلَّ خير، وأن لا أملَ لها في استرجاع الخيرات؛ لأنَّها حين أصابتها الآلام في الصميم، عَمِيَت عن كلِّ خيرٍ خارجي.

١٠ - وبوضع هذه المقارنة نصبَ أعيننا، مع اللمحة التي أُعطِيَت عن هذا الليل المظلم وخصائصه الرهيبة، في شرح البيت الأوَّل من الأنشودة الأولى، يجدر بنا أن ندعَ أمور النفس المحزنة هذه، ونبدأ بمعالجة ثمرةِ دموعها وخصائصها السعيدة، التي يبدأ إنشادُها في البيت الثاني هذا:

مَشوقَةً بالحبّ مضطرمة

الفصل الحادي عشر

ولعٌ شديد بحبِّ الله يصيب النفس نتيجة هذه الضيقات القاسية.

جرح الحبّ

١- توضِحُ النفسُ، في هذا البيت الأوّل، أنَّ نارَ الحبِّ التي تحدّثنا عنها تتأجّج فيها، وسط ليل التطلّع المؤلم هذا، مثل النار في الحطب،(١). ورغمَ أنَّ هذا الاضطرام شبيهٌ، نوعًا ما، بالذي يجري في جزء النفس الحسّيّ، كما شرحنا سابقًا، غير أنَّه يختلف جدًّا عنه اختلاف النفس عن الجسد أو الجزء الروحيّ عن الحسّيّ. لأنَّ ما يجري الآن هو اضطرامُ حبٍّ في الروح، حيث تشعر النفس، في غمرة هذه الضيقات المظلمة، بأنَّ حبًّا إلهيًّا عنيفًا ومتّقدًا قد جرحها جرحًا نافذًا، مصحوبًا بإحساسٍ بالله وحدسٍ

(١) يوضِحُ شرحُ البيت الأوّل بأسلوبٍ غنائي شدَّة الحبّ واندفاعه في الليل في الفصول ١١-١٣، حيث يمزج الكاتب خِبراتٍ مختلفة ومفاهيم يصعب تفصيلها، وموضوعُها إنفجار الحبّ المكبوت بشكلٍ ولعٍ بالله وشوقٍ وجوعٍ وعطشٍ إليه. وهذا الحبّ ينمو بتنامي التطهير وبموازاته. ووسط اليبوسة والظلمة تسطع بعضُ الأنوار وتتّقد أشواق الحبّ مُستبِقَةً ثمار الاتّحاد. (عن الناشر EDS ص ٥٠٥).

له، ولكن دون أن تُدركَ النفسُ شيئًا محدَّدًا لأنَّ العقلَ، كما قلنا، لا يزال في ظلمة.

هيام بالحبّ

٢- يشعر الروح، هنا، بأنّه هائمٌ بحبٍّ عظيم، لأنَّ هذا الاضطرام الروحيَّ يخلق فيه الهيام؛ وبما أنَّ هذا الحبَّ مُفاضٌ فهو منفعلٌ أكثر منه فاعلاً، ويولِّد في النفس هيامَ حبّ عنيفًا يحوي شيئًا من الاتّحاد بالله، ويشاطره بعضًا من خصائصه التي تنطبع في النفس انفعاليًّا كونها أعمالَ الله أكثر ممّا هي أعمالُ النفس؛ وبالرغم من أنَّ النفسَ هنا لا تقومُ إلَّا بإعطاء الموافقة، إلَّا أنَّ حرارةَ الحبّ وقوّتَه وطبيعتَه وهيامَه، أو اضطرامَه كما تدعوه النفس هنا، لا يثبّتُها في النفس إلَّا حبُّ الله الذي يتَّحد بها. وبقدر ما تكون النفس قد قمعت جميعَ شهواتها وسَلَبتها وجعلتها عاجزةً عن تذوّق أيِّ شيء سماوي أو أرضي، بقدر ذلك يجد ذاك الحبُّ في النفس مكانًا واستعدادًا ليتَّحدَ بها ويجرحَها.

فِطام من أجل الحبّ

٣- ويتمّ الأمرُ بصورةٍ مدهشة في هذا التطهّر المظلم، كما قيل سابقًا، لأنَّ الله يُبقي الأذواق مفطومةً ومختليةً جدًّا فلا تستطيع تذوّق أيِّ شيء تطلبه. ويقوم الله بكلِّ ذلك فيضعُها على حِدَةٍ، مختليةً لأجل ذاته، كي تتشدَّدَ النفسُ وتصبحَ أكثر استعدادًا لتقبّل هذا الاتّحاد القويّ بالله بالحبّ، الذي يبدأ الله يمنحها إيّاه، بالوسيلة المطهِّرة المذكورة؛ وفي [هذا

الاتّحاد] يجب على النفس أن تحبَّ حبًّا شديدًا بجميع طاقاتها وشهواتها الروحية والحسّيّة. ويتعذَّر حصول ذلك إن تلهّت [الشهوات] بتذوّق شيء آخر. ولكي يستطيع أن ينالَ قوّةَ الحبّ الكامنة في هذا الاتّحاد بالله يقول داود لله: **قوّتي حفظتُها لك** (**مزمور** ٥٨/ ١٠)[٢]؛ أي كلَّ أُهبتي وشهواتي وطاقات قواي، رافضًا استعمال فعلِها أو ذوقِها في شيءٍ آخر خارجًا عنك.

الوصية الأولى

٤- وبناءً عليه، يمكننا، بطريقةٍ ما، أن نقدِّرَ ما أعظمَ وأشدَّ ما يكون هذا الاضطرام بالحبّ في الروح حيث يُبقي الله قدرات النفس وقواها وشهواتِها، الروحيَّة منها والحسّيَّة، في خلوةٍ، كي يُشغِلَ هذا التناغُم قدراتِها وطاقاتها في هذا الحبّ، فيتمّم حقًّا الوصية الأولى التي لا تترك شيئًا في الانسان ولا تستثني شيئًا منه في هذا الحبّ، فتقول: **أحبب الربَّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ ذهنك، وكلّ نفسك، وكلّ قدرتك** (**تثنية** ٦/ ٥).

شهوة مَشوَقَةٌ لجوج

٥- وإذ تكون، هنا، جميعُ شهوات النفس وقدراتُها مختليةً في وسط هذا الاضطرام بالحبّ، بينما النفسُ، في كلٍّ منها جريحٌ مخبولة

---

(٢) في الترجمة الحديثة: **أنتَ عِزّي وإليكَ أتطلّع**؛ لكنَّ الترجمة الحرفية أقرب إلى فكرة الكاتب المعروضة سابقًا (ش.ر.).

وهائمة، فكيف نتصوَّر أن تكون الحركات والردّات في جميع هذه القدرات والشهوات التي ترى ذاتها مضطرمةً ومجروحةً بحبٍّ شديد لا تملكه ولا ترضاه، وتعاني الظلمة والشك؟ لا شكَّ في إنَّها **تتضوَّر جوعًا كالكلاب**، التي يقول عنها داود (**مزمور** ٥٨/١٥-١٦)، **إنَّها تطوف في المدينة؛ وإذ ترى أنَّها جائعةٌ** إلى هذا الحبِّ **تهرُّ وتنوحُ**[٣]. لأنَّ لمسةَ هذا الحبِّ، أي النار الإلهيّة، تجفِّف الروح جفافًا، وتضرم الشهوات إضرامًا لتروِّيَ عطشَه إلى هذا الحبِّ الإلهي، حتى إنَّه يدور على ذاته ألف دورة ويتوق إلى الله بألفِ شكلٍ وطريقةٍ، وبشهوةٍ مَشوقَةٍ لَجوج. وهذا ما يوضحه داود جيِّدًا في أحد المزامير قائلاً: **ظمئت نفسي إليك، وبكم من الطرائق تاق جسدي إليك!** أي بالرغبات (**مزمور** ٦٣/ ٢). وتقول ترجمةٌ أخرى: **إليك ظمئت نفسي، ونفسي تذوبُ أو تموت من أجلك.**

عذاب متنوِّع

٦- ولهذا السبب تقول النفسُ في البيت المذكور: **مَشوقَة بلهفات الحبّ**، ولا تقول **مَشوقَةٌ بلهفة الحبّ مضطرمة**؛ ففي جميع الأمور والأفكار التي تراودها، وفي جميع الشؤون والأشياء التي تَعرضُ لها، تحبُّ بطرائق عديدة، وتتشوَّقُ، وتكابد في هذا الشوق، أيضًا على هذا النحو، بأنواعٍ كثيرة، في كلٍّ

---

(٣) في الترجمة الحديثة: **كالكلاب ينبحون، وفي المدينة يطوفون. وفي طلب الطعام يتشتَّون، وإن لم يشبعوا يُدَمدِمون.**

زمانٍ ومكان، دون أن تجدَ الراحة في شيء؛ بل تشعر بهذه اللهفة في الجرح الملتهب، كما يوضحه النبي أيّوب قائلاً:

كما يشتاقُ العبدُ إلى الظلّ والأجيرُ إلى نهاية عمله،
هكذا قضيتُ الأشهرَ الخالية، وعددتُ لي ليالِيَ طويلةً شاقَّة.
إذا اضّجعتُ قلت: «متى أقوم؟». ثُمَّ أنتظرُ المساءَ،
وأشبعُ أوجاعًا حتى ظلمات الليل (أيّوب ٧/ ٢-٤).

فكلُّ شيءٍ يضايقُ هذه النفس، فلا تطيق ذاتَها، ولا السماء ولا الأرض، وتغمرها الأوجاعُ حتى حلول الظلمات كما يقول أيّوب؛ وبالتعبير الروحي يعني، هنا، أنَّها تنتظرُ وتتألَّم دون أن تتعزَّى بأيِّ رجاء في أيِّ نورٍ أو خيرٍ روحيٍّ؛ وهذا ما تقاسيه النفس هنا. وينتج عن ذلك ازديادُ عذاب النفس ولهفتها في هذا الاضطرام بالحبّ، لأنَّه يتضاعفُ من جهتين: الأولى من جهة الظلمات الروحيّة التي ترى النفسَ ذاتَها غارقةً فيها، وتحزنُها بشكوكها ومخاوفها؛ والثانية من جهة حبِّ الله الذي يُلهبُها ويحثُّها، وبواسطة جرح الحبِّ الذي جرحَها، يُخيفُها بنوعٍ عجيب.

تلازم الشقاء والحبّ

٧- عن هذين النوعين من العذاب، في مثل هذا الوقت، يقول أشعيا موضحًا: **نفسي في الليل اشتاقتكَ**، أي في الشقاء؛ وهذا أوَّل نوعٍ من العذاب، من جهة هذا الليل المظلم. ويُردف قائلاً: **ولكن بروحي في**

أحشائي، حتى الصبحِ أظلُّ ساهرةً لأجلك (**أشعيا** ٢٦/ ٩)[٤]. وهذا النوع الثاني من العذاب يلقيه الحبُّ، بالشوق واللهفة، في أحشاء الروح، التي هي العواطف الروحيّة.

رفقة وقوّة

بيدَ أنَّ النفسَ، وسط هذه العذابات المظلمة والودّية، تشعرُ بأنَّ أحدًا يرافقها، وبقوَّةٍ في داخلها، يرافقها ويقوّيها حتى إذا ما زال عنها ثقل هذه الظلمة الكثيفة، شعرت أحيانًا كثيرةً بأنَّها وحيدةٌ خاويةٌ ضعيفة. والسبب في ذلك أنَّ هاتين القوّة والفعالية كانت تهبهما وتدفقهما، فيها، انفعاليًّا، نارُ الحبِّ المظلم التي كانت تغمرُ النفسَ؛ فحينما تكفُّ [النار] عن غمرها، تذهبُ عنها الظلمة مع قوّة الحبِّ وحرارته.

---

(٤) في الترجمة الحديثة: **نفسي في الليل اشتاقتك، وروحي في داخلي تبتكرُ إليك.**

الفصل الثاني عشر

هذا الليل الرهيب هو مطهرٌ تنيرُ فيه الحكمةُ الإلهيةُ الناسَ في الأرض بالإنارة نفسها التي تنيرُ بها وتطهّرُ الملائكة في السماء.

تطهير بالنار والحبّ

١- نُلاحِظُ ممّا تَقدَّمَ أنَّ نارَ الحبِّ، في هذا الليل المظلم، كما تطهّر النفسَ في الظلمة، كذلك في الظلمة تضرمُها. ونُلاحِظُ أيضًا أنَّه كما تُطَهَّرُ الأرواحُ في الحياة الأخرى بنارٍ مظلمةٍ ماديّة، كذلك تُطَهَّرُ في هذه الحياة وتُنَقَّى بنارٍ ودِّيّةٍ مظلمةٍ روحيّة. والفرقُ بين الحالتين أنَّ [الأرواحَ]، هناك، تَتَطَهَّرُ بالنار، أمَّا هنا فبالحبِّ، وحده، تتنقَّى وتستنير. وهذا الحبُّ طلبَه داود حينما قال: **قلبًا نقيًّا أُخلق فيَّ، يا الله** (**مزمور** ٥١/ ١٢). لأنَّ نقاوةَ القلب إنَّما هي حبُّ الله ونعمتُه. وقد دعا مخلِّصُنا **أنقياءَ القلوب سعداء**، (**متى** ٥/ ٨) أو بكلامٍ آخر مشغوفين، إذ لا سعادةَ إلَّا بالحبّ.

يفيض حبًّا وحكمة

٢- أمّا تطهير النفس واستنارتها بنار الحكمة الودّيّة هذه فيوضِحُها إرميا قائلاً: **أَنْزَلَ نارًا في عظامي وعلَّمني (مراثي ١/ ١٣)**. (فالله فعلاً لا يَهَبُ حكمةً صوفيَّةً بدون حبّ، لأنَّ الحبَّ نفسَه يفيضُها). وداود يقول: **إنَّ حكمةَ الله فضَّةٌ مُمَحَّصَةٌ بالنار، (مزمور ١١/ ٧)**، أي في نارِ حبٍّ مُطَهِّرةً. لأنَّ هذا التطلّع المظلم يفيضُ سويَّةً في النفس حبًّا وحكمةً، وعلى كلٍّ واحدٍ وفقًا لسعته وحاجته، فينيرُ النفسَ ويُطهِّرُها من جهالاتها، كما يقول ابن سيراخ أنْ قد حصلَ له شخصيًّا **(ابن سيراخ ٥١/١٩-٢٠)**[1].

شعاعُ الشمس

٣- نستنتجُ أيضًا من ذلك أنَّ هذه النفوس تُطهِّرُها وتنيرُها حكمةُ الله عينُها التي تُطهِّرُ الملائكة من جهلهم وتعلِّمهم وتُنيرُهم في ما لا يعلمون، فتفيضُ من الله على المراتب الأولى حتى المراتب الأخيرة، ومنها على الناس. لذلك يُقال في الكتاب المقدَّس إنَّ جميعَ أعمالِ الملائكة وإيحاءاتهم هي، بحقٍّ وبنوعٍ خاص، من صنع الله والملائكة على السواء؛ لأنَّ اللهَ يرسلُها، عادةً، بواسطتهم، فينقلُها بعضُهم إلى بعضٍ بدون إبطاء، تمامًا كما يخترقُ شعاعُ الشمسِ ألواحًا عديدةً من الزجاج متناسقةً في ما بينها. ومع أنَّ

---

(١) نوردُ هنا الآيات التي يُلمِحُ إليها الكاتب: **جاهدتُ نفسي لأجلها، ومارستُ الشريعةَ بدقَّةٍ بالغة. ومددتُ يَدَيَّ إلى العلاء وبكيتُ على جهالاتي. وجُهت نفسي إليها، وبالطهارة وجدتُها، ومعها ملكت الإدراكَ منذ البدء.**

الشعاعَ يخترقُ، فعلاً، جميع تلك الألواح بقوّته الخاصة، إلّا أنَّ كلَّ لوحٍ يرسلُ الشعاعَ ويفيضُه في اللوح الآخير مضيفًا إليه تبديلاً حسب طبيعة اللوح، يخفِّفُ أو يزيدُ من وضوح الشعاع حسب قرب اللوح من الشمس أو بعده عنها.

إنارة حسب الحالة

٤- ينتجُ عن ذلك أنَّ الأرواحَ العليا والدُنيا، بقدر ما تكون قريبةً من الله، بقدر ذلك تكون مُطَهَّرةً وساطعةً بتطهيرٍ أكثرَ شمولاً؛ أمّا الأرواحُ الأخيرة فتنالُ هذه الإنارةَ بطريقةٍ مخفَّفةٍ جدًّا ومتباعدة. وهذا يعني أنَّ الإنسانَ الأخير الذي يَبلغُه تطلّع الله الودّي، عندما يشاءُ اللهُ أن يعطِيَه إيّاه، سيَقبلُه حسب حالته، محدودًا وعسيرًا جدًّا. فإنَّ نورَ الله الذي يُنيرُ الملاك ويجعلُه ساطعًا ويمنحُه عذوبةً بالحبِّ لكونه روحًا محضًا مُهَيَّأً لهذا الفيض، ينيرُ الإنسانَ، بالطبع؛ ولكن بسبب قذارته وضعفه، فإنَّ [هذا النور] يُظلمُه ويحزنُه ويضايقه، كما تفعلُ الشمس بالعين الرمضاء السقيمة، ويُشغِفُه بهيامٍ مصحوبٍ بحسرةٍ، إلى أن تجعلَه نارُ الحبِّ عينُها روحيًّا رقيقًا، وتُطَهِّرَه فيستطيعُ، وقد تطهَّرَ، أن ينالَ، بعذوبةٍ، الاتِّحادَ بهذا التأثير الودّي على طريقة الملائكة، كما سنقول لاحقًا بمعونةِ الربّ. غيرَ أنَّه، خلال تلك الفترة، يتلقّى هذا التطلّعَ والمعرفةَ الودِّيَّين مصحوبين كما قلنا، هنا، بضيقٍ ولهفةِ حبّ.

مفاعيل تدريجيّة

٥ - غيرَ أنَّ النفسَ لا تحسُّ دومًا باضطرامِ الحبِّ ولهفته؛ لأنَّه عندما يبدأُ هذا التطهير الروحي تسعى هذه النارُ الإلهيّة إلى تجفيف حطب النفس وإعداده أكثر منها إلى تسخينه. ولكن، مع مرور الزمن، وبعدَ أن تكونَ النارُ قد سخَّنت النفسَ، تشعرُ هذه، غالبًا، باضطرامِ الحبِّ وحرارته.

جرح العقل والارادة

وبينما يزدادُ العقلُ تطهراً بواسطة هذه العتمة يَحدثُ، هنا، أحيانًا، أنَّ هذا اللاهوت الصوفيّ والودّي، مع إضرامه الارادة، يجرحُ، أيضًا، القوّة الأخرى أي العقل، وينيرُه ببعض معرفةٍ ونورٍ إلهيٍّ، بالغ العذوبة والرقّة، حتى إنَّ الارادةَ، بفضله، تتوهَّجُ بطريقةٍ عجيبة؛ وتَستعِر في الإرادة، بدون أيِّ عمل منها، نارُ الحبِّ الإلهيّة، قاذفةً شُعَلاً متَّقِدَةً تخالُ النفسُ معها أنَّها نارٌ متَّقِدَة بسبب ما تحصلُ عليه من معرفةٍ متوقِّدة. بذلك يُفهَمُ ما يقول داود في أحد المزامير: **توهَّجَ قلبي في داخلي، وفي هذيذي اتَّقدت فيَّ نار** (**مزمور** ٣٨/ ٤).

مصدر غنى ولذّة

٦- وهذا الاشتعال بالحبّ، الذي يصيبُ القوَّتين معًا، أي العقل والإرادة المتَّحدتين هنا، هو للنفس مصدرُ غنًى وفيرٍ ولذَّةٍ كبرى؛ لأنَّه لمسةٌ من الألوهة، وبدءُ ما ترجو من كمال الاتِّحاد بالحبّ. ولا يمكن بلوغ هذه

اللمسة من الاحساس السامي بالله وحبّه إلّا بعد عبور مشقّاتٍ كثيرةٍ وقسم كبيرٍ من التطهير. ولكنّ الدرجات الأخرى الأدنى مرتبة، والتي تحصلُ عادةً، فلا يلزمها تطهيرٌ بهذه الشدّة.

الإرادة والعقل: عمل مستقلّ

٧- نستنتجُ ممّا قلناه، هنا، أنّ الإرادةَ، وسطَ هذه الخيرات الروحيّة التي يُفيضُها الله في النفس بنوعٍ انفعالي، تستطيعُ فعلاً أن تحبَّ بدون أن يُدرِكَ العقلُ، كما يستطيعُ العقلُ أن يُدرِكَ بدون أن تحبَّ الارادة. لأنّه كما أنّ ليلَ التطلّع المظلم يتضمّنُ نورًا إلهيًّا وحبًّا، والنارُ تحوي نورًا وحرارةً، فلا يستحيلُ على هذا النور الودّي، عندما يوهَبُ، أن يُمعنَ في الإرادة تجريحًا، أحيانًا، ويُضرِمَها بالحبّ، تاركًا العقلَ في ظلمةٍ دون أن يجرحه بالنور؛ وقد ينيرُ العقلَ أحيانًا بالنور، ويعطيه معرفةً، تاركًا الإرادة في جفاف؛ كما يحدث أيضًا أن ننالَ حرارةَ النار دون أن نرى النورَ، وأن نرى النورَ دون أن ننالَ حرارةَ النار؛ إن ذلك من صنع الله الذي يفيضه كما يشاء (١ قورنتس ١٢/ ١١).

الفصل الثالث عشر

في مفاعيل أخرى عذبة يُحدثُها في النفس ليلُ التطلّع المظلم.

بعض المفاعيل العذبة

١- يمكننا أن نَفهَمَ، بهذا النوع من الاضطرام، بعض المفاعيل العذبة التي يُحدثُها الآن في النفس ليلُ التطلّع المظلم، لأنَّ النفسَ، كما سبق وقلنا، تسطعُ أحيانًا بالنور وسط هذه الظلمات، **والنور يضيء في الظلمات** (**يوحنا** ١/ ٥)، فيحصل العقل على هذه المعرفة الصوفيّة، بينما تبقى الإرادة جافَّةً، أي بدون اتحادٍ حاليٍّ بالحبّ، وتشعرُ النفسُ بصفاءٍ وبساطةٍ هما من الرقَّة واللذَّة بحيث تعجز عن تسميتهما، مع إحساسٍ بالله، تارةً بهذه الطريقة وطورًا بأخرى.

اتّحاد الارادة والعقل

٢- ويجرح الارادة أحياناً، في الآن نفسه، ويستعِر الحبُّ فجأةً رقيقًا وعنيفًا؛ وتتَّحد، كما قلنا، هاتان القوّتان أحيانًا، أي العقل والارادة، اتِّحادًا يزدادُ كمالاً وتوثُّقًا كلَّما ازدادَ تطهُّرُ العقل. ولكن قبل بلوغ هذا الحدّ،

من الشائع أن تشعرَ النفسُ بلمسة الاضطرام أكثر ممَّا يُدرِكُ العقلُ لمسةَ المعرفة.

هيامٌ انفعالي

٣- وقد يُطرَحُ هنا سؤال وهو: بما أنَّ هاتين القوّتين تتطهَّران معًا، فلماذا يُحَسُّ عامةً، في البدء، اضطرام التطلّع التطهيري بالحبّ في الإرادة أكثر ممّا يتمُّ إدراكه في العقل؟

نجيبُ على هذا السؤال بأنَّ هذا الحبَّ المنفعل لا يجرَح الإرادة مباشرةً، لأنَّ الإرادةَ حرّةٌ ولأنَّ هذا الاضطرام بالحبّ هو هيامٌ بالحبّ أكثر من كونه فعلاً إراديًّا حرًّا. ولأنَّ حرارةَ الحبّ هذه تصيبُ جوهرَ النفس فهي تحرّكُ عواطفَها انفعاليًّا. ولذلك ينبغي أن يُسمّى هيامَ الحبّ أكثر ممّا يُسمّى عملَ الإرادة الحرّ، والذي كلّما كان حرًّا، كلَّما سُمِّيَ عملَ الإرادة. ولكن بما أنَّ هذه الأهواء والعواطف تُختَصَرُ بالإرادة، لذلك يُقال إذا هامت الإرادة بعاطفةٍ ما، فإنَّ الإرادة هي الهائمة، وهذه هي الحقيقة؛ لأنَّ الإرادة تصبح بهذه الطريقة أسيرةً وتفقِدُ حرّيّتَها، فتنجرفُ وراء جماح الهوى وقوّته. لذلك يمكننا القول إنَّ هذا الاضطرام بالحبّ يَحدثُ في الإرادة فيُضرِمُ شهوتَها. والأحرى، في هذه الحالة، أن يُسمَّى هيامَ الحبّ، كما قلنا، من أن يُسَمَّى عملَ الإرادة الحرّ. وإذ لا يستطيع قبولَ المعرفة المتجرّدة، وبنوعٍ انفعالي، إلَّا الهيامُ المتقبِّلُ في العقل، ولا يستطيع ذلك إلَّا بعد تهطيره، لذلك تشعرُ النفسُ، قبل تطهيره، بلمسة المعرفة أقلَّ ممّا تشعرُ

بلمسة هيام الحبّ. ولكي يحصلَ ذلك لا تحتاجُ الإرادةُ إلى تطهيرِ قاسٍ من الشهوات، لأنَّ هذه تساعدُها على الإحساس بالحبّ الهائم.

عطش الحبّ وضِرامه

٤- إنَّ ضِرامَ الحبّ، أو عطشَه، لكونه، في هذه الحالة، يَحدث في الروح، مختلفٌ كلَّ الاختلاف عن الآخر الذي قلنا عنه إنَّه يحدثُ في ليل الحسّ. ولئن كان للحسّ قسطٌ في هذا المجال، ويشاركُ الروحَ في عذابه، إلَّا أنَّ أصلَ عطش الحبّ ووطأتَه يُحَسَّان في جزء النفس العلوي، أي في الروح، فيُحِسُّ ويدرك ما يحسُّ مع فقدانَ ما يصبو إليه، بطريقةٍ يبدو معها عذابُ الحسّ، مع كونه لا يُقارَن بما يحدث في ليل الحسّ الأوَّل، أنَّه لا شيء؛ لأنَّ الروحَ يفتقِدُ في داخله خيرًا عظيمًا لا يُقاس بأيِّ خيرٍ سواه.

هواجس الحبّ

٥- ولا بدَّ هنا من الملاحظة أنَّه، في البداية، أي عندما يبدأُ هذا الليل المظلم، لا يُحَسُّ اضطرامُ الحبِّ هذا لأنَّ نارَه لم تبدأ، بعدُ، بالاتّقاد؛ إلَّا أن اللهَ يمنحُ النفسَ حالاً، عِوَضًا عن ذلك، حبًّا يقدِّر الله تقديرًا عظيمًا يصبح معه، كما قلنا، هاجسُ النفس من أنَّها قد خَسرت الله وأنَّه قد هجرها، المشقَّةَ العظمى في كلِّ ما تقاسيه وتُعانيه من مشقَّات هذا الليل. وهكذا، يمكننا القول، دائمًا، إنَّ النفسَ، منذ بداية هذا الليل، تلمسها لهفات الحبّ التقديري حينًا، والمضطرمِ حينًا آخر.

ونرى أنَّ أشدَّ ما تُقاسيه [النفسُ] وسطَ هذه المشقّات هو هذا الخوف. إذ لو كان بوسعها التأكّد من عدم فقدانِ كلِّ شيء وزوالِه، ومن أنَّ ما يَحدثُ لها يؤولُ إلى الأفضل، كما هو بالفعل، وأنَّ الله ليس مغتاظًا منها، لما أعارت أيّ اهتمام كلَّ تلك العذبات، بل كانت لِتُسَرَّ بها لِعلْمها بأنَّ الله يستعملها وسيلةً. ذلك أنَّ حبَّها التقديري لله، رغمَ كونه دفينًا ولا تشعرُ به، هو من الشدّة بحيث تسرُّ النفسُ ليس فقط [بتحمُّل ما يَحدث] بل بالموت ألف مرّةٍ في سبيل إرضائه. ولكن بعد أن تكونَ الشعلةُ قد ألهبت النفسَ، وإضافةً إلى تقديرها الله، تستمدُّ، عادةً، من إفاضةِ حرارة الحبّ، قوَّةً وحماسةً وشغفًا بالله، تدفعُها بجسارةٍ أيِّ جسارة، غير آبهةٍ بأيِّ شيء، ولا مكترثه لأيِّ شيء، وبقوَّة الشوق وسكرة الحبّ، غير آبهةٍ بما تفعل، إلى القيام بأعمالٍ غريبةٍ غير مألوفة تعرض لها، مهما كان نوعُها وطريقتُها، لكي تستطيعَ أن تلتقِيَ من تُحبُّه نفسُها.

سكرةُ الحبّ وجسارتُه

٦- وهذا السبب جعلَ مريم المجدلية، على ما كان لها من عزَّة النفس، لا تأبه لجمهور الندماء، أَشرافًا كانوا أم غيرَ أشراف، ولا تنظر في أنَّه من غير اللائق أن تذهبَ لتبكي وتذرفَ دموعها بين المدعوّين، (**لوقا** ٧/ ٣٧-٣٨)، ولا تؤجِّل ساعةً بانتظار وقتٍ آخر أو مناسبةٍ أخرى، لكي تستطيعَ المثول أمامَ من كان قد جرح نفسها وأضرمَها. تلك سكرةُ الحبِّ وجسارتُه:

فمع علمها بأنَّ حبيبَها كان في القبر مُغلقًا عليه بحجرٍ ضخمٍ مختومٍ، مُحاطًا بالجنود - يحرسونه لئلَّا يخطفه تلاميذه (**متى** ٢٧/ ٦٠- ٦٦) - لم تدع مجالاً لأيٍّ من تلك العقبات بأن تعترضَها فتتخلّى عن الذهاب قبل الفجر مع الطيوب لتطيِّبه (**يوحنا** ٢٠/ ١).

غباء الحبّ

٧- وقد دفعتها، أخيرًا، سكرةُ الحبِّ هذه، ولهفتُه، إلى سؤال من ظنَّت أنَّه بستاني، إن كان قد سرقه من القبر، أن يقولَ لها هل أخذه وأين وضعه لتأخذَه هي (**يوحنا** ٢٠/ ١٥)؛ ولم تكن لتنتبه إلى أنَّ ذاك السؤال يُعتَبَرُ غباءً أمام الحكم الحرّ والمنطق؛ فمن الواضح أنَّه لو كان ذاك قد سرقه لما أقرَّ لها بذلك، أو على الأقل، لما تركها تأخذه. وإنَّ لقوّة الحبّ وولعِه ميزةً هي أن يحسبَ كلَّ أمرٍ ممكنًا، وأنَّ جميعَ الناس يهتمّون بما يهتمُّ هو به، لأنَّه لا يعتقدُ أنَّ هناك شيئًا آخر يمكن أن ينشغلَ به أحدهم أو يبحث عنه غيرُ ما يبحث هو عنه أو يُحبُّه. ويبدو له أنَّه لا يوجد مطلبٌ آخر أو شغلٌ آخر إلَّا ذاك، وأنَّ الجميعَ أيضًا منشغلون به. فعندما خرجت العروس تبحث عن حبيبها في الساحات والأزقّة، ظانَّةً أنَّ الآخرين يهتمّون بالغرض نفسه، استحلفتهم أن يُخبروه، إن وجدوه، بأن قد أضناها حبُّه (**نشيد** ٥/ ٨). أمّا حبّ مريم المذكورة فكان من الشدّة بحيث خُيِّلَ إليها أنَّها لو أرشدَها البستاني إلى حيث خبَّأه لكانت ذهبت وأخذته مهما صدّها عن ذلك.

الحبّ النافد الصبر

٨- وعلى هذا النحو تكون، إذًا، لهفات الحبّ التي تشعرُ بها النفسُ حينما تصبحُ متقدِّمةً في هذا التطهير الروحي. لأنَّها تنهضُ ليلاً أي من هذه الظلمات التي تطهِّرُ عواطفَ الإرادة؛ وبلهفات اللبوءة أو هياجات الدبّة التي انتُزِعَ منها صغارُها فتعدو تبحثُ عنها ولا تجدُها (٢ **ملوك** ١٧/ ٨؛ **هوشع** ١٣/ ٨)، ترودُ هذه النفس الجريحة، تبحثُ عن إلهها. لأنَّها بوجودها في الظلمات ترى ذاتها بدونه بينما تموت حبًّا به. هذا هو الحبُّ النافد الصبر الذي لا يستطيع صاحبه أن يتحمَّلَه طويلاً دون أن ينالَ [مبتغاه] أو يموت، وهو شبيه [بتلهّف] راحيل إلى الأولاد عندما قالت ليعقوب: **أعطني أولادًا أو أموت (تكوين** ٣٠/ ١).

جريئة جسورة

٩- ولا بدَّ هنا من الاستيضاح كيف أنَّ النفسَ، مع إحساسها بشدّة بؤسها، وبأنَّها غيرُ جديرة بالله، كما هي حالُها وسط هذه الظلمات المطهِّرة، تتمتَّعُ بقوّةٍ جريئة وجسورةٍ جدًّا حتى إنَّها تندفعُ إلى مُلاقاة الله. وهذا هو السبب: بما أنَّ الحبَّ يمنحُها قوَّةً تحبُّ بها [الله] حقًّا، وبما أنَّ الحبَّ يمتاز بأنَّه يطلُبُ الاتِّحادَ بالمحبوب، والاجتماعَ به، ومساواتَه ومشابهتَه، كي يكتملَ خيرُ الحبِّ، ينتج عن ذلك أنَّ النفسَ طالما لم تبلغ، بعدُ، الكمالَ في الحبّ، كونها لم تبلغ الاتِّحاد بعدُ، فإنَّ الجوعَ والعطشَ إلى ما ينقصها، أي الاتِّحاد، والعزائمَ التي وضعها الحبُّ في

الإرادة، فجعلها مولَعة، تقلُبُها جريئةً جسورةً حسب الإرادة المضطرمة، بينما يشعرُ العقل الغائص في الظلمات بدون نور بأنَّه غير جديرٍ [بالله] ويقرّ ببؤسه.

تبدّل الرؤية

١٠- لا أودّ، هنا، إغفالَ السبب في أنَّ النورَ الإلهي، الذي، مع بقائه دائمًا للنفس نورًا، لا يعطيها، حالما يغمرها، نورًا كما يفعل لاحقًا، بل يسبّب لها ما وصفنا من ظلماتٍ ومشقّات. لقد تكلّمنا على هذا الموضوع سابقًا؛ لكن نُجيب عن هذه الناحية أنَّ الظلمات وسائر الشرور التي تشعرُ بها النفسُ عندما يغمرُها النور الإلهي، ليست ظلماتٍ وشرورًا ناتجةً عن النور بل عن ذات النفس؛ أمّا النور فيضيئها لكي تراها. وبناءً عليه، نؤكّدُ أنَّ النورَ الإلهي يسطع عليها منذ البداية، غير أنَّ النفسَ لا تستطيع أن ترى، بهذا النور، سوى ما يحيطُ بها، أو بالأحرى، ما في داخلها، أي ظلماتها ومساوئها التي تراها الآن بفضل رحمة الله، بينما لم تكن لتراها في السابق أي قبل أن يغمرَها النورُ الفائق الطبيعة. فلهذا السبب لا تحسُّ النفسُ، في البداية، إلّا بظلماتٍ وشرور؛ ولكن بعد أن تُطَهَّرَ النفسُ بمعرفة هذه [الظلمات] والإحساس بها، ستكون مُهيَّأةً لأن يكشفَ لها هذا النور خيرات النور الإلهي. وما إن تُطرَدُ من النفس جميعُ هذه الظلمات والانطباعات حتى تشرعَ في الظهور الفوائدُ والخيراتُ العظيمة التي تجنيها النفسُ في هذا الليل السعيد، أي ليل التطلّع.

تجدُّدٌ عميق

١١- يمكننا أن نُدرِكَ ممّا تقدّم كيف يُنعمُ الله على النفس، هنا، بأن ينظّفَها بهذا المنظِّف الفعّال ويعالجَها بهذا المطهِّر المرّ، بحسب الجزئين الحسّيّ والروحيّ، من جميع العواطف والمَلَكات الناقصة العالقة بها من جهة ما هو زمني وطبيعي، وحسّي وعقلي وروحي، فيُظلِمُ قواها الداخليّة ويُفرغُها من كلِّ ذلك، ويضيّقُ على عواطفها الحسّيّة والروحيّة، ويجفّفُها، ويُضعفُ قدرات النفس الطبيعيّة ويجعلُها هزيلةً بالنسبة إلى كلِّ ذلك، - وهذا ما لم يكن بوسع النفس أن تحقّقَه بذاتها، كما سنقول لاحقًا؛ - فيوهنُها الله طبيعيًّا، بهذه الطريقة، في جميع ما ليس الله؛ وبعد أن تتعرّى وتنسلخَ من جلدها العتيق، يكسوها من جديد. وهكذا **يتجدَّدُ كالنسر شبابُها** (**مزمور** ١٠٣/ ٥)، **وتلبَسُ الانسانَ الجديد المخلوق على صورة الله**، كما يقول الرسول (**أفسس** ٤/ ٢٤). كلُّ ذلك لا يعني سوى إنارة العقل بالنور الفوطبيعي، بحيث يصبح العقل الانساني إلهيًّا مُتَّحدًا بالإلهيّ؛ ويعني، أيضًا، لا أكثر ولا أقلّ، إعطاءَ إرادتها شكلَ[1] الحبِّ الإلهي فتصبح الإرادةُ لا أقلّ من إلهيّة، ولا تحبُّ بأقلّ من نوعٍ إلهي، وقد صارت شيئًا واحدًا مع إرادة الله وحبّه. ويُقال الشيءُ عينه، لا أقلّ ولا أكثر، عن الذاكرة، وعن

---

(١) إعطاء شكل أو صورة Informar : donner forme هي صيغةٌ مُستقاة من الفلسفة المدرسية تُعبِّرُ عن تبدّلٍ في جوهر الكائن المكوّن من مادة وصورة؛ والصورة هي التي تحدِّدُ شكلَ الكائن وطبيعته ووجوده. وبهذا التعبير الفلسفي يشرحُ الكاتب، حسب عادته، عمقَ التبدّل الذي يطرأُ على النفس، بطريقةٍ إلهيّة، «فتصبحُ إلهيّةً أكثر منها بشريّةً» (ش.ر.).

العواطف والشهوات جميعها وقد تبدّلت وتحوّلت، بحسب الله، بطريقةٍ إلهيّة. لقد أصبحت هذه النفس، الآن، نفسًا من السماء وسماويةً، وإلهيّةً أكثر منها بشريّة. كلُّ ذلك، حسبما اتّضحَ ممّا قلنا، يصنعُه الله ويعمله في النفس، بواسطة هذا الليل، فيُنيرُها ويضرمُها، بنوعٍ إلهي، بلهفاتٍ إلى الله وحده دون أيِّ شيءٍ آخر.

ولذلك تضيفُ النفسُ، حالاً، بكلِّ حقٍّ وصواب، البيت الثالث من الأنشودة أي:

يا له حظًّا سعيدًا!

الفصل الرابع عشر

شرحُ الأبيات الثلاثة الأخيرة من الأنشودة الأولى.

مثل الخارج في الليل

١- **هذا الحظ السعيد** قد تمَّ حسبما تقول الآن في الأبيات التالية:

خرجتُ لم يدرِ بي أحد
وبيتي قد صار هادئًا.

وتستخدمُ مَثَل الذي أرادَ أن يُحقِّقَ مأربه بطريقةٍ أفضل فخرجَ من بيته ليلاً، وفي خفيةٍ، بعد أن نام أهل بيته، كي لا يصدَّه أحد.

وبما أنَّه يجب على النفس أن تخرجَ لتقومَ بعملٍ بطوليّ وفريدٍ جدًّا، ألا وهو الاتِّحاد بحبيبها الإلهيّ خارجًا، كون الحبيب لا يوجَد إلَّا خارجًا، وفي الوحدة، حتى إنَّ العروسَ الراغبة في لقائه وحده تقول: **مَنَ يعطيني، يا أخي، بأن أجِدَك، أنا، وحدي، خارجًا، فأُبادلَك حبِّي؟** (نشيد ٨/ ١)[١]،

---

(١) في الترجمة الحديثة: **من لي بِكَ كأخٍ لي، قد رضِعَ ثديَ أُمِّي، فأجدَك في الخارج وأُقبِّلَكَ بغير أن يَحتقروني؟**

لذلك ينبغي للنفس المشغوفة، كي تبلغَ هدفَها المنشود، أن تُحقِّقَه بالطريقة نفسها، أي أن تَخرُجَ ليلا، وقد رقد وهدأَ أهلُ بيتها جميعًا، أي قد نامت وهدأَت بواسطة هذا الليل أعمالُ النفس الدنيّة وأهواؤها وشهواتُها، وهم أهلُ بيتها الذين، ما داموا مستيقظين، يمنعون عن النفس هذه الخيرات، ولا يروقهم أن تتحرَّرَ النفسُ منهم. فهؤلاء هم الأهلُ الذي قال عنهم مخلِّصُنا في الانجيل إنَّهم **أعداءُ الإنسان** (**متى** ١٠/ ٣٦). فكان لا بدَّ لأعمال هؤلاء مع حركاتهم أن تنامَ في هذا الليل كي لا تمنع عن النفس الخيرات الفوطبيعيّة للاتّحاد بالله بالحبّ، الذي لا يتمّ ما دام هؤلاء في يقظةٍ ويعملون. وإنَّ كلَّ عمل النفس وحركتها الطبيعيّة يُعيقُ نوالَ الخيرات الروحيّة للاتّحاد بالحبّ بدل أن يساعدَ عليه، لأنَّ كلَّ استعداد طبيعي يبقى قاصرًا تجاه الخيرات الفوطبيعيّة التي يضعُها الله، بفيضٍ منه فقط، في النفس المنفعلة، بطريقةٍ سرّيّة، وفي الصمت. ولذلك يجب أن تنالَها جميع القوى، وتتاهَّلَ لنوالها بطريقة انفعاليّة وألَّا تُدخِلَ في تلك العمليّة جهدَها الوضيع وميلَها الخسيس.

سبات القوى والعواطف

٢- لقد كانت سعيدةَ الحظِّ حقًّا تلك النفسُ التي أنامَ الله، في هذا الليل، أهلَ بيتها جميعًا، أي جميع قواها وأهواءَها، وعواطفَها، وشهواتِها، الحسّية والروحيّة التي تعيشُ في النفس، كي تصلَ إلى الاتّحاد الروحي بالله بالحبِّ الكامل، دون أن يلحظَها أحد، أي دون أن تمنعَها عواطفها... الخ؛ فهذه تبقى نائمة ومُماتة في هذا الليل، حيث تُترَكُ في ظلمة كي لا

تستطيع أن تلاحظَ أو أن تشعرَ حسب طريقتها الطبيعيّة الوضيعة فتحولُ دون خروج النفس من ذاتها ومن بيت حسّيّتها لتصل الى الاتحاد الروحي في حبّ الله الكامل.

عبوديَّة وحرّيَّة

٣- آه! ما أسعدَ حظَّ النفس أن تستطيعَ التحرّرَ من بيت حسّيّتها! ولا يستطيع، في رأيي، أن يدركَ ذلك جيّدًا إلَّا النفسُ التي ذاقته، لأنَّها سترى بوضوحٍ كيف أنَّ حالتَها كانت عبوديَّةً بائسة، وكم من الرزايا كانت ترهقُها عندما كانت خاضعةً لعمل قواها وشهواتها، وستعرف كيف أنَّ حياةَ الروح هي حرّيَّة حقيقيّة وغنًى يجلب معه خيرات لا تقدَّر. وسنُشيرُ إلى بعضها في الأناشيد اللاحقة، حيث يظهر، بوضوحٍ أكبر، بأيّ حقّ تعتبر النفسُ حظًّا سعيدًا عبورَها ذاك الليل الرهيب الذي تحدَّثنا عنه.

الفصل الخامس عشر

شرحُ الأنشودة الثانية

الأنشودة الثانية

في ظلمةٍ وآمنة، [خرجت]
في السلّم السرّيّة، مُتنكّرة
يا له حظًّا سعيدًا!
في ظلمةٍ وحذَر،
وقد صار بيتي هادئًا.

الشرح

تنكّر النفس

تُوالي النفسُ، في هذه الأنشودة أيضًا، التغنّي ببعض خصائص ظلمة هذا الليل، فتُكرّر ما أصابت معها من حظٍّ سعيد. وبهذا الكلام تُجيب على اعتراضٍ ضِمني وتُحذِّر من الاعتقاد بأنَّ حصولَ هذا الليل وهذه

الظلمة، واجتيازَ النفس عواصفَ كثيرةً من ضيقاتٍ وشكوكٍ ومخاوفَ وأهوال، كما قيل، سيجعل النفسَ أكثر عرضةً لفقدان الذّات؛ بل إنَّها قد ربحت ذاتَها، في ظلمةِ هذا الليل، لأنَّها تحرّرت فيه وأفلتت بمهارةٍ من مناهضيها الذين كانوا يعيقون دائمًا سيرها؛ ففي ظلمة الليل بدّلت لباسَها وتنكَّرت بثلاثة أثواب وألوانٍ سنتكلَّمُ عليها فيما بعد. وعبرَ سلَّمٍ سرّيَّة جدًّا لا يعرفُها أحدٌ من أهل بيتها - كما سنذكرُ في حينه - وهي الإيمان الحيّ، خرجت محجوبةً وفي خفيةٍ، كي تستطيعَ إنجازَ مهمَّتها. ولم يكن بوسعها العدولُ عن المضّي آمنةً جدًّا، خاصةً وقد أصبحت، في الليل المُطَهِّر، شهواتُ نفسها وعواطفُها وأهواؤها نائمةً مُمَاتةً ومهدّأة؛ فلو كانت مستيقظةً وحيَّةً، لما سمحت للنفس بالخروج. ثمَّ يلي البيت القائل:

في ظلمةٍ وآمنة.

الفصل السادس عشر

يَشرَحُ كيف أنَّ النفسَ تسيرُ آمنةً مع كونها في الظلمة.

ظلمةٌ شاملة

١- لقد قلنا سابقًا إنَّ الظلمةَ التي تشيرُ إليها النفسُ، هنا، تتناولُ الشهوات والقوى الحسّيَّة الداخليّة والروحيّة، لأنَّها، في هذا الليل، تُحرَمُ جميعًا من نورها الطبيعي، حتى إذا ما تطهَّرت منه يُمكن أن يُضيئَها النور الفوطبيعي. فالشهواتُ الحسّيَّة والروحيّة نائمةٌ ومُماتةٌ، فلا تستطيع تذوّقَ أيِّ شيءٍ إلهي أو إنساني؛ وعواطفُ النفس مضغوطةٌ مُضيَّقٌ عليها فلا تستطيع حراكًا ولا تجد سندًا في أيِّ شيء؛ والمُخيِّلةُ مقيَّدةٌ فلا تستطيع القيامَ بأيِّ استدلالٍ مفيد؛ والذاكرةُ منهوكةٌ، والعقلُ مُعتَّمٌ وعاجزٌ عن إدراك أيِّ شيء، والإرادةُ، بالتالي، جافَّةٌ وفي ضيقٍ؛ وجميعُ القوى خاويةٌ لا فائدة منها. أضف إلى كلِّ ذلك، أنَّ غمامًا كثيفًا ثقيلاً يخيِّمُ على النفس فيملؤها غمًّا وكأنَّه يُقصيها عن الله. ومع كون النفس في ظلمةٍ كهذه، فهي تُصرِّحُ أنَّها كانت تسيرُ بأمان.

تحرّر من الأعداء

٢- وسببُ ذلك هو في غاية الوضوح: فالنفسُ، عادةً، لا تُخطىء إلّا بسبب شهواتها أو أذواقها أو أفكارها أو معارفها أو عواطفها، لأنَّ فيها، عادةً، تزيدُ النفسُ أو تُنقِصُ ما لا يلائمها، وتُبدِّلُ أو تُخطىء فيه، وتنكَبُّ عليه أو تميلُ إليه. فمن ثمَّ، إذا ما تعطّلت جميع هذه الممارسات والحركات، فمن الواضح أنَّ النفسَ تصبح بمأمن من أن تخطأ فيها؛ لأنَّها لا تتحرَّرُ من ذاتها فحسب، بل، أيضًا، من باقي أعدائها، أي من العالم والشيطان، اللذين لا يستطيعان، بعد إخماد عواطفِ النفس وحركاتها، أن يشنّا الحربَ عليها من ناحيةٍ أخرى أو بطريقةٍ أخرى.

أمان النفس

٣- ينتجُ عن ذلك أنَّ النفسَ بقدر ما يشتدُّ ظلامُها وفراغُها من أعمالها الطبيعية، بقدر ذلك تسيرُ بأمان؛ فكما يقول النبي: إنَّ هلاكَ النفس يأتيها، فقط، من ذاتها، أي من حواسِّها وشهواتها الداخليّة والحسّيّة، بينما الخيرُ **لا يكون إلّا منّي**، يقول الله (**هوشع ١٣/ ٩**).[١] لذلك، فما إن تُكبَحُ شرورُ النفس بهذه الطريقة، حتى تفيضَ خيراتُ الاتّحاد بالله في شهواتها وقواها فتحوِّلُها إلى إلهيَّةٍ وسماويّة. وبالتالي،

(١) هوشع ١٢ ٩ - ١٠ هَلَكْتَ يا اسرائيل ولا عون لك الّا فيَّ، اين ملكك ليخلّصك في جميع مدنك؟ [هكذا نرى ان القديس يطبّق على النفس، بحرّية، ما يقوله النبي عن اسرائيل.(أ.خ)]

فعندما تحلُّ هذه الظلمات، فإذا أنعمت النفسُ النظرَ فيها، سترى بكلِّ وضوحٍ ما أقلَّ تشتُّتَ شهوتها وقواها في أمورٍ تافهةٍ ومُضرَّة، وكم تكون النفسُ في مأمنٍ من المجد الباطل والكبرياء والاعتداد بالنفس والفرح الكاذب وأمورٍ أخرى كثيرة. فنستنتجُ من ثمَّ، أنَّ النفسَ، بسيرها في ظلمة، لا تكون هالكةً أبدًا، بل رابحةٌ كلَّ الربح لأنَّها تكسبُ هنا فضائلَ عديدة.

طبيعةُ النفس

٤- ويتبادر إلى الذهن حالاً، السؤال التالي: بما أنَّ أمورَ الله هي بحدّ ذاتها مصدرُ خيرٍ للنفس، وربحٍ وأمان، فلماذا يُظلِم الله، في هذا الليل، شهواتها وقواها بالنسبة إلى هذه الأمور الصالحة، فلا تستطيع النفسُ التلذُّذَ بها ولا مزاولتَها كباقي الأمور، أو أقلَّ منها نوعًا ما؟

فنُجيبُ بأنَّ النفسَ يناسبُها، عندئذٍ، ألَّا يبقى فيها عملٌ أو ذوقٌ بالنسبة إلى الأمور الروحيّة لأنَّ قواها وشهواتها قذِرةٌ ودنيئةٌ وطبيعيَّةٌ جدًّا؛ فحتى لو مُنحت هذه القوى طعمَ الأمور الفوطبيعيّة والإلهيّة ومزاولتَها، فلن تستطيعَ قبولَها إلَّا بطريقتها، أي بطريقةٍ دنيئةٍ وطبيعيّةٍ جدًّا. لأنَّه كما يقول الفيلسوف: «كلُّ ما يُحتوى يكون في الحاوي حسب حال المُحتوي»(٢).

فلمّا كانت هذه القوى الطبيعيّة تفتقرُ إلى النقاوة والقدرة والسعة لكي

(٢) يعني بالفيلسوف أرسطو. ويبدو ان هذا المبدأ لا يرد حرفياً لدى أرسطو، لكنه يرد بهذه الصيغة في مواضع عدة لدى القديس توما الاكويني .(أ.خ).

تقتبلَ الأمورَ الفوطبيعيّة وتتذوقها حسب حالتها الإلهيّة، لا تقتبلها إلّا حسب حالتها هي أي البشريّة الدنيئة، كما قلنا. فمن المناسب، أيضًا، أن تُظلِمَ هذه القوى في ما يتعلّقُ بالإلهي، حتى إذا ما فُطِمت وطُهِّرت وتلاشت في ما يتعلّقُ بالموضوع الأوّل [البشري]، فقدت تلك الطريقةَ البشريّة الدنيئة في العمل والتقبّل، وأصبحت جميعُ القوى وشهواتُ النفس جاهزةً ومُعدَّةً لتستطيعَ اقتبال الإلهي والفوطبيعي والإحساس به وتذوّقه بنوعٍ سامٍ جدًّا؛ وهذا ما لا يمكن أن يتمَّ ما لم يَمُت الإنسانُ القديم أوّلاً.

تذوّق الروحي بطريقة بشرية

٥- نستنتجُ من ذلك أنَّ كلَّ ما هو روحيّ، إن لم يأتِ **من علُ، ويُفِضْه أبو الأنوار (يعقوب** ١٧/١) على اختيار الإنسان [الحرّ] وشهوته، فمهما تمرَّسَ ذوقُ الإنسان وقواه بالله، ومهما بدا لها أنَّها تتذوّقُه، فهي لا تتذوّقُه بطريقةٍ إلهيّة وروحيًّا، بل بطريقةٍ بشريّة وطبيعيًّا، مثلما تتذوّقُ الأمور الأخرى؛ لأنَّ الخيرات لا تذهبُ من الإنسان إلى الله، بل تأتي من الله إلى الإنسان. ولو توافر المجال للكلام في هذا الموضوع، لاستطعنا أن نشرحَ كيف أنَّ أشخاصًا عديدين تنال قواهم مسرّاتٍ وعواطفَ كثيرةً وتقومُ بأعمالٍ متعدِّدة تختصّ كلُّها بالله وبالأمور الروحيّة، يظنّون، ربّما، أنَّ ذلك فوطبيعي وروحي، في حين أنه ليس سوى أفعالٍ وشهواتٍ طبيعيّة وبشريّة؛ وكما تنالُها [قواهم] في سائر الأمور تنالُها أيضًا في الأمور الروحيّة بسبب ما فيها من سهولةٍ طبيعيّة على تحريك الشهوة والقوى في اتّجاه أيّ شيء.

علامات للتمييز

٦- وإذا سنحت لنا الفرصة، فيما بعد، سنُعالجُ الموضوع فنذكرُ بضعَ علاماتٍ تدلُّ على متى تكون حركاتُ النفس وأفعالُها الداخليّة، في العلاقة بالله، طبيعيَّةً فحسب، ومتى تكون روحيَّةً فقط، ومتى تكون روحيَّةً وطبيعيَّةً معًا. أمّا الآن، فيكفي أن نعرفَ أنَّ أفعالَ النفس وحركاتها الداخليّة، كي تصلَ إلى أن يحرِّكَها الله بنوعٍ سامٍ وإلهيّ، يجب، أوّلاً، أن تُنامَ وتُظلِمَ وتُهَدَّأ بطبيعتها، في مجمل أهليّتها وعملِها إلى أن تتلاشى.

مخاطبةُ النفس

٧- آه! أيَّتُها النفسُ الروحانيّة! عندما ترين شهوتَكِ مُظلمةً وعواطفَكِ جافةً وفي ضيقٍ، وقواكِ عاجزةً عن أيّ ممارسة داخليّة، فلا تحزني لذلك، بل احسبيه حظًّا سعيدًا، لأنَّ الله قد بدأ يحرِّرُكِ من ذاتك، وانتزعَ من بين يديكِ قواكِ التي، مهما وافقتكِ، فلن تعملي بها بطريقةٍ صحيحة وكاملة وآمنة كما تعملين الآن، بسبب ما فيها من قذارة وخِسّة. فالله يأخذُ الآن، بيدكِ، ويقودُكِ في الظلمة كمن يقود أعمى، إلى حيث ومن حيث لا تعرفين أن تسيري، ولن تُوَفّقي، أبدًا، في السير برجليكِ وعينيكِ، مهما جاهدتِ.

سيرٌ بدون علم

٨- أمّا السببُ الثاني الذي يجعلُ النفسَ تسيرُ آمنةً عندما تسيرُ في ظلمة، بل، ان تزدادُ ربحاً واستفادةً، فلأنَّها، بشكلٍ عام، عندما تأخذ

بالتحسن من جديد، وتستفيدُ، يتمُّ لها ذلك من حيث قلّما تُدرِك؛ بل غالباً ما تظنُّ أنَّها تهلك. فبما أنَّها لم تختبر، قطُّ، من قبلُ، هذا الجديدَ الذي يَبْهَرُها، ويُخرجُها من طريقتها الأولى في التصرّف، ويَخبُلُها، تظنُّ على العكس أنَّها تسيرُ نحو الهلاك بدل الأمان والربح، إذ ترى أنَّها تفقدُ ما كانت تعرف وتتذوّق، وتسيرُ حيث لا تعرف ولا تتذوَّق[٣]. شأنُها شأنُ السائر الذي يريدُ السفرَ إلى بلاد جديدة لا يعرفُها ولم يختبرْها، فيسيرَ في طرقٍ جديدةٍ لا يعرفُها ولم يختبرْها؛ ويمضي لا دليل له مما كان يعرفه، بل تحيّره الشكوكُ وأقوالُ الآخرين. والواضح أنَّه لن يستطيعَ الوصول إلى بلادٍ جديدة، ولا أن يعرفَ أكثر ممّا كان يعرف قبلاً، إن لم يسلكْ في طرقٍ جديدة غير معروفة، ويترك الطرقَ التي كان يعرفها. ومن يتعلّم خصائص جديدةً في مهنةٍ أو فنٍّ، لا أكثر ولا أقلّ، يسيرُ في ظلمةٍ، غيرَ معتمدٍ على علمه الأوّل؛ لأنَّه إن لم يدَعه خلفه، فلن يخرجَ منه، ولن يزدادَ فائدةً. كذلك النفسُ تستفيد أكثر ما تستفيد عندما تسيرُ في ظلمةٍ وبدون علم. ومع ذلك، فالله هنا، كما قلنا، معلِّمٌ ودليلٌ لعمى النفس؛ فتستطيعُ الآن، بكلِّ حقٍّ، وقد أدركت ما يحلُّ بها، أن تفرحَ وتقول:

في ظلمةٍ وآمنة

العذاب أكثر أماناً

٩ – وهناك سببٌ آخر جعل النفس تسير آمنة وسط هذه الظلمات

---

(٣) من المفيد ان نقابل هذا المقطع بأبيات رسم الجبل. راجع كتاب **الأعمال الصغرى** ص ٤٢٣.

وهو أنَّها كانت تسير معذَّبة، لأن طريق العذاب أكثر أماناً وأعظم فائدةً من طريق التلذّذ والعمل: **أولاً** لأن النفس تنال في العذاب قدراتٍ من الله؛ أمَّا في العمل والتلذُّذ فتستخدم النفسُ أوهانها ونقائصَها. **وثانياً**: لأن في العذاب تُمارَس وتُكتَسَبُ الفضائل، وتُطَهَّر النفسُ فتُصبح أكثر حكمةً وحَذراً.

صوم وقطاعة

١٠ - غير أنَّ هناك سبباً أكثر أهمّيةً يجعل النفس تسير آمنةً وسط الظلام، وهو ناتجٌ عن النور المذكور أو الحكمة المظلمة، لأن هذا الليل المظلم، ليل التطلّع، يمتصّ النفسَ ويتشرّبها في ذاته ويضعها قريبةً جدّاً من الله بحيث ينقذها ويحرّرها من كلّ ما ليس الله. فبما ان النفس، هنا، خاضعة للعلاج لكي تنال خلاصها، وهو الله نفسه، فجلاله يُخضعُها للصوم والقطاعة عن جميع الأشياء، ويعطّل اشتهاءها إياها، تماماً كما يُصنع من أجل شفاء مريض ينعم باعتبار أهل بيته، فيحرسونه حراسةً شديدةً داخل البيت فلا يدعونه يتعرّض للهواء أو يتمتَّع بالنور، أو يسمعُ وقعَ الخطى، حتى ولا ضجّة أهل البيت، ويتناول طعاماً خفيفاً جدّاً وبكمّيّة محدودة، يكون مغذّياً أكثر منه طيّباً.

كالدنو من الشمس

١١ - كلّ هذه الخصائص التي تضمن للنفس أماناً وحماية، تخلق

فيها هذا التطلّع المظلم، لأنها تكون أكثر قرباً من الله؛ فكلّما اقتربت النفس من الله، كلما أحسّت، من جرّاء ضعفها، بظلماتٍ أشدّ إظلاماً وعتمةٍ أكثر كثافةً؛ شأنها شأن مَن كلّما دنا من الشمس، كلّما سبَّب له بهاؤها الساطع ظلماتٍ وعذاباً بسبب وهن عينيه وقذارتهما. هكذا، فإن نورَ الله الروحي بهيٌّ جدّاً ويفوق العقل الطبيعي بحيث إنه كلّما اقترب العقل منه كلّما أعماه وأظلمه.

وهذا ما دفع داود الى القول في **المزمور الثامن عشر** (١٧ / ١٢)، **إن الله جعل الظلمات مخبأً له وغطاء، وحوله مظلّةً، مياهَ ظلمةٍ في** سحب الهواء[٤] فمياه الظلمة في سحب الهواء هي، حسب قولنا، التطلّع المظلم والحكمة الإلهيّة في النفوس؛ فعندما يضمُّها الله أكثر فأكثر اليه، تحسّ بأن [الحكمة] شيءٌ قريب منه أو مظلّة يسكن فيها. ولذلك، فما يكون في الله نوراً وضياءً ساميين جدّاً، يكون للانسان، حسب قول القديس بولس (١ **قور** ٢/ ١٤)، ظلاماً حالكاً جدّاً؛ ومثله يعقّب داود شارحاً بقوله في المزمور عينه: **من جرّاء البهاء القائم في حضرته، خرجت سُحُبٌ وشلّالات** (**مزمور** ١٨/ ١٢)[٥]، أي مرّت على العقل الطبيعي الذي **أظلم نورُه في غمامه**، كما يقول أشعيا في الفصل الخامس (٣٠/ ١٥).

---

(٤) في الترجمة الحديثة: **أقام من الظلمة حجاباً له، ومن ظلمات المياه وظلمات الغيوم خيمةً له.**

(٥) في الترجمة الحديثة: **أمام بهائه مرّت الغيوم.**

تَعَس الحياة

١٢ - ما أتعس حظَّ الحياة، حيث نعيش وسط أخطار جسيمة، ولا تُعرف الحقيقة إلا بصعوبة فائقة! فإن الأمر الأكثر وضوحاً وحقيقةً، يصبح بالنسبة الينا الأشدَّ ظلاماً وشكّاً؛ لذلك ترانا نهرب منه مع كونه الأنسب إلينا. كما أننا نغمر ما يسطع سطوعاً ويملأ بصرنا، ونسعى وراءه مع أنه أقل نفعاً لنا، اذ يجعلنا نعثر لدى كل خطوة!.

ما أكثر ما يعيش الإنسان وسط المخاطر والمخاوف! فإنَّ نور عينيه الطبيعي، الذي به يهتدي، هو أوَّل ما يبهره ويضلّه في مسيرته نحو الله؛ واذا أراد أن يكتشف أين يذهب، فما عليه إلّا ان يغمض عينيه ويمضي في ظلمة ليسير بمأمن من الأعداء، خدّام بيته، وهم حواسّه وقواه!

حماية المياه المظلمة

١٣ - فحسنٌ للنفس إن بقيت هنا محتجبةً وبأمنٍ في هذه المياه المظلمة، لأنها تكون قريبة من الله. وبما أن تلك المياه هي بمثابة خباءٍ لله عينه ومسكن، فإنها تصبح النفس أيضاً، لا أكثر ولا أقل، خباء ومسكناً، وملاذاً تامّاً وأمناً، وإن كانت النفسُ وسط الظلمات، حيث تحتجب وتحتمي من ذاتها، كما قلنا، ومن جميع أذيّات الخلائق.

بذلك يُفهَم ما يشير اليه داود في المزمور الآخر قائلاً: **في ستر وجهكَ**

تسترهم من الناس ودسائسهم، وفي خيمةٍ تصونهم من مخاصمة الألسنة (مزمور ٣١/ ٢٠). ويقصد بذلك جميع أنواع الحماية. فالاختباء تحت ستر وجه الله من كيد الناس هو التحصّن بهذا التطلّع المظلم ضد المكائد التي قد تفاجئهم من جهة الناس. والاحتماء بخيمته من مخاصمة الألسنة هو أن تبقى النفس مغمورةً بهذه المياه المظلمة، وهي الخيمة التي يشير اليها داود. ينتج عن ذلك أن النفس، بعد فطامِ جميع شهواتها وعواطفها، وتعتيم قواها، تصبح حرّةً من جميع النقائص التي تضادّ الروح، سواء أتت من جسدها أم من الخلائق الأخرى. لذلك، تستطيع النفس أن تقول إنها تسير في ظلمة وبأمان.

قوّة مياه الله

١٤ - وهناك، أيضاً سببٌ آخر لا يقلُّ شأناً عن سابقه، يساعدنا على أن نفهم جيّداً كيف أنّ تلك النفس تسير بأمان وسط الظلمات، وهو القوّة التي تضعها حالاً في النفس، مياهُ الله تلك، المظلمة، والمضنية والحالكة. لأنها، مع كونها مظلمة، فهي في النهاية، ماء ولا تفتأ تنعش النفس وتقوّيها في أفضل ما يناسبها، حتى ولو تمَّ ذلك وسط الظلمة والعذاب. لأن النفس سرعان ما تجد في ذاتها عزماً حقيقيّاً وفعّالاً على أن تُحجم عن أيِّ عمل تعرف أنه إهانةٌ لله، وألا تُهمل شيئاً يتعلّق بخدمته. فإن ذلك الحبَّ المظلم يلازمها مقروناً بسهر حريص ونشاط داخلي، نسبة الى ما يجب أن تفعله أو تُهمله بُغيةَ إرضائه، فتفتش في ذاتها ألف مرّة إن كان فيها سببٌ لاغاظته؛ وتقوم بذلك كلّه، بعناية واهتمام أكثر من ذي قبل،

كما أشرنا سابقاً في حديثنا عن لهفات الحبّ. ففي هذه الحالة، تكون جميع شهوات النفس وقدراتها وقواها مختليةً عن سائر الأشياء، تصبّ جهدها وقدرتَها في خدمة الله وحده.

بهذه الطريقة تخرج النفس في ظلمة وبأمان من ذاتها، ومن جميع الأشياء المخلوقة، نحو الاتحاد بالله بالحب اتحاداً عذباً لذيذاً.

الفصل السابع عشر

يُشرَح كيف أن التطلّع المظلم هو سرّي.

عبر السلَّم السرّي متنكّرة

خصائص ثلاث

١ - ينبغي لنا ان نشرح خصائص ثلاثاً تقابل الالفاظ الثلاثة التي يتضمنها هذا البيت: فاللفظتان **السلّم والسرّية** تختصّان بليل التطلّع المظلم الذي نحن بصدده؛ أما الثالثة أي **متنكّرة**، فتختصّ بالنفس، بسبب طريقة سيرها في هذا الليل.

بالنسبة الى النقطة الأولى تجدر الملاحظة أنَّ النفس، هنا، في هذا البيت، تسمّي **سلَّماً سرّيةً** هذا التطلّع المظلم الذي ترتقي به إلى الاتحاد بالحبّ، نظراً إلى الميزتين اللتين يمتاز بهما وهما سرّي، وأنه **سلّم**؛ وسنشرح كلًّا منهما على حدة.

سرّية التطلّع

٢ - أولاً: إنها تسمّي هذا التطلُّع الحالك **سرّيًا** لأنه، كما أشرنا سابقاً، اللاهوت الصوفي الذي يسمّيه اللاهوتيون حكمةً **سرّية** يقول عنها القديس توما إنها تُفاضُ في النفس عن طريق الحبّ[1]. يتمّ ذلك سرّيًا، وبخفية عن عمل العقل وسائر القوى. وبالنتيجة، يُسمَّى ذلك [التطلّع] سرّيًا لأن القوى المذكورة لا تستطيع بلوغَه، بل إن الروح القدس وحدَه يُفيضه في النفس ويرتّبه، كما تقول عروس **الأناشيد** (٤/٢)، دون أن تعلم أو تدرك كيف تم ذلك. وفي الحقيقة، ليست النفس وحدها عاجزةً عن إدراكه، بل لا أحد يستطيع ذلك، ولا الشيطان نفسه. لأن المعلِّمَ الذي يلقِّن تلك الحكمة ساكنٌ في داخل النفس جوهريًا، حيث لا يستطيع الشيطان ولا الحسّ الطبيعي ولا العقل أن يصلوا إليه.

تجاوز الحواس

٣ - وليس لهذا وحده تُسمَّى [هذه الحكمة] سرّيَّةً، لكن، أيضاً، بسبب المفاعيل التي تُحدثها في النفس. ولا تكون سرّيَّةً فقط، عندما تطهِّر النفس بواسطة ظلمات التطهر وضيقاته حتى إنَّ النفس لا تتمكّن من الافصاح عنها؛ بل تكون كذلك في الاستنارة عندما تُفاض هذه الحكمة

---

(١) المرجع المُرَجَّح لهذه الفكرة هو **الخلاصة اللاهوتيّة** ٢،٢ مسألة ٤٥ أ ٢، ج، حيث يقول: «فالحكمة اذاً، وهي هبة، تجد علّتها في الارادة أيّ المحبّة».

في النفس بنوع أوضح، وتبلغ من السرّيَّة مبلغاً تعجز النفس معه عن إعلانها وعن تسميتها لكي تُعلِنَها، ولا تثير في النفس أيَّ رغبةٍ في إعلانِها؛ فلا تجد حيلةً أو طريقةً أو تشبيهاً ملائماً يمكنها أن توضح به هذا الإدراك السامي، وهذا الشعور الروحيّ المرهف. ومهما رغبت النفس في إعلان [هذه الحكمة] ومهما ساقت من تعابير فستبقى سرّيَّة وبحاجةٍ إلى الافصاح عنها.

ولما كانت تلك الحكمة الباطنيَّة بسيطةً وشاملةً وروحيَّةً جدًّا بحيث إنها لم تدخل العقلَ ملفوفةً ولا ملتحفةً بأيِّ نوع أو صورة في متناول الحسّ، ينتج عن ذلك أنَّ الحسَّ والمصوِّرة اللذين لم تدخلهما [تلك الحكمة] ولم يَرَيا زيَّها أو لونها، لا يدركانها أو يتصوَّرانها لتستطيع النفس الإفصاحَ عنها، بالرغم من رؤية النفس بوضوح أنها تدرك وتتذوَّق تلك الحكمة العذبة والغريبة.

وتشبه في ذلك من يَرَى شيئاً لم يره قط، ولم يَرَ له مثيلاً؛ فلئن فَهمه وذاقه، فلن يعرفَ تسميته، ولئن حاول جاهداً فلن يحسن الافصاح عنه؛ وإذا كانت تلك حالُ ما أدركه بواسطة الحواسّ، فقلّما يمكنه التعبير عمّا لا يُدرَك بواسطتها.

وبما أنَّ كلام الله ينفذ إلى أعماق النفس، وهو روحيٌّ جدًّا، ويفوق كلَّ حسّ، فانه يُبطِل حالاً ويُسكِت كلَّ تناسق ومهارة في الحواس الخارجية والداخليَّة.

عجز المصوِّرة

٤ - ويجمع الكتاب الإلهي شواهد وأمثلة على هذا الموضوع. فالعجز عن تبيانه والتكلّم عليه خارجيًّا أبداه **إرميا** عندما خاطبه الله فلم يعرف أن يقول إلّا: آ، آ، آ! والعجز الداخلي، أي [عجز] حسّ المصوِّرة الداخلي إضافةً إلى [عجز حسّ المصوِّرة] الخارجي حيال هذا الموضوع، أظهره **موسى** أمام الله في العلّيقة (**خروج** ٤ / ١٠)؛ في ذلك الحين، وبعدما كان يكلّم الله، لم يقل له فقط إنه لا يعرف أن يتكلّم ولا ينجح فيه، لكنه، وحسب رواية **أعمال الرسل** (٧ / ٣٢)، **لم يكن يجرؤ على إنعام النظر** فيه بالمصوِّرة الباطنيّة، لاعتقاده بأنَّ مصوِّرته كانت بعيدة جدًّا وخرساء، وأعجز من أن تتصوَّر شيئاً كان يُدرِكه عن الله، بل حتى من أن تتلقّى شيئاً منه.

وبالنتيجة، فبما ان حكمة هذا التطلّع هي حديثُ الله للنفس، من روحٍ محض الى روحٍ محض، فالحواس، شأنها شأن كلِّ ما هو دون الروح، لا تتلقّاه، ويبقى خفيًّا عليها فلا تعرف ولا تستطيع أن تعبِّر عنه، ولا ترغبُ في ذلك لأنها لا تدري كيف.

العجز عن التعبير

٥ - ممّا تقدّم، يمكننا أن نستخلصَ السبب في أنَّ بعض الأشخاص الذين يسلكون هذه الطريق، وهم ذوو نفوس طيِّبة تقيّة، عندما يودّون إطلاع من يسألهم، على حالهم، لا يعرفون ولا يستطيعون، فينفرون

بشدَّة من الإفصاح عنه ، خاصةً عندما يكون التطلّع أكثر بساطةً ، حتى انَّ النفسَ لا تكاد تشعر بهِ . ولا يُحسِنون إلّا القولَ إنَّ النفس راضيةٌ ، هادئة ومسرورة ، أو القولَ إنهم يحسُّون بالله ، وإنهم ، حسب ظنِّهم ، على ما يُرام ؛ فلا إفصاح عمّا في نفسهم ، ولا تخرج منهم إلَّا عباراتٌ عامة كالتي أوردناها . غير أنَّ الأمرَ يختلف تماماً عندما تشعر النفس بأمور خاصة كالرؤى والمشاعر . .. فبما إن هذه تُنالُ عادةً تحت شكلٍ ما يشترك الحسّ فيه ، لذلك يمكن التعبير عنها تحت ذاك الشّكل أو بتشبيهٍ آخر . بيد أن هذه القدرة على التعبير ليست من خصائص التطلّع المحض لأن هذا التطلّع يجلُّ عن الوصف ، كما قلنا ، ولذلك يُسمَّى سرِّيًّا .

إختفاء النفس

٦ - وليس ما ذكرناه السببَ الوحيدَ الذي لأجله تكون هذه الحكمة الصوفيَّة **سرّية** ، وتسمَّى كذلك ، لكن لأنها تمتاز ، أيضاً ، بأنها تخفي في ذاتها النَفس . فهي ، علاوةً على مفاعيلها العادية ، تمتصُّ النفس أحياناً ، وتُغرقُها في هوَّتها السرِّيَّة بحيث يتَّضح للنفس أنها بعيدةٌ كلَّ البعد عن أيِّ مخلوق ، ويبدو لها أنها أُفرِدَت في عزلة موحشة فسيحة ، حيث يتعذّر على أيِّ خليقةٍ أنسانية ان تصل إليها ، كأنها في صحراء شاسعة مترامية الأطراف ، تكون لذيذةً ، عذبةً ، ودِّيَّةً بقدر ما تكون عميقةً ، واسعةً ، ومعزولة ، حيث ترى النفس ذاتها سرِّيَّةً عندما ترى أنها أرفَعُ من كلِّ خليقةٍ دنيويَّة .

وإنَّ هوّة الحكمة هذه لَتَرفعُ النفس، آنذاك، وتعظّمها وتضعها في شرايين علم الحبّ حتى إنها تعلّم النفسَ ما أشدَّ دناءةَ حالةِ كلِّ خليقةٍ أمام هذه المعرفة السامية وهذا الإحساس الإلهي؛ كما [تعلّمها]، أيضاً، ان تلاحظ كم هي دنيئة وناقصة وغير مناسبة بأيِّ حال جميعُ تلك الكلمات التي تُعالَجُ بها الأمورُ الإلهية في هذه الحياة؛ وأنه مهما كان كلامنا عليها سامياً وحصيفاً، فيستحيل علينا أن نعرفَ بوسيلةٍ وطريقة طبيعيَّتين [تلك الأمور] وأن نحسَّ بها كما هي في ذاتها، بدون إنارة هذا اللاهوت الصوفي. وهكذا، إذ ترى النفس، باستنارتها، هذه الحقيقة، أي أن [الأمور الإلهية] لا يُمكن بلوغُها وشرحُها بألفاظ دنيئة وإنسانيَّة، تسمّيها بحقّ سرّيّة.

كمالات فوطبيعية

٧ - وكونُ هذا التطلّع الإلهي سرّيًّا، ويفوق الطاقة الطبيعية، ميزةٌ يتحلّى بها لا لكونه أمراً فوطبيعيًّا فحسب، بل لأنه أيضاً سبيلٌ يقود النفسَ ويوصلها إلى كمالات الإتحاد بالله؛ وبما أنَّ هذه لا تُعرَف بشريًّا، فيجب أن تسيرَ النفسُ إليها غير عارفةٍ بشريًّا وجاهلةً إلهيًّا. لأننا حين نتكلّم باللغة الصوفية، كما نتكلّم هنا، فإنَّ الأمور والكمالات الإلهيَّة لا نعرفها ولا ندركها كما هي عندما نبحث عنها ونزاولها، بل عندما نجدها وننتهي من ممارستها. وفي هذا الصدد، يقول النبي **باروك** (٣ / ٣١) عن هذه الحكمة الإلهية: **ليس أحدٌ يعرف طُرُقَها ولا من يستطيع الاطلاع على دروبها**. كما يخاطب النبي الملك الربّ بهذه العبارات مشيراً إلى طريق النفس هذا:

بُروقُك سَطَعت وأضاءَت كُرَةَ الأرضِ ، الأرض ارتعدت وتزلزلت . في البحر طريقك ، ودروبُك في المياه الغزيرة ، وآثارُك لا تُعلم (مزمور ٧٦ / ١٩ - ٢٠)

شرحٌ وتطبيق

٨ - وحين نتكلَّم روحيًّا ، فكلُّ هذا يطبَّق على ما نحن بصدده . فأن تنيرَ أضواءُ الله كرة الأرض هي الإنارة التي يُحدثها هذا التطلّع الإلهي في قوى النفس ؛ وارتعاد الأرض وزلزلتُها هما التطهّر المبرِّح الذي يحدثه [التطلّع] في النفس ؛ والقولُ إنَّ طريق الله وسبيلَه الذي تسلكه النفس ، هو في البحر ، وإنَّ آثاره في المياه الغزيرة ، ولذلك لا تُعلَم ، فذاك يعني أنَّ الطريق الذي يؤدِّي إلى الله هو سرِّيٌّ جدًّا وخفيٌّ جدًّا على حسّ النفس ، كما هو خفيٌّ على حسّ الجسد طريقُ البحر حيث لا تُعرف دروبهُ وآثارهُ . وتلك ميزة الخطوات والآثار غير المعروفة التي يطبعها الله في النفوس التي يريد أن تصل إلى هذه الحالة ، إذ يجعلها عظيمةً في اتحاد حكمته . ولذلك نقرأ في كتاب **أيُّوب** (٣٧ ، ١٦) هذه العبارات التي تدعم رأينا : **هل عرفتَ السُحُب أو العلومَ الكاملة؟**[٢] وهو يعني بذلك السُبُل والطُرُقَ التي فيها يعظِّم الله ويكمِّل في حكمته النفوسَ المشار إليها هنا بالسحب . ولهذا ، فقد ثَبُتَ أنَّ هذا التطلُّع الذي يقود النفس إلى الله هو حكمة سرِّيَّة .

---

(٢) في الترجمة الحديثة : **أتعَلَمُ موازنة الغيوم، عجائب المعرفة التامة؟**

الفصل الثامن عشر

يشرح كيف أن هذه الحكمة السرّيّة هي أيضاً سُلَّم.

رمز السلّم

١ - يبقى علينا الآن أن نرى الميزة الثانية، أي كيف أنَّ هذه الحكمة السرّيَّة هي أيضاً سلَّم. وفي هذا الخصوص، يجب القول إنه لأسبابٍ عديدة يمكننا ان نسمِّي هذا التطلّع السرّي سلَّماً.

أولاً، لأنه كما يصعدون بواسطة السلّم، ويتسوّرون[1] الخيرات والكنوز والأشياء الموجودة في الحصون، هكذا أيضاً يحدث في هذا التطلّع السِّرّي: فالنفس، دون أن تدريَ كيف، تصعد لتتسوَّرَ وتعرفَ وتملك خيراتِ السماء وكنوزَها. وهذا ما يوضحه النبي الملك بقوله: **طوبى للذي بك عزَّتهُ وعونه ،فقد وضع المراقي في قلبه ،ووضع مكانه**

---

(١) مِن تَسوَّر أي تسلّق السور، وقد يقصد بها الكاتب تسلّق اللص كما جاء في خطاب يسوع في **يوحنا** ١٠/ ١.

في وادي الدموع. فبذلك يباركه ربُّ الشريعة، فينطلقون من قوّةٍ إلى قوّةٍ، ويتجلّى إله الآلهة في صهيون (مزمور ٨٤ / ٦ - ٧)[٢]،

وهو كنز حصن صهيون أي السعادة.

سلّم الصعود والهبوط

٢ - ويمكننا أيضاً أن نسمّي [هذه الحكمة] سلّماً: فكما ان السلّم تحوي مراقي تُستعمل للصعود وللهبوط، كذلك هذا التطلّع السِّرّي: فالاتصالات التي يحدثُها في النفس ليرفعها إلى الله، هي نفسها تُواضِع النفس في ذاتها. لأنَّ الاتصالات التي تأتي من الله حقًّا تتّصف بأنها ترفع النفس وتُواضِعها في آنٍ معاً؛ ففي هذا الطريق الهبوط صعود، والصعود هبوط، لأنَّ من **اتَّضعَ رُفِعَ، ومن ارتفع وُضِعَ** (**لوقا** ١٠/١). وبالإضافة إلى أنَّ فضيلةَ التواضع عَظيمَةٌ، لكي تتمرَّسَ النفس بها، فمن عادة الله أن يرفعها بواسطة هذه السلَّم لكي تنحدر، ويُحدِرَها لكي ترتفعَ، فيتمُّ قول الحكيم: **تُواضَعُ النفسُ قبل أن تُرفَعَ، وقبل أن تُواضَعَ تُرفَع**[٣].

---

(٢) في الترجمة الحديثة: **طوبى للذين بك عزّتُهم، ففي قلوبهم مراقٍ إليك. إذا مرُّوا بوادي البَلَسان جعلوا منه ينابيع، وباكورةُ الأمطار تغمرهم بالبركات. من ذروةٍ الى ذروةٍ يسيرون، حتى يتجلّى الله لهم في صهيون.**

(٣) في الترجمة الحديثة: **قبل التحطّم يترفّع قلب الانسان، وقبل المجد التواضع.**

تناوب البؤس والرخاء

٣ - وإن تكلّمنا بصورة طبيعيّة نقول إنَّ النفس ستلاحظ ما أشرنا إليه إن أرادت إنعام النظر فيه، فترى علاوةً على الجانب الروحي الذي لا يُحَسّ، كثرة ما تعاني في هذا الطريق من الصعود والهبوط، وكيف يعقب ما تنعم به من رخاء عاصفةٌ ما ومشقّة، حتى ليُتَخيَّل إليها أن ذاك الرخاء لم يُعطَ لها إلّا لإنذارها وتقويتها من أجل الجفاف التالي؛ وترى أيضاً كيف يلي البؤسَ والبلبلةَ الرخاءُ والصفاء، بحيث يبدو للنفس أنها وُضعت قبلاً في ذلك السَهَر لكي يقام لها ذاك العيد. وهذا هو الأسلوب المتَّبع، عادةً، في حال التطلّع، حتى بلوغ حالة السكينة: فلا ثباتَ في حالٍ واحد، بل صعودٌ وهبوطٌ مستمرّان.

سلّم يعقوب

٤ - والسبب في ذلك: هو أن حال الكمال القائم على حبٍّ كاملٍ لله واحتقارٍ للذات لا يكون إلّا بِطَرَفيه أي معرفة الله ومعرفة الذات، فيجب على النفس أن تتمرَّس أولاً بالاثنين على السواء، فيُتاح لها تذوّقُ الأول لتتعاظم، أو تُمتَحَن بالآخر طوراً وتتواضَع، حتى إذا ما اكتسبت الملَكات الكاملة يتوقّف الصعود والهبوط، لأنها تكون قد وصلت إلى الله والتقت به، وهو القائم في نهاية السلّم، وإليه تستند السلَّم وعليه ترتكز.

ويمثّل سلَّمَ التطلّع هذه، الآتية من عند الله، كما قلنا، تلك السلّم التي رآها يعقوب في أثناء نومه، والملائكة تنزل من لدن الله إلى الإنسان، وتصعد من عند الإنسان إلى الله الذي كان متّكئاً إلى أعلى السلّم (**تكوين** ١٢/٢٨). ويقول الكتاب الإلهي إن ذلك كلَّهُ كان يحدث في الليل بينما يعقوب نائم، ليوضِحَ كم أنَّ هذا الطريق الصاعد إلى الله هو سرّيٌّ ومختلفٌ عن معرفة الإنسان. وهذا الأمر واضحٌ كلَّ الوضوح: لأن الإنسان، عادةً، يحسب أمراً سيّئاً أكثرَ ما ينفعه، أي خسرانَ الذات وملاشاتها، كما يحسب خيراً أفضلَ ما دونه قيمةً أي نوال التعزية والعذوبة، إن توفّر لهُ ذلك، حيث يخسر عادةً أكثر مما يربح.

معرفة ودّية مفاضة

٥ - ولكن ان تكلّمنا الآن بصورة أعمق على جوهر سلّم التطلّع السرّيَّة هذه، نقول: إنَّ الميزة الأهمّ التي لأجلها يُسَمَّى هذا التطلّع سلَّماً، هي كونُ التطلّع عِلمَ الحبّ، وهو، كما قلنا، معرفةٌ لله ودِّيَّةٌ مُفاضة تُنير النفسَ وتُضرِمُها معاً، بحيث يرفعها إلى الله خالقها درجةً تلو درجة، فالحبُّ وحده يوحِّد النفسَ بالله ويجمَعُها به.

وبالتالي، فلمزيد من الإيضاح، سنورد هنا مراقي هذه السلّم الإلهية، واصفين باقتضابٍ علاماتِ كلٍّ منها مع مفاعيلها، كي يتسنّى للنفس أن تقدِّرَ إلى أيٍّ منها قد بلغت.

ولذا سوف نميِّزها بواسطة مفاعيلها، كما فعل القديسان برنردوس وتوما، إذ يتعذَّر علينا معرفتها بطريقة طبيعية كما هي في ذاتها، وذلك لأن سلّم الحبّ هذه سرِّيَّةٌ لا يستطيع قياسَها وتقديرَها إلَّا الله(٤).

(٤) المرجع المشار إليه في برنردوس وتوما الاكويني، ليس في الحقيقة لأيٍّ منهما، بل لأحد الرهبان الدومينيكيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر واسمه الفيكوس توتونيكوس أو إلفيك دي جيرمار، Helvicus Teutonicus ou Helwic de Germar. وله كتيِّب عنوانه: **في درجات الحبّ العشر حسب برنردوس** *De decem gradibus amoris secundum Bernardum.* وقد طبع هذا الكتيِّب في مجموعة مؤلفات للقديس توما الأكويني في سنة ١٤٩٨ أو طبعة روما ١٥٧١ (عن الناشر).

الفصل التاسع عشر

ذكر الدرجات الخمس الأولى في سلّم الحبّ[1].

سقمٌ وتلاشٍ

١ - نقول إن درجات سلّم الحبّ هذه، التي ترتقي النفس بها إلى الله من درجة إلى درجة، هي عشرٌ. فالدرجة الأولى تُسقم النفسَ بطريقة مفيدة. ومن على درجة الحبّ هذه تتكلّم العروس عندما تقول: **أستحلفكنّ يا بنات أورشليم، إن التقيتنّ حبيبي، أن خبّروه بأنّ الحبّ قد أسقمني** (نشيد ٥ / ٨). **لكنّ هذا السقمَ لا يؤدي إلى الموت، بل إلى مجد الله** (يوحنا ١١/٤)، لأن النفس، في هذا السقم، قد تلاشت عن الخطيئة وعن كلّ ما ليس الله، لأجل الله نفسه، كما يشهد داود قائلاً: **فنَيَتْ نفسي عن جميع الأشياء في سبيل خلاصِكَ** (مزمور ١١٩/١١). فكما يفقد السقيمُ الشهيَّة إلى كلّ الأطعمة ولذّتها، ويتبدَّل لونه السابق، كذلك تفقد النفسُ في درجة الحبّ هذه، الشهيَّة إلى جميع الأشياء ولذّتها، ويتبدَّل،

---

(١) عنوان هذين الفصلين هما من الناشر الحالي EDS.

كالعاشق ، لونُ حياتها السابقة وتصرّفها . ولا يُصيب هذا المرضُ النفسَ إن لم يُرسَل إليها من علُ فيضُ الحرارة ، كما تلمِحُ إلى ذلك آية داود التالية : **س تُفرِدُ يا الله ، غيثاً سخيّاً لميراثك** ، فأصابه السقمُ الخ . . . **(مزمور ٦٨/ ١٠)**[٢] .

هذا السقم وهذا التلاشي عن كلِّ الأشياء ، وهو البداية والدرجة الأولى للذهاب إلى الله ، قد شرحناهما ، آنفاً ، شرحاً وافياً لدى كلامنا على التلاشي الذي تعانيه النفس عندما تشرع في تسلّق هذه السلّم ، سلّم التطهير التطلّعي ، فلا تستطيع حينها أن تجد متعةً أو سنداً أو عزاء أو راحةً في أيِّ شيء . ولذلك ، تبدأ حالاً بالانتقال من هذه الدرجة إلى الدرجة الثانية وهي :

التماس الله

٢ - الدرجة الثانية تجعل النفس تلتمس الله دون انقطاع . ولذلك ، فعندما قالت العرسُ ، بعدما بحثت عن [العريس] ليلاً في فراشه ، - وهي خائرة في درجة الحبِّ الأولى - إنها لم تجده أضافت : **سأنهض وألتمس من تحبّه نفسي (نشيد ٣/ ٢)** . وهذا ما تقوم به النفس دون كلل ، كما سبق القول ، ووفقاً لمشورة داود القائل : **ملتمسةً وجهَ الله كلَّ حين (مزمور ١٠٥/ ٤)** ، فتلتمسه في كلِّ الأشياء ، ولا تتوقّف في أيِّ شيء حتى تجده ، كالعروس التي بعدما سألت الحرّاس عن [عريسها] تركتهم وتجاوزتهم

---

(٢) في الترجمة الحديثة : **مَطَرَ هِباتٍ أنزلتَ ، يا الله ، ومِراثُك المرهَق شدَّدْتَ .**

(**نشيد الأناشيد** ٣/٣ -٤) ؛ وكذلك مريم المجدلية ؛ لم تتوقّف حتى مع الملاكين عند القبر (**يوحنا** ١٤/٢٠) .

فالنفس ، هنا في هذه الدرجة ، تسير بلهفةٍ شديدة ملتمسةً الحبيبَ في كلِّ الاشياء : إن فكّرت في شيء فحالاً تفكّر في الحبيب ؛ وإن تكلّمت أو عَرَضَ لها بعضُ الأمور فحالاً تتكلّم على الحبيب ، وبه تتداول ؛ وإن أكلت أو نامت أو سهرت ، أو قامت بأيِّ عمل ، فلا همَّ لها إلّا الحبيب ، كما شرحنا سابقاً في « **لهفات الحب** » .

ولمّا كانت النفس ، هنا ، تتماثل للشفاء وتستعيد قواها في حبِّ هذه المرقاة الثانية ، فإنها تباشر حالاً الصعود إلى المرقاة التالية بواسطة درجة جديدة من التطهير في الليل ، كما سنقول لاحقاً ؛ وهذا يولّد في النفس المفاعيل التالية .

اندفاع إلى العمل

٣ - أما الدرجة الثالثة في سلّم الحبّ فهي التي تجعل النفس تعمل ، وتبعث فيها الحرارة كي لا تزلّ . وفي ذلك يقول النبي الملك : **طوبى للرجل الذي يتّقي الربّ ، ويهوى جدًّا تتميمَ وصاياه** . (**مزمور** ١/١١٢) .

فإذا كانت المخافة ، وهي بنت الحبّ ، تبعث فيها هذا الشوق ، فما عساه يفعل الحبُّ نفسه ؟ إن النفسَ في هذه الدرجة تعتبر الأعمال العظيمة في سبيل الحبيب صغيرةً ، والكثيرة قليلةً ، والوقتَ الطويلَ الذي تكرّسه لخدمته قصيراً ، وذلك بسبب لهيب الحبّ الذي تتلظّى به . وتشبه في ذلك

يعقوب الذي بدت له السنوات السبع التي سُخِّرَ على الخدمة فيها - مضافةً إلى سبع سنوات أخرى - قليلةً بالنسبة إلى شدّة حبِّهِ (**تكوين** ٢٩/٢٠).

فإذا كان الحبّ في يعقوب، مع انهُ حبٌّ لمخلوقة، له هذا التأثير، فما عساه يفعل حبُّ الخالق عندما يتملّك النفس في هذه الدرجة الثالثة؟

وبسبب شدّة حبِّ النفس لله فإنها تغتمّ هنا وتتألّم كثيراً لقلّة ما تعمل في سبيل الله؛ ولو جاز لها أن تفنى الفَ مرّةٍ لأجله، لكانت سعيدة. لذلك فهي تحسب ذاتها بدون نفع في كلِّ ما تعمل، كما يخيَّل إليها ان حياتها بدون جدوى.

ويَحدثُ فيها تأثيرٌ آخر عجيبٌ وهو اقتناعُها بأنها، حقًّا، شرٌّ من سائر النفوس جميعاً. أولاً: لأن الحبَّ يعلّمها ما يستحقّ الله؛ وثانياً، لأنها بكثرة الأعمال التي تقوم بها، هنا، من أجل الله، والتي تعرف أنها كلُّها دنيئة وناقصة، تجني منها جميعاً خِزياً وألماً، لعلمها أن تصرّفها دنيء جدًّا إزاء ربٍّ سامٍ كلَّ السموّ. ففي هذه الدرجة الثالثة تسير النفس بعيدةً كلَّ البعد عن الغرور أو الادّعاء ودينونة الآخرين.

هذه المفاعيل اللاهفة وأخرى كثيرةٌ تماثلها، تسبّبها في النفس هذه الدرجة الثالثة؛ ولذلك فالنفس تستمدّ منها عزماً وقوّةً للإرتقاء إلى الرابعة التي تلي.

عذاب من أجل الحبيب

٤ - الدرجة الرابعة في سلّم الحبّ هذه، هي التي ينشأ من خلالها في النفس عذابٌ عاديٌّ لا يكلّ من أجل الحبيب. فكما يقول القديس

أغسطينوس : جميع الأمور الهائلة والصعبة والمضنية يجعَلُها الحبّ سهلة ،[٣] . والعروس في هذه الدرجة ، ورغبةً منها في أن تكون قد بلغت الدرجة الأخيرة ، تهتف إلى العريس قائلة : **إجعلني كخاتم على قلبك ، كخاتم على ذراعكَ ؛ فإنَّ الحبّ** أي فعلُ الحبِّ وعملهُ ، **قويٌّ كالموت ، والغيرة قاسيةٌ ومِلحاحٌ كالجحيم** (**نشيد الأناشيد** ٦/٨)[٤].

والروح هنا ، يكون من القوة بحيث إنه يلجم الجسد وقلَّما يكترث له ، كما لا تكترث الشجرة لاحدى أوراقها . والنفس ، هنا ، لا تلتمس بأيِّ حال من الأحوال عزاءَها أو متعتَها لا في الله ولا في أيِّ شيء آخر ، ولا ترغب في أن تطلب من الله نعماً ، ولا تطمح إلى ذلك لعلمها بأنهُ قد ، منَّ عليها بالكثير ، فتجعل جلَّ اهتمامها في إرضاء الله بعض الرضى وخدمته أي خدمة من أجل ما يستحقّه هو وما قد نالته هي ، مهما كلّفها ذلك من تضحيات . فهي تقول في قلبها وروحها : أيا ربّي وإلهي ! ما أكثر الذين يلتمسون فيك العزاء واللذّة ، وان تمنحهم نِعَماً وهبات ! وما أقلَّ أولئك الذين يَنْشدون مرضاتك ويعطونك شيئاً قد يكلّفهم ، مؤثرين ذلك على مصلحتهم الخاصة . لأن الخطأ، يا إلهي ، ليس في أنك لا تريد أن تغدق علينا نعمك من جديد ، بل في اننا لا نوظّف في خدمتك ما قد وهبتنا من نعم ، لِنُجبِرَك على أن تواصِل منحها لنا .

حقًّا إنها لرفيعةٌ جدًّا هذه الدرجة في الحبّ ، لأنه إذ تندفع النفس ،

---

(٣) **عظة** ٧٠، في **مجموعة الآباء اللاتين** ٣٨، ٤٤٤٤.

(٤) في الترجمة الحديثة : **والهوى قاسٍ كمثوى الأموات** .

هنا ، بحبّ صادق ، وراء الله ، وبروح التألم لأجله ، فإن جلاله يعطيها السرور غالباً وبتواتر ، ويفتقدها في روحها بالعذوبة واللذّة ؛ لأنّ الحبَّ العظيم الذي يكنّه المسيح الكلمة لا يستطيع تحمُّل رؤية الحبيبة وسط العذاب دون أن يهرع إلى مساعدتها . وهذا ما يؤكده على لسان إرميا القائل : **قد تذكّرتُ لك مودّة صبائك محبّة خطبتكِ إذ سرت ورائي في البريّة** (**إرميا** ٢ ، ٢) وهذا يعني ، باللغة الروحيّة ، انسلاخَ النفس ، هنا ، داخليًا عن كلّ خليقة ، دون أن تتوقّف عند أيِّ شيء أو ترتاح في أيِّ شيء . فهذه الدرجة الرابعة تُلهب النفس لهيباً وتُضرم فيها شوقاً شديداً إلى الله يرفعها إلى الدرجة الخامسة وهي التالية .

شوق إلى الله

٥ – أما الدرجة الخامسة من سلَّم الحبّ فتجعل النفس تصبو وتشتاق إلى الله بفارغ الصبر . ففي هذه الدرجة تكون رغبة المحبّ في غمر الحبيب والاتحاد به من الشدّة بحيثُ إن كلَّ تلكُّؤ ، مهما كان ضئيلاً ، يبدو لهُ طويلاً جدًّا ومضنياً وثقيلاً ، فيفكّر دوماً في العثور على الحبيب . وعندما يخيب أمله – وهذا ما قد يحدث عند كل خطوة – يذوب في اشتياقه كما يقول صاحب المزامير في كلامه على هذه الدرجة : **تشتاقُ وتذوبُ نفسي إلى ديار الربّ** (**مزمور** ٨٤ / ٣) . وفي هذه الدرجة ، لا يستطيع المحبّ إلّا رؤية من يحبّ أو الموت ؛ شأنه شأن راحيل ؛ فمن شدّة شوقها إلى الأولاد قالت لزوجها يعقوب : **هبني أولاداً وإلّا فإني أموت** (**تكوين**

١/٣٠) . يتضوَّرون ، هنا ، كالكلاب جوعاً ، ويطوفون مدينة الله (**مزمور** ٧/٥٩) . ففي درجة الجوع هذه تقتات النفس بالحبّ ، وعلى قدر الجوع يكون الشبع . ومن هنا تستطيع النفس الارتقاء إلى السادسة التي تولِّد المفاعيل التالية (٥) .

(٥) لا تبدو قسمة درجات الحبّ الى فصلين مقنعة من الناحية المنهجية ، إن هي إلّا ترتيب اعتمدته الطبعة الأولى تسهيلاً للقارئ (عن الناشر) .

الفصل العشرون

تُعرَض الدرجات الخمس الأخرى.

على أجنحة النسور

١ – الدرجة السادسة تجعل النفس تركض بخفَّة نحو الله وغالباً ما تدركه، فتعدو بالرجاء دون عياء، كأنّ الحبَّ الذي قوّاها جعلها تطير بخفّة. وعنها يقول أشعيا أيضاً: **الأبرار الراجون للربّ يتجدّدون قوّةً، يتّخذون أجنحةً كالنسر، يطيرون ولا يعيون (أشعيا ٤٠ / ٣١)**، كما كانوا يفعلون في الدرجة الخامسة. وإلى هذه الدرجة يعود، كذلك ما يقول المزمور: **كما يشتاق الايّل إلى مجاري المياه، كذلك تشتاق نفسي إليك، يا الله (مزمور ٢/٤١)**. إذ إنّ الأيّل، عندما يعطش، يعدو بسرعة فائقة صوب المياه. وسبب ما تظهره النفس من سرعة في الحبّ في هذه الدرجة، هو انّ المحبّة قد توسَّعت كثيراً في النفس التي تماثلت الآن إلى التطهير الكامل، كما ورد في **المزمور** أي: **بدون إثمٍ ميّ ركضتُ (مزمور ٥٩ / ٥)**؛ وفي **مزمور** آخر: **أُسرِعُ في طريق وصاياك حين تشرح قلبي (مزمور ١١٩ / ٣٢)**. ومن هذه الدرجة السادسة تنتقل النفس حالاً إلى التالية وهي السابعة.

الجرأة

٢ - الدرجة السابعة في هذه السلّم تجعل النفس في غاية الجرأة. فالحبّ، هنا، لا يستفيد من العقل كي يتريَّث، ولا يستعين بالمشورة كي ينسحب، ولا يمكن للخجل أن يصدَّه، لأن فضلَ الله على النفس هنا يقوّي جسارتها. لذلك يقول الرسول: **المحبّة تصدّق كلَّ شيء، ترجو كلَّ شيء وتقدر على كلِّ شيء** (١ **قورنتس** ١٣ / ٧). وإنَّ موسى قد تكلَّم على هذه الدرجة عندما طلب من الله **أن يصفح عن الشعب وإلّا فليَمْحُه من كتاب الحياة حيث كان قد دَوَّنهُ** (**خروج** ٣٢ / ٣١ - ٣٢).

هؤلاء يحصلون من الله على كلِّ ما يطلبون منه بلذّة. لذلك يقول داود: **تلذَّذْ بالله فيعطيك سؤلَ قلبك** (**مزمور** ٣٧ / ٤) وفي هذه المرقاة تجرّأت العروس على القول: **ليقبّلني بقُبَل فيه** (**نشيد الأناشيد** ١ / ١). ومتى بلغت هذه الدرجة لا يجوز للنفس أن تكون جَسورةً إن لم تَحْظَ في باطنها بصولجان الملك ممدوداً صوبها (**أستير** ٥ / ٢)، لئلّا تهويَ، ربّما، من سائر الدرجات التي صعدتها حتى الآن؛ بل ينبغي أن تحافظ دوماً على تواضعها.

وعن هذين الدفع والجسارة اللذين يعطيهما الله للنفس في هذه الدرجة السابعة، لكي تتجرَّأ نحو الله بشدَّة الوجد، تنتج الدرجة الثامنة التي تجعل النفس تمسك بالحبيب وتتّحد بهِ على النحو التالي.

الإمساك بالحبيب

٣ - أما درجة الحبِّ الثامنة فإنها تجعل النفس تمسك [بالحبيب]

وتضمُّهُ إليها فلا تطلقه، كما تقول العروس: **لقد وجدت من يحبُّهُ قلبي ونفسي، فأمسكته ولستُ أطلقه (نشيد الأناشيد ٣ / ٤)**. ففي هذه الدرجة من الاتحاد، ترضي النفسُ رغبتها ولكن ليس بصورة مستمرَّة؛ لأن بعضهم ما إن يضعوا أرجلهم في هذه الدرجة حتى يسحبوها؛ إذ لو دام الأمر طويلاً، لشعروا بشيء من المجد في هذه الحياة. فالنفس لا تمكث في هذه الحالة إلَّا وقتاً وجيزاً.

وها هو النبي دانيال، رجل الرغائب، يُؤْمَر من قبل الله بأن يمكث في هذه الدرجة، بهذا القول: **يا دانيال، رجل الرغائب، انتصب في درجتك** (١٠ / ١١).

وهذه الدرجة تتبعها التاسعة، درجة الكاملين كما سنقول لاحقاً، وهي التالية.

الاضطرام بعذوبة

٤ - الدرجة التاسعة تجعل النفس تستعر بعذوبة. وهي درجة الكاملين الذين يضطرمون في الله بعذوبة، لأن هذا الضرام العذب اللذيذ يحدثه فيهم الروحُ القدس بفضل اتِّحادهم بالله. لذلك يقول القديس غريغوريوس عن الرسل، إنهم اضطرموا حبًّا في داخلهم بعذوبة، عندما نزل عليهم الروح القدس بصورة مرئية[1].

---

(١) **العظة الثلاثون حول الانجيل. في مجموعة الآباء اللاتين** ٧٦ ص ١٢٢٠.

أمَّا الخيرات والكنوز الإلهية التي تنعم بها النفس في هذه الدرجة ، فلا يمكن وصفها ؛ فحتى لو كُتبت فيها مؤلَّفات عديدة ، لبقي علينا أن نقول المزيد . فلهذا السبب ، ونظراً إلى ما سنقول في ما بعد ، لن أزيد شيئاً على ما قلت ، إلَّا أن هذه الدرجة تليها العاشرة والأخيرة في سلَّم الحبّ هذه ، والتي لا تتمّ في هذه الحياة .

الله بالمشاركة

٥ – الدرجة العاشرة والأخيرة من سلَّم الحبّ السرّيَّة ، تجعل النفس شبيهةً كلَّ الشّبه بالله ، بفضل الرؤية الجليَّة التي تحصل عليها النفس حالاً . فما إن تصل في هذه الحياة الى الدرجة التاسعة حتى تخرج من الجسد . فهذه الأنفس ، وهي قاسية جدًّا ، بما أنها قد تطهّرت بالحبّ أشدّ التطهير ، لا تدخل في المطهر . لذلك يقول القديس **متى** (٥ / ٨) : **طوبى لأنقياء القلوب ، فإنهم يعاينون الله** ، الخ . . . وهذه الرؤية كما قلنا ، هي السبب في تشابه النفس التام مع الله ؛ فالقديس يوحنا يقول : **نعرف اننا سنكون شبيهين به** (١ **يوحنا** ٢/٣) ، لا لأن النفس تصير كفوءةً لله ، وهذا مستحيل ، بل لأن كلَّ ما في ذاتها يصبح شبيهاً بالله . ولذا فإنها سوف تُسمَّى وتصبح الله بالمشاركة .

الرؤية الجليَّة

٦ – هذه هي السلَّم السّريّة التي تتكلّم عليها النفس هنا ، وإن لم تعد

في هذه الدرجات السُميا سرّيَّةً على النفس، إذ ينكشف الحبُّ للنفس من جرّاء المفاعيل العظيمة التي يحدثها فيها.

ففي هذه الدرجة الأخيرة من الرؤية الجلّية، وهي الرتبة الأخيرة في السلَّم حيث يتكئ الله، كما سبق القول، لا شيء يبقى خفيّاً على النفس بفضل التماثل التام. لذا يقول مخلّصنا (**يوحنا** ١٦ / ٢٣): **في ذلك اليوم لن تسألوني شيئاً** الخ ... لكن طالما ننتظر ذلك اليوم، ومهما ارتقت النفس عالياً، فسيبقى شيءٌ ما خفيّاً عليها؛ وهذا بمقدار ما ينقصها لبلوغ التماثل التام مع الجوهر الإلهي.

وبفضل هذا اللاهوت الصوفي، والحبّ الخفيّ، تخرج النفس رويداً رويداً من جميع الأشياء ومن ذاتها، وتصعد إلى الله. فالحبّ يشبه النار الصاعدة دوماً إلى العلى، مع توقٍ إلى الغوص في وَسَط كُرَتها.

الفصل الحادي والعشرون

تُشرَح كلمة متنكِّرة، وتُذكر ألوان تنكّر النفس في هذا الليل.

١ - بعد أن شرحنا الأسباب التي جعلت النفس تسمّي هذا التطلّع **سلّماً سرّية**، يبقى أن نعرف، الآن، في ما يختصّ بالكلمة الثالثة من هذا البيت، أي **متنكِّرة**، لماذا تقول النفس، أيضاً، إنها خرجت عبر السلّم السرّيّة متنكّرة.

مفهوم التنكّر

٢ - لكي نفهم ذلك يجب أن نعرف أنَّ التنكّر ليس سوى تستّر المرء تحت زيٍّ آخر غير زيّه، والاختباء وراء مظهر آخر غير مظهره: تارة لكي يُظهر تحت ذاك الشكل أو الزيّ ما في قلبه من إرادة أو رغبةٍ في كسب ودّ من يحبُّهُ كثيراً، وأخرى للتستّر على منافسيه فيصيب نجاحاً أوفر في تنفيذ مأربه. ففي تلك الحالة ترتدي النفس من تلك الأثواب والخِلَع ما يمثّل تمثيلاً أفضل ويصوِّر تصويراً أوضح مودَّة قلبها، وما تستطيع به أن تحتجب احتجاباً أشدّ عن أعين أعدائها.

بزّة ثلاثية الألوان

٣ – فالنفس التي أثّر فيها ، هنا ، حبُّ المسيح ، اذ ترغب في خطب ودّه وكسب رضاه ، تخرج ، هنا، متنكّرةً بذلك اللباس الذي يُمثّل أصدق تمثيل عواطف روحها ؛ وتسير به أكثر أمناً من أعدائها ومبغضيها وهم : الشيطان والعالم والجسد . فالبزّة التي ترتديها ذات ألوان ثلاثة أساسية وهي الأبيض والأخضر والأحمر ، وتُشير إلى الفضائل اللاهوتية الثلاث أي الإيمان والرجاء والمحبّة ، التي بواسطتها لا تكسب عطف الحبيب ورضاه فحسب ، بل تصبح في مأمن وحِرْزٍ أكيدين من اعدائها الثلاثة . ذلك أن الإيمان قميصٌ داخلي ناصع البياض حتى إنه يبهر نظر كلِّ عقل . فإذا ما لبست النفسُ الإيمان ، عَجِزَ الشيطان عن رؤيتها وعن إلحاق الضرر بها ، لأنها تصبح ، بفضل الإيمان ، أكثر منها بالفضائل الأخرى كلِّها ، في مأمن أكيد من الشيطان ألدِّ أعدائها وأوفرهم حيلة .

قميص الإيمان الناصع

٤ – ولهذا السبب لم يجد القديس بطرس حمايةً أفضل من الإيمان للتحرّر من [الشيطان] عندما قال : **تقاومونه راسخين في الإيمان** (١ **بطرس** ٥/ ٦) . فلكي تحصل النفسُ على نعمة الحبيب والاتحاد به ، لا تستطيع أن تلبَس قميصاً أو ثوباً داخليّاً أفضل من نصاعة الإيمان ، تضعه أساساً ومبدأً لسائر أزياء الفضائل ؛ لأنه ، كما يقول الرسول ، **بدون إيمان يستحيل إرضاء الله** ، (**عبرانيين** ١١/ ٦) ، كما انه يستحيل مع الإيمان عدمُ

إرضائه ؛ فقد قال هو نفسه بالنبي هوشع : **أتزوَّجُكِ بالإيمان** (**هوشع** ٢/ ٢٠) ، وكأني به يقول : إن أردتِ ، أيتها النفس ، أن تتّحدي وتقترني بي ، فعليكِ أن تأتيني متَّشحةً في داخلك بالإيمان .

اختبار النفس بالمحن

٥ - نصاعة الإيمان هذه ، كانت النفس مُتَّشحةً بها لدى خروجها من هذا الليل المظلم ؛ فبسيرها ، كما قلنا سابقاً ، وسط الظلمات والضيقات الداخلية ، لا يفرِّجُ عنها عقلُها بأي نور من علُ ، إذ تبدو السماء موصدةً والله محتجباً ، ولا من أسفل لأن معلِّميها السابقين لا يَروون غليلَها ، قد تألَّمت بثبات وثابرت عابرةً تلك المشقَّات دون أن تنهار أو تتخلَّف عن الحبيب الذي يختبر بالمشقّات والمحن إيمان عروسته كي يحقَّ لها ، فيما بعد ، أن تردِّد بحقٍّ كلمات داود القائل : **على حسب كلام شفتيكَ لَزِمتُ طرقاً وَعرة** (مزمور ١٧/ ٤) .

صُدرة الرجاء

٦ - وفوق هذا القميص الأبيض ، قميص الإيمان ، تلبس النفسُ هنا اللونَ الثاني وهو درع أخضر يرمز ، كما قلنا ، الى فضيلة الرجاء ، التي بها تتحرَّر النفس ، أوَّل الأمر ، وتحتمي من عدوِّها الثاني ، أي العالم . لأن الاخضرار في الرجاء الحيّ بالله يمنح النفسَ من الرهافة والنشاط والتوق إلى أمور الحياة الأبديّة قِسطاً يبدو لها معه كلُّ ما في العالم ، إزاء

ما ترجوه هناك، ومثلما هو بالفعل، جافّاً وذابلاً وميتاً لا قيمة له. فتتعرّى النفس هنا وتخلع جميع ملابس العالم وأزياءه، فلا تعلّق قلبها في أيِّ شيء، ولا ترجو شيئاً مما في العالم أو مما قد يتأتّى منه، لا تحيا إلّا متّشحةً برجاء الحياة الأبديّة. وبما أن قلبها قد أصبح متسامياً عن العالم فلا يستطيع العالم مسَّ قلبها أو تكبيله، بل لن يستطيع حتى رؤيته.

واقية للنظر

٧ - وهكذا تمضي النفس بزيٍّ تنكّرها الأخضر بمأمنٍ أكيدٍ من العدوّ الثاني أي العالم. لذلك يسمّي القديس بولس الرجاء **خوذة الخلاص** (١ **تسالونيقي** ٥/ ٨)، لأنها سلاح يحمي الرأس كلَّه ويغطّيه فلا يبقى منه مكشوفاً إلّا واقيةٌ[1] يُرى من خلالها. فهذا ما يفعله الرجاء إذ يستر حواسَ رأس النفس، لئلّا تستغرق في أيِّ شيءٍ عالمي أو لئلّا تبقى فيها ثغرة ينفذ منها إلى النفس سهمٌ من سهام العالم، ويترك لها فقط واقيةً تنظر منها العين إلى العلى، لا أكثر؛ وهذه هي المهمّة التي يقوم بها الرجاء عادة في النفس، أي ان يرفع العينين لتنظرا الله وحده، كما يقول داود (مزمور ٢٤/ ١٥) **عيناي الى الرب في كل حين**، دون ان يرجو خيراً من أي جهة أخرى، كما يقول في مزمور آخر، بل، (١٢٢/ ٢) **كما ترفع الأمة عينيها الى يد سيّدتها، كذلك عيوننا الى الرب إلهنا حتى يتحنّن علينا.**

---

(١) Visera، واقية الوجه وهي قسمٌ متحرّك من الخوذة يحمي الوجه ويُرى من خلاله (ش. ر.).

الرجاء العنيد

٨ - وبسبب هذه البدلة الخضراء، وبما أن النفسَ تنظر دوماً إلى الله، ولا تحدِّق إلى أيِّ شيء سواه، ولا ترتوي إلّا به، فالحبيب يسرُّ جدّاً بالنفس، حتى ليقال بحقٍّ إنها تنال منه كل ما ترجوه. فلذلك يقول لها العريس في **نشيد الأناشيد** (٤/ ٩)، إنها **بنظرةٍ واحدة خَلَبَتْ قلبه**. وبدون هذه البدلة الخضراء، بدلة الرجاء بالله فقط، لم يكن من المناسب أن تخرج النفس يتَطمَعَ بهذا الحبّ لأنها لن تصيب شيئاً: لأن المحرِّكَ والظافرَ هو الرجاء العنيد.

لا تملّكٍ ولا سند

٩ - وتسير النفس متنكِّرةً بثوب الرجاء هذا، في الليل المظلم السرِّي المذكور، دون أي تملُّك أو سند، حتى إنها لا تنظر إلى أيِّ شيء ولا تأبَه لأيِّ شيء آخر سوى الله، **جاعلةً فاها في التراب، عسى أن يكون رجاء**، كما أوردنا سابقاً على لسان أرميا (**مراثي** ٣/ ٢٩).

حلّة حمراء

١٠ - لكي ينتهي التنكّر وتكتمل البدلة، ترتدي النفس هنا، فوق الأبيض والأخضر، اللون الثالث، وهو حلّةٌ ممتازة حمراء، تدلّ على الفضيلة الثالثة أي المحبّة التي لا تُضفي على اللونين الآخرين بهاءً،

فحسب ، بل إنها تسمو بالنفس سموّاً يضعها بالقرب من الله ، بهيّةً مرضيّةً فتتجاسر وتقول : **أنا سوداء ، يا بنات أورشليم ، لكنّي جميلةٌ ؛ ولذلك قد أحبّني الملك ، ووضعني في خِدره (نشيد الأناشيد** ١/ ٤/ ٥).

بهذه البدلة ، وقد أصبحت الآن بدلة الحبّ ، وتبعث في الحبيب مزيداً من الحبّ ، لا تحترز النفس فقط من العدو الثالث أي الجسد ، وتتستّر عليه - فحيث يقيم حبٌّ صادقٌ لله ، لن يدخل حبُّ الذات وأمورِها الشخصيّة - بل إنها ترسّخ الفضائل الأخرى وتزيدها صلابةً وقوّةً للدفاع عن النفس ، وتمنحها جمالاً وظرفاً لتنال النفسُ إعجابَ الحبيب ؛ لأنه بدون المحبّة ليس من فضيلةٍ مقبولة لدى الله . فهذا هو الأرجوان الذي يقال عنه في سفر **الأناشيد** إن الله يستريح عليه عندما يأتي الى النفس . وبهذه البدلة الحمراء تتزيّا النفس عندما تخرج في الليل المظلم من ذاتها ومن جميع المخلوقات ، بلهفات الحبّ مضطرمة ، -كما سبق شرحه في الأنشودة الأولى - مرتقيةً سلّم التطلّع السّرية لتصل إلى خلاصها المحبوب ، أي الاتحاد الكامل بالله بالحبّ .

عمل الفضائل الثلاث

١١ - فهذا هو التنكر الذي تقول النفس عنه إنها تعمَدُ إليه في ليل الإيمان ، لدى ارتقائها السلّم السّرية ، وتلك ألوانه الثلاثة ؛ إنه لأستعدادٌ ملائمٌ جدّاً لاتحاد النفس بالله ، حسب قواها الثلاث ، أي العقل والذاكرة والإرادة .

لأن الإيمان يُظلِم العقل ويُفرغه من كل إدراك طبيعي ، فيهيّئه بذلك للإتّحاد بالحكمة الإلهية ؛ بينما الرجاء يُفرغ الذاكرة ويبعدها عن أي تملّك للخليقة ، كما يقول القديس بولس : **إنما نرجو ما لا نشاهد** (رومية ٨/ ٢٤) ، فهو يُبعد الذاكرة عما يمكنها امتلاكه ويضعها فيما ترجوه . ولهذا فإن الرجاء بالله وحده يهيّئ الذاكرة بكلّ نقاوة ليوحّدها بالله . أمّا المحبّة فإنها تُفرغ الإرادة ، لا أكثر ولا أقل ، من عواطفها وشهواتها ، وتلاشيها من كلّ ما ليس الله ، وتضعها فيه وحده . وبهذه الطريقة تهيّئ هذه الفضيلة تلك القوّة وتوحّدها بالله بالحبّ . وبما ان مهمّة تلك الفضائل إقصاءُ النفس عن كلّ ما هو دون الله ، فإنها بالتالي ، توحّدها بالله .

الحظ السعيد

١٢ - وهكذا ، اذا لم تسِر النفسُ حقّاً ببدلة هذه الفضائل الثلاث ، يستحيل عليها بلوغ كمال الاتحاد بالله بالحبّ . فلكي تبلغ النفس ما تطمح اليه ، أي الاتحاد الودّي اللذيذ بحبيبها ، كان من الضروري والمناسب أن تتزيّا وتتنكّر بهذه البدلة التي تزيّت هنا بها . لقد أصابت النفس حظّاً عظيماً ، وفوق ذلك وُفّقت في ارتدائها وثابرت عليه إلى أن بلغت مرامَها وهدفها المنشود أي الاتحاد بالحبّ ؛ ولذلك تقول هذا البيت :

يا له حظّاً سعيداً !

الفصل الثاني والعشرون

يُشرحُ البيت الثالث من الأنشودة الثانية.

تسامي النفس

١ - لقد تبيَّن جليّاً أن كان حظّاً سعيداً نجاحُ النفس في مسعًى كهذا، أي خروجُها الذي تحرّرت فيه من الشيطان والعالم ومن حسّيتها الذاتية، كما قلنا؛ وبعد حصولها على حرّية الروح السعيدة التي يتوق اليها الجميع، خرجت من الأسفل الى الأعلى، ومن أرضيّةٍ صارت سماوية، ومن بشريّة صارت إلهيّة، وسيرتها في السماوات (**فيليبي** ٣/ ٢٠)، كما يحصل للنفس في هذه المرتبة من الكمال. وهذا ما بقي علينا أن نعرضه وإن بشيءٍ من الاقتضاب.

٢ - لقد شرحنا بالتقريب ما يُعتبر غايةً في الأهميّة، وما سعيت إليه بنوع خاص، ألا وهو إيضاح هذا الليل لنفوس كثيرة تجتازه دون علم منها، كما قيل في التمهيد[1]؛ وقد بسطناه دون ما هو في الواقع: فما

---

(١) التمهيد، يقصد به تمهيد كتابه السابق: **صعود جبل الكرمل**. وهذا ما يؤكّد أنَّ المؤلّف يتّبع في الكتابين تصميماً موحّداً، يكون دليلاً لقراءتهما معاً. وبهذا

أكثر الخيرات التي يجلبها للنفس ، وما أسعده حظّاً للنفس التي تسير فيه ! حتى إذا ما ارتعبوا[٢] من شدّة تلك العذابات ، نَشَطوا بالرجاء الوطيد بأنّهم سيحصلون في الليل على كثيرٍ من خيرات الله العميمة .

وعلاوةً على ذلك ، فقد كان حظّاً سعيداً قولُها في البيت التالي أي :

في الظلمة وخفيةً .

الإقرار يكشف الكاتب عن سروره وخيبة أمله : عن سروره لأنه أتمّ قَصدَه الأوّل أي شرح اللّيل ، وعن خيبته حين يُعلن أنه سيتناول باقتضاب ما بقي من القصيدة أي كلّها تقريباً . فلا عجب إن قطع كلامه في نهاية الفصول الثلاثة بشكل مفاجئ دون أن ينهي الشرح (عن الناشر) .

(٢) ينتقل الكاتب من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع قاصداً النفوس (ش .ر.).

الفصل الثالث والعشرون

يُخبر عن المخبأ العجيب الذي توضع فيه النفس في هذا الليل، وكيف ان الشيطان، لا يدخل فيه رغم دخوله الى مخابئ أخرى أكثر عمقاً.

مختبئة ومحجوبة

١ - في خفية، كأن يقال مختبئة ومحجوبة. لذلك عندما تقول النفس هنا إنها خرجت في الظلمة وفي خفية، فهي تعبّر تعبيراً أوضح عن الأمان الذي أعلنته في البيت الأوّل من هذه الأنشودة، وهو ما نالته بواسطة هذا التطلّع المظلم في طريق الاتحاد بالله بالحبّ. وبقول النفس في ظلمة وفي خفية، تصرّح بأنها ما دامت تسير في الظلمة كما ذُكر، فهي تمضي محجوبة ومختبئة عن الشيطان وعن أشراكه ومكايده.

عجز الشيطان

٢ - والسبب في أن النفسَ تسير في ظلمة هذا التطلّع حرّةً ومختبئةً عن حبائل ابليس، هو ان التطلّع المفاض الذي تنعم به هنا، يُفاضُ عليها

بنوعٍ انفعالي وسرّي، بمعزل عن الحواس والقوى الداخلية والقوى الخارجيّة في الجزء الحسّي. وينتج عن ذلك أن النفس تصبح منستترةً وحرّةً ليس فقط من الحائل الذي قد تشكّله تلك القوى بسبب ضعفها الطبيعي، بل، أيضاً، من الشيطان الذي لا يستطيع، بدون تلك القوى في الجزء الحسّي، التوصّلَ الى معرفة ما في النفس وما يجري في داخلها. فبمقدار ما يكون الاتصالُ روحيّاً وداخليّاً وبعيداً عن الحواس، بمقدار ذلك يصعب على الشيطان فهمه.

نتائج التخفّي

٣ - لذلك - وحفاظاً على أمن النفس -، من المهمّ جدّاً ان تتمَّ علاقة النفس الداخلية بالله بطريقةٍ تبقى معها حواسُ النفس في جزئها السفلي في ظلمة، وصائمةً عن أي علاقة، ولا تصل إليها. أولاً: إفساحاً في المجال لأن يكون الاتصال الروحي أوفر غزارة، فلا يعيق وهنُ الجزء الحسّي حرّيةَ الروح؛ ثانياً: لكي تسيرَ النفس، كما قلنا، بأمان أعظم، فلا ينفذ الشيطان الى هذا العمق. بذلك نستطيع أن نفهم، على طريقة الروحيين، قولَ مخلّصنا في هذا الخصوص: **لا تعرفْ شمالك ما تصنعُ يمينُكَ** (**متى** ٦/ ٣)؛ وكأني به يقول: ما يتمّ في جزء اليمين، وهو الجزء الأعلى والروحي من النفس، لا يعلمه جزء الشمال، أي يكون في حالةٍ لا يُدركه فيها الجزءُ السفلي من النفس، أي الجزءُ الحسّي، بل يبقى سرّاً محصوراً بين الروح والله.

بلبلة الشيطان

٤ - صحيحٌ ان الشيطان، عندما تحلُّ بالنفس وتحدث فيها هذه الاتصالات الروحية الباطنية جدّاً والسرّيّة، وإن لم يُدرِك كُنهها وشكلَها بفضل ما يُحدِث بعضٌ منها في الحواس وقوى الجزء الحسّي من سكونٍ عظيم وصمت، فإنه غالباً ما يتنبّه الى حصول النفس عليها ونوالِها بعضَ الخير.

حينئذٍ، ولعلمه بأنه يعجز عن معاكسة [الاتصالات] في عمق النفس، فإنه يبذل جهده ليُحدث في الجزء الحسّي بلبلةً واضطراباً حيث يمكنه الوصول، وذلك بالآلام تارةً، وطوراً بالأهوال والمخاوف، قاصداً بهذه الطريقة ان يُشيعَ القلق والاضطراب في الجزء العلوي والروحي من النفس، تجاه الخير الذي تناله في ذلك الوقت وتنعم به.

غوص في الأعماق

لكن عندما يغمر اتصال ذاك التطلّع الروحَ غمراً خالصاً ويأخذ بمجامعه أحياناً كثيرة، فلن يُفلِحَ الشيطان في إزعاجه مهما بذل من جهد؛ بل، على العكس، تجني النفس حينئذ، فائدة جديدةً عظمى، وسلاماً أوطد. ذلك أن النفس، ما إن تشعر بالعدو حاضراً مزعجاً، ويا للعجب!، حتى تغوص في عمق أعماقها دون ان تعلمَ كيف او تبذل أيَّ جهد من جهتها، فتحسّ احساساً مرهفاً بأنها في مخبإٍ أمين، حيث تجد نفسها بعيدة جدّاً عن العدو ومختبئة، فيتضاعف فيها ما كان الشيطان ينوي أن يَحرمَها من سلامٍ وسرور. وحينئذ، يسقط منها ذلك الخوف خارجاً؛ وهذا ما تشعر به

النفس بوضوح ، فتفرح إذ ترى ذاتها آمنةً جدّاً تتمتّع بذاك السلام الهادئ ولذّة العريس المحتجب ، اللذين لا يستطيع العالم ولا الشيطان أن يمنحهما أو ينتزعهما ؛ عندئذ تدرك النفس صدق ما تقوله في هذا المجال عروس **الأناشيد** أي : **هوذا سريرُ سليمان حوله ستّون جبّاراً** الخ . . . **لأهوال الليل** (**نشيد الأناشيد** ٣/ ٧- ٨) . وتشعر النفس بهذين القوة والسلام رغم شعورها أحياناً كثيرة بالعذاب الخارجي في لحمها وعظامها .

من روحٍ الى روح

٥ - وأحياناً أخرى ، عندما لا يَصِلُ الاتصال الروحي أعماق الروح ، بل يشترك فيه الحسّ ، يتوصّل الشيطان بسهولة أوفر ، إلى تعكير صفو الروح وإقلاقه بواسطة الحسّ وأهواله . فيكون حينئذ عظيماً ما يسبّبه في الروح من ألم وعذاب ، وأعظَمَ من أن يوصَفَ بعض الأحيان . وبما أن التأثير يتأتّى من روحٍ الى روحٍ بطريقة مجرّدة ، فقد يفوق الاحتمالَ الهولُ الذي يُحدِثُه الروحُ الشرير في الروح الصالح ، أي في روح النفس ، عندما يصيبه الاضطراب . وهذا ما تشير إليه عروس **الأناشيد** في حديثها عما جرى لها عندما أرادت ان تدخل في الخلوة الباطنية لتنعم بهذه الخيرات ، فتقول : **نزلتُ جنّة الجوز ، لأنظرَ الى براعم الوادي ، وأرى هل أزهرَ الكرم . . . فلم أعلم ؛ واضطربت نفسي من أجل المركبات . . .** (**نشيد الأناشيد** ٦/ ١٠- ١١) أي من أجل ضجيج عربات عميناداب ، وهو الشيطان [1] .

---

(١) أنظر شرحاً مفصّلاً لهذا الموضوع في **النشيد الروحي** ٤٠، ٣.(عن الناشر).

تعادل المتحاربين

٦ - ويحدث مرّات أخرى ، ان يدري الشيطان ، في بعض الأحيان ، بإحدى المنن التي يودّ الله ان يغدقها على النفس ، خاصة عندما يتمّ ذلك بواسطة ملاك الخير . فالمنة التي تأتي بواسطة هذا الروح الصالح ، يسمح الله عادةً بأن يعرفها العدوّ : من جهة لكي يعاكسها ما استطاع ، بنسبة معتدلة ، فلا يتذرَّع الشيطان بحقّه قائلاً إنه لم تُعْطَ له فرصةٌ للسيطرة على النفس ، كما صنع مع أيوب (١/ ٩- ١١؛ ٢/ ٤- ٨) ؛ وهذا ما قد يحصل لو لم يفسح الله في المجال لتعادل المتحاربين بالنسبة الى النفس أي ، ملاك الخير وملاك الشر . عندئذ يكون انتصار أيِّ فريق أعظمَ قدراً ، كما تُكافأ النفس المنتصرة والأمينة في التجربة بثوابٍ أجزل .

رؤى حقيقية ومزيَّفة

٧ - لذا تجدر بنا الاشارة الى أن هذا هو السبب الذي يجعل الله يسمح بأن يعامل الشيطانُ النفسَ بذات الوسيلة والطريقة اللتين يعامل بهما ، هو ، أي الله ، النفسَ ويقودها ؛ فاذا نالت النفس رؤىً حقيقية بواسطة ملاك الخير - وهي تُمنَحُ عادةً بواسطته ، حتى ولو ظهر المسيح لأنه شخصياً قد لا يظهر أبداً - فإن الله يسمح أيضاً ، لملاك الشرّ بأن يقدر على تمثيل رؤىً مزيَّفة بذات الطريقة ، فتتيح ، حسب مظهرها ، للنفس غير المحترزة بأن تُخدَع بسهولة ، كما خُدع قبلها بالطريقة عينها عديدون . ولدينا مثال على ذلك في سفر **الخروج** (٧/ ١١- ١٢؛ ٨/ ٧) حيث

يقال إن جميع الآيات الحقيقية التي صنعها موسى، صنع مثلها كذلك سَحَرة الفرعون: فإذا أخرج ضفادع، أخرجوها هم أيضاً؛ وإذا حوّل الماء دماً حوّلوه هم أيضاً.

محاربة الروحي بالروحي

٨ - ولا يقلِّد، فقط، في هذا الضرب من الرؤى الجسديّة، بل أيضاً في الاتصالات الروحية، التي تتمّ على يد الملاك، فيتوصّل الى معرفتها، كما قلنا؛ لأنه كما يقول **أيّوب: يسدِّدُ نظرَه الى كلِّ متعالٍ** (٤١/ ٢٦)، فيقلِّده ويتسلّل اليه. غير انه لا يستطيع ان يقلِّد هذه اذ لا صورة لها ولا هيئة - لأن الروحَ بطبيعته لا صورة له - ولا يستطيع أن يعطيها صورةً مثل الرؤى الأخرى التي تتمثّل بصورة أو هيئة. فلكي يهاجم النفسَ بالطريقة ذاتها التي تُفتَقَدُ بها، يمثِّل لها روحَه المرعب كي يهاجم الروحي بالروحي ويصرعه.

فعندما يحدث ذلك، وبينما يكون ملاك الخير على وشك أن يمنح النفسَ التطلّع الروحي، لا تستطيع النفس أن تدخل بسرعة مخبأ التطلّع لتحتجب فلا يدري بها الشيطان، بل سرعان ما يدركها بشيء من الرعب والاضطراب الروحيَّين، ما قد يؤلمها بعض الأحيان إيلاماً. غير أنَّ النفس قد تتفلَّت أحياناً بسرعة، دون أن ينطبعَ فيها رعبُ روح الشر، وتختلي في داخلها تساعدها على ذلك النعمة الروحيّة الفعَّالة التي يغدقها عليها حينئذٍ ملاك الخير.

انتصار الشيطان

٩ - ومرّات أخرى ينتصر الشيطان فيسيطر على النفس الاضطراب والهلع، وهذا ما يولّد في النفس ألماً أكبر من أيِّ عذابٍ آخر في هذه الحياة. وبما ان هذا الاتصال المرعب يتمُّ من روح إلى روح، متجرّداً نوعاً ما، وبوضوح، عن كلِّ ما هو جسد، فهو مؤلم فوق كلِّ إحساس. كما أنه يدوم في الروح بعض الوقت، لكنه لا يطول، وإلا خرج الروح من الجسد من جرّاء عنف اتصال الروح الآخر. وتكفي بعد ذلك الذكرى الباقية في النفس لتسبّب لها عذاباً شديداً.

الله يضع ليرفع

١٠ - كلُّ ما قلناه يتمّ في النفس بنوعٍ انفعالي، دون أن يكون لها دورٌ في إثارته أو منعه. لكن يجب أن نعرف هنا انه عندما يسمح ملاك الخير للشيطان بهذا التفوّق فيلحق بالنفس هذا الهلع الروحي، إنما يفعل ذلك بغية تطهيرها وتهيئتها بهذا السهر الروحي لأحد الأعياد الكبرى أو لمنّة روحيّة كبرى يودّ ان يمنحها إياها؛ وهو لا يُميت إلا ليُحيي، ولا يَضَع إلّا ليرفع (١ **ملوك ٢/٦-٧**). وسرعان ما يحدث هذا الأمر، فتنعم النفس بفضل ما عانته من تطهير مظلم رهيب، بتطلّعٍ روحيّ عجيب وعذب، يكون أحياناً من السموّ بحيث يقصر عنه أيّ كلام. غير أنّ الرعب الذي أنزله فيها سابقاً روح الشرّ، قد شحذ الروح شحذاً ليتلقّى هذا الخير؛ فهذه الرؤى الروحيّة، تختص بالحياة الأخرى أكثر مما تختصّ بهذه الحياة؛ وعندما تحصل الواحدة، فإنها تُعِدّ للأخرى.

زيارات الله نفسه

١١ - ما قلناه ينطبق على وقت افتقاد الله للنفس بواسطة روح الخير، حيث لا تسير النفس تماماً في ظلمة وفي خفية، كما قلنا، ولا يدركها العدوّ. ولكن عندما يزورها الله نفسه، يتحقّق تماماً، حينذاك، البيتُ المذكور، لأنَّ النفس تتلقّى منن الله الروحية وهي في ظلمة تامة وفي خفية عن العدوّ. والسبب في ذلك أن جلاله يقيم جوهريًّا في النفس، حيث لا يستطيع الملاك ولا الشيطان إدراكَ ما يجري، ولا معرفة الاتصالات الحميمة والسّرّية التي تحصل فيما بينهما. وبما ان هذه يُجريها الربُّ نفسه، فهي إلهيَّةٌ وربَّانية تماماً لكونها كلّها لمساتٍ جوهريةً من الاتحاد الإلهي بين النفس والله؛ ولكونها الدرجةَ السميا من درجات التأمل، فبلمسةٍ واحدةٍ منها، تنال النفس خيراً يفوق ما قد تناله في أيِّ شيء آخر.

من جوهر الله الى جوهر النفس

١٢ - فهذه هي اللمسات التي تبادر النفس إلى طلبها في **النشيد** قائلةً: **ليقبّلني بقُبَل فيه (نشيد الأناشيد ١/١)**. وبما أن هذا الأمر يجري قريباً جدًّا من الله، حيث تبغي النفس الوصول بلهفات شديدة، فهي تقدِّر وتبغي لمسةً واحدة من هذه الألوهة أكثر من سائر المنن التي يغدقها الله عليها؛ فبعد أن أغدق عليها مناً وفيرةً، وقد أشادت بها في سفر **الأناشيد**، لم تكن راضيةً، بل صرخت تطلب هذه اللمسات الإلهية: **من لي بكَ كأخٍ لي، قد رضع ثديَ أمّي، فأجدَك في الخارج وحدي، وأقبّلك بفم نفسي، فلا يذمّني ولا يحتقرني أحد؟ (١/٨)**. بهذه العبارة توضح النفس ان

الاتصال الذي يجريه الله بها، يتمّ به وحده، كما قلنا، خارجاً عن جميع الخلائق وبمعزلٍ عنها؛ وبقولها: **وحيداً يرضع خارجاً** تعني أنّه ينشّف اثداء الشهوات ويخمد العواطف في الجزء الحسّي. ويحدث ذلك عندما تصحب النفسَ حرّيةُ الروح دون أن يعوقَها الجزءُ الحسّي أو يعاكسها بواسطة الشيطان، فتنعم بهذه الخيرات في عذوبة وسلام عميق؛ بل إن الشيطان لا يجرؤ على ذلك لأنه لا يستطيع الوصول الى النفس، ولا إدراك هذه اللمسات الإلهية التي يُحدثها جوهر الله المحبّ في جوهر النفس.

١٣ - ولا يبلغ أحد هذا الخير إلا بالعري الباطني والتطهير والاختباء الروحي عن كل ما هو مخلوق. وذلك يتم في ظلمة، كما تبسّطنا في شرحه قبلاً في معرض حديثنا عن العبادة في خفية واختباء؛ وفي هذا الاختباء، كما قلنا آنفاً، تتثبّت النفس في الاتحاد بالله بالحبّ. ولذلك تنشد في البيت التالي قائلةً:

في ظلمة وفي خفية.

انفصام عميق

١٤ - وعندما يحدث أن تُغدَقَ تلك المنن على النفس **في خفية**، أي في الروح فقط، كما قلنا، فإن النفس ترى ذاتها أحياناً، دون أن تعرف كيف، معزولةً وبعيدةً بالجزء الروحي الأعلى عن القسم الأسفل الحسّي، بحيث إنها تجد في ذاتها جزئين مختلفين، ويخيَّل إليها أن لا علاقة للواحد بالآخر، لاعتقادها بأنها بعيدة ومعزولة جدّاً عن أحدهما. وفي الحقيقة، انها لكذلك نوعاً ما، لأن النفس، وفقاً للعمل الذي تقوم به

آنئذٍ، وهو روحيٌّ صرف، لا تتَّصل بالجزء الحسِّي. وبهذه الطريقة، تصبح النفس روحيَّةً صرفاً. ففي مخايئ التطلُّع التوحيدي هذه، تُخْمَدُ الأهواء والشهوات الروحية إلى درجةٍ قصوى. وهكذا تقول النفس في معرض كلامها على جزئها العُلوي، هذا البيت الأخير:

وبيتي قد صار هادئاً.

الفصل الرابع والعشرون

في هدوء النفس وخلع الإزار القديم .

١ - وهذا معناه: بينما صار الجزء العلوي من نفسي ، كما الجزء السفلي ، هادئاً حسب شهواته وقواه ، خرجت الى الاتحاد الإلهي بالله بالحبّ .

هدوء النفس

٢ - وكما ان النفس قد حوربت وطُهِّرت بواسطة حرب الليل المظلم ، كما قلنا ، بطريقتين ، أي في جزئيها الحسّي والروحي ، مع حواسّها وقواها وأهوائها ، كذلك تحصل النفس أيضاً على السلام والراحة بطريقتين ، أي في جزئيها الحسّي والروحي ، مع جميع قواها وشهواتها . ولذلك ، تردِّد هذا البيت مرّتين ، كما قيل أعلاه ، أي في هذه الأنشودة والسابقة ، بسبب جزئي النفس الروحي والحسّي ؛ فلكي تخرج النفس إلى الاتحاد الإلهي بالحبّ ، لا مندوحة من اصلاحهما أولاً وتنظيمهما وتهدئتهما ، فيما يتعلّق بالحسّي والروحيّ ، وفقاً لطريقة حال البرارة التي كانت في آدم . فكما كان هذا البيت يشير في الأنشودة الأولى الى

الهدوء في الجزء السفلي والحسّي ، كذلك في هذه الأنشودة الثانية ، وبنوع خاص ، يعني الجزء العلوي والروحي من النفس . ولذا كرّرته مرّتين .

هدوء وسكون

٣ - وتحصل النفس بنوع عادي وكامل على هذين الهدوء والسكون في مسكنها الروحي حسبما يستطاع في هذه الحياة ، بواسطة افعال اللمسات الجوهريَّة من الاتحاد التي شرحناها آنفاً ، والتي نالتها من الألوهة في خفية ، وفي مخبإ عن اقلاق الشيطان والحواس والأهواء ؛ ففيها أخذت تتطهّر ، كما قالت ، وتُهَدَّأ وتتقوّى وتستقرّ لكي تصبح قادرةً على نوال الاتحاد المذكور ، وهو القران الإلهي بين النفس وابن الله .

فما إن ينتهي مسكنا النفس هذان من التهدئة والتقوية في أحدهما مع جميع خدمه من قوى وشهوات ، توضعُ في سباتٍ وصمتٍ بالنسبة الى جميع الأشياء العلوية والسفلية ، حتى تتّحد حالاً هذه الحكمةُ الإلهية بالنفس ، بوثاق جديد من تملّك الحبّ ، فيتم ما تقوله في سفر **الحكمة** (١٨ / ١٤-١٥) : **بينما كان صمتٌ هادئ يخيّم على كلّ شيء ، والليل في منتصف مسيره السريع ، هجمت كلمتك القديرة من السماء ، من العروش الملكيّة** . وتوضح الأمرَ نفسه عروس **الاناشيد** قائلة إنها **بعدما اجتازت الذين رفعوا إزارها في الليل وجرّحوها** ، (٧/٥) ، وجدت من تحبّه نفسُها (٤/٣) .

خلع الإزار القديم

٤ – ولا يمكن بلوغ هذا الاتحاد دون طهارة فائقة ؛ كما لا يمكن بلوغ هذه الطهارة إلّا بتجرّدٍ تام عن كل شيء مخلوق وبإماتة قاسية . هذا ما تشير اليه العبارة: رفعُ الازار عن العروس ، وجرحُها في الليل ، في أثناء بحثها عن العريس وتوقها اليه . فلا يمكنها ارتداء الإزار الجديد الذي تنتظره بالقِران ، ما لم تخلع القديم . ولذلك ، فمن رفض الخروجَ في الليل المذكور ليفتّش عن الحبيب كما فعلت العروس ، والتعرّيَ من ارادته ، والإماتة ، بل يبحث عن الحبيب في الفراش والرفاهية ، فلن يجده ، كما تقول هذه النفس إنها وجدته ، بخروجها في ظلمة وبلهفات الحبّ .

الفصل الخامس والعشرون

تُشرح باقتضاب الأنشودة الثالثة.

الأنشودة الثالثة:

في الليلة السعيدة
في الخفاء، ولا أحدَ يراني
ولا أرى أنا شيئاً،
دون نورٍ ولا دليل
سوى الذي في قلبي يستعر.

الشرح

١ - بينما تتابع النفس استعارة الليل الزمني وتشبيهه بليلها الروحي، تعدِّد، كذلك، خصائصه السامية وتعظّمها، وتصرّح انها وجدتها به ونالتها، حتى إنها بلغت بسرعة وبأمان الهدف المنشود. فتذكر ثلاث خصائص:

تطلّع موحش غريب

٢ - في الخاصة الأولى، تقول إن الله يقود النفس في ليل التطلّع

السعيد في نوع من التطلّع، موحِشٍ وسرّيٍّ جدًّا، بعيدٍ عن الحسّ وغريبٍ عنه، لا يبلغه أيّ شيء مرتبط بالحسّ، ولا تستطيع أيّة خليقة أن تصل الى النفس، فتعيقها وتوقفُها في طريق الاتحاد بالحبّ.

القوى في ظلمة

٣ - تقول في الخاصة الثانية إن جميع قوى الجزء العلوي من النفس هي في ظلمة بسبب ظلمات هذا الليل الروحية. وبما ان النفس لا ترى ولا تستطيع أن ترى شيئاً، فهي لا تتوقّف عند شيء خارج عن الله لتمضي صوبه لأنها تحرّرت من حواجز الصور والهيئات والمعارف الطبيعية، التي غالباً ما تُعيق النفس كيلا تتّحد بذات الله الأزلية.

الحبّ وحده مرشد النفس

٤ - تقول في الثالثة: بالرغم من أن النفس لا تستند إلى أيّ نورٍ داخلي خاص في العقل، ولا إلى أيّ دليل خارجي يبعث فيها الارتياح، في هذا الطريق السامي، وقد حرمتها كلّ ذلك هذه الظلماتُ الحالكة، فأن الحبّ الذي يستعر وحده في هذا الوقت، ويوجّه القلب نحو الحبيب، هو الذي يرشد النفس ويحثُّها ويجعلها تطير نحو إلهها في طريق العزلة، دون ان تعرف، هي، كيف تمّ ذلك ولا بأيّة طريقة. يتبع البيت:

في الليلة السعيدة [1].

---

(١) بهذه الكلمات تنتهي مخطوطات **الليل المظلم** جميعُها، مفسحة في المجال لكلّ الافتراضات حول عدم اكتمال الكتاب (المترجم).

prologo muy adecuado a nuestra edición de la *Noche Oscura*.

El lector árabe tiene, pues, a su disposición, una fuenta segura para conocer en su lengua propia el pensamiento autentico del doctor místico en una de sus obras mayores.

Por ello estamos seguros que esta nueva obra de San Juan de la Cruz sera objeto de la misma acogida favorable dispensada a las traducciónes anteriores en nuestra Colección "Patrimonio del Carmelo".

Hazmieh 1-8-95

P. Chahine Richa
Provincial

Presentación

La Orden Carmelitana en el Libano, prosiguiendo su tarea de difusión del patrimonio espiritual y místico de sus grandes maestros presenta, a sus lectores árabes e investigadores de la literatura mística comparada la *Noche Oscura* de San Juan de la Cruz.

La alternancia de publicación de las obras de los dos Doctores de la Iglesia, Santa Teresa y San Juan de la cruz, muestra nuestro empeño de hacer conocer su obra que, en definitiva, encarna su doctrina espiritual avalada por la Iglesia universal, y valida para todos los tiempos por cuanto se basa, esencialmente, en la vocación divina del hombre en su origen, proceso vital y destino.

Una vez más, la ayuda generosamente concedida por el Ministerio de Cultura de España ha contribuido a facilitar la publicación de esta *Noche Oscura* que, como las obras anteriormente editadas, es una traducción esmerada del texto sanjuanista establecido en las mejores ediciónes críticas españolas.

La introducción arabe del profesor Antoine Saíd KHATER, nuestro fiel colaborador y excelente traductor de Santa Teresa y de San Juan de la cruz, ha puesto de relieve los elementos oportunos para que sea un

Noche Oscura
Traducción: P. Estefan TOHME, ocd.
Revisión y Subtítulos: P. Chahine RICHA, ocd
Revisión y introducción: Antoine Saíd KHATER.

Impresión: Georges Al Achkar. LIBANO

Colección: "Patrimonio del Carmelo" Nº 13
© y distribución: Padres Carmelitas
Couvent N.D. du Carmel
Hazmieh, libano B.P. 285
Tel. (05) 453093

JUAN DE LA CRUZ

OBRAS COMPLETAS

Vol.3

Noche Oscura

Traducción del original español
de
P. Estefan TOHME, ocd.

Introducción de Antoine Saíd KHATER

La presente edición ha sido traducida mediante una ayuda de la Dirección general del Libro y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España.

Beirut
2003

Patrimonio del Carmelo
N°. 13

JUAN DE LA CRUZ

OBRAS COMPLETAS

Vol.3

Noche Oscura

Traducción del original español
de
P. Estefan TOHME, ocd.

Beirut
2003

Patrimonio del Carmelo
N°. 13